جَرْف السّيل

د . محمَّد سعيد شهاب الدّين

اسم الكتاب: جَرْف السّيل

المـــــؤلف: د. محمد سعيد شهاب الدين

الناشـــــر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com
borsatelkotob@gmail.com

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

رقم الإيداع ٢٥٥٨٢ /٢٠١٥
الترقيم الدولي: ١- ٠٢١-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية- دار الكتب المصرية

شهاب الدين،محمد سعيد.

جَرْف السّيل/ د. محمَّد سعيد شهاب الدّين.-القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٥ .

٢٦٤ ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ١-٠٢١-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

جَرْف السّيل

د. محمَّد سعيد شهاب الدّين

الطَّبعة الأوْلى ٢٠١٦

الجبل

الجبل بعنفوانه وصولته وغروره وجموحه، حين يصطفيك فتصير من خُلصائه، يضمّك جنابه، تحتويك دهاليزه وكهوفه فيخفيك في حناياه؛ لتصبحَ في منأى عن الطَّالبين، في أمانٍ وأنت في حضرته الجليلة، ولكن لا تأمن شرّه ولا غدرهُ ولا غضبه حين تراه هادئًا يحملق فيك في دعَة وسكون، رابضًا كأبي الهول، ربَّما متحفِّزًا لوثبةٍ غادرة قبل أنْ ينتشرَ الضّوء في ربوعه ويتناثر النّور.

ألم ينظر إليه الله من عليائه ويتطلّع إليه، فتضاءل من خشيته وتفصَّد غروره وانمحقَ تطاوله واندكَّ حين غشاه النّور الدَّائم الأزليّ الذي لا يعدِله نور، ويستمدّ منه الكون والأفلاك والأجرام الضِّياء والقوَّة.

ألم يُفسِح مدقَّاته الوعِرة ودهاليزه الخفيّة لشتَّى الخُطى... مَن انتمَى له بالقربى مِنْ قاطني رحابه، وكذا الغرباء الذين دفعهم الحمقُ والجهل والرُّعونة لانتهاك قدسيَّته وجلاله، ظانّين أنَّه كيانٌ أصمٌّ قتلهُ سكونُه وأعماه طول المُكث بلا ارتحال، ما علِموا أنَّهُ أوتادٌ للأرض يُهذِّب من دورانها الوئيد، ولولاه لمادت في الفضاءِ العريض.

ما جرّبوا غضبهُ وما عاينوا انتقامهُ الرَّابض الكامن العنيف حين تستثيرهُ الرِّياح وتسفحهُ العواصف؟ فتصبح أيّها المتطفِّل المُجترئ المُستهين ريشة تتقاذفها الأقدار، ربَّما طارت بعيدةً بعيدةً، ثمَّ هَوَت كورقة شجرة جافّة يقلّبها الهواء كيف شاءَ، فتُسقِطكَ مِن أعلى ربوةٍ أو تتعثّر بصخرةٍ فتغدو

كعصفٍ مأكولٍ ومَثلًا حيًّا لعاقبة النَّزَق والاندفاع والتَّهوّر دون تروٍّ أو حسابٍ للعواقِب.

ورُبَّما أخرج لك مِن باطنهِ شيئًا آخر غير الكنوز والتَّماثيل، فأهداك مِن أهون مخلوقاتِه السّمَّ والألم في ناب حيّةٍ قاتلة أو ذَنَب عقربٍ أسودٍ، بين لسعةٍ ونهشةٍ تكمُنُ النّهاية البائِسة، وقد تنهار أجزاءٌ مِن جسده العملاق فتتدحرجُ صخورهُ الصَّلدة العمياء في صولةٍ وجنونٍ تصطدم بأيِّ شيءٍ حسبما اتَّفق حاملةً معها نُذُر الخراب، وقد ينقضُّ عليك مِن أحد كهوفه حيوانٌ ضالٌّ متوحِّش يبحث عن فريسةٍ يُطفئُ بها أوار جوعِهِ ونَهمه، مِن ذِئابٍ تتَّقِد أعينها بشرر الافتراس، وضِباع لا تعبَأ بضحاياها أحياء أم رِمَمًا بالية مُمَزّقة، وكائنات أشدّ ضراوةً وافتراسًا وقسوة غير ذاتِ أنياب، وليس لها قلوبٌ تشعر ولا ضميرٌ يحسّ مِن بشرٍ وجدوا في كهوف الجبل وحناياه موطِنًا آمِنًا، فاتخذوه موطِنًا بعد أنْ فرّوا من حكم العدالة والقانون أو هربًا مِن ثآرات وطَلَب، ينطلِقون مِنه لبثِّ الهلع والرُّعب في نفس مَن ساقهُ حظّه العاثر إليهم أو ضلَّ طريقهُ فقادتهُ خُطى التِّيه إلى طريقِهِم حيثُ لا رَجْعة ولا إياب.

أتُراهُ حين تتشابه دروبه وتصبح مسالكهُ وصخوره الوَعِرة شيئًا متماثِلًا وكيانات يصعبُ تمييزها أو تحديدها بدقّة تضلّ العين أنْ تهتدى فيها أو تُفرّق بينها، فيضيع الطريقُ ويزيدُ التَّخبُّط، فيقودُ إلى طرُقٍ لا متناهية مِن الضَّلال والتّيه وربَّما الضَّياع، وكم مِن جوّالةٍ تاهوا في دروبه ولم يُعثر عليهم إلّا أجداثًا جامِدة قضى عليها الجوع والعطش وتكفّلت الشَّمس بالإجهاز على مَنْ نجا مِنهما بضربتها القاضيَة. ولفح صهدها المُحرِق الذي يشوي الوجوه وكأنَّهُ نارٌ مستعِرة لا يستطيع وجهٌ أن يجابِهُهُ أو يصمُد في مواجهتِه، فيتوارى أو يُشيحُ بوجهه بعد أنْ يكسوه بكلتا يديه، يدفع عنه الألم القاسي بالغ الشِّدّة.

تلك الشَّمس التي تتوارَى مُنهزِمة أمام زمهرير الليل وبرودة الشِّتاء القاسية ولفحات صقيعه الأشدّ صرامةً كسياطٍ تمزّق الجلود وتخترِق الأجساد في ألمٍ مِن نوعٍ آخر وفنٍّ جديدٍ مِنَ التَّنكيلِ.

والرّمال تلفحك كأنَّها زفراتُه، ربَّما أنفاسهُ الآخِذَة في الغضب، وليله الذي يبدو هادِئًا فتنتشي فيه بالسّحر والقمر والخيال، يستحيلُ كلُّ ذلك لظلامٍ دامِس مرعِب مُخيف يقتحِم سكون ذاتك حين يُبدِّد سكينتك ذلك العواءُ الحادّ القادِم مِن بعيد وراء التِّلال، فيقُضّ مضجعك ويُرخي عزيمتك بويلٍ جديد يحمل رسائِل نُذُرٍ ووعيد؛ لتعيَ أنّ ليلهُ سجنٌ مُطْبق رغم اتّساعه وفُسحته، فمَن ذا يجترئ ويتجاوَز حدودَ موقِعه أو يتسلّل بعيدًا عن نيرانُ مُخيَّمه التي تُعدُّ مركزًا للتَّجمّع والأمان الإجباريّ الذي لا مفرَّ منه ولا حيلة لمن انتوَى عنها الابتعاد، فيلقي بذاته في مداركه المعتمة السَّحيقة وعالم المجهول الذي ليس منه رجعَة؟

ألم يودِع في جوفهِ القدماء قبور فراعينهم وما حَوَتْ من مومياواتهم ومقتنياتهم من مشغولات ذهبيَّة وكنوز مؤثمنيه على قدسيَّتها وقدرته على إخفائها في باطنه، فأودعوا جنابه أعزَّ ما يخشون عليه الضّيعة والتَّنقيب، ليس مِن نفائس ما حَوَت القبور بل الجثمان نفسه الذي يُعدّ لديهم أثمن من الجوهر، وذا قدسيَّة، وحظوة مَن يخشون عليه ويأملون بقاءه خشيتهم عليه حيًّا ربَّما أكثر، حين يعنون بتحنيطه وحشوه بالرَّاتنج والصّبغات بعد تجفيفه، ثمَّ يمعنون لقبره تعميَّة وإخفاءً وتضليلًا، قاصدين بجهد إبعاد اللصوص والنَّبَّاشين عنه، خوفًا مِنْ الضّياع أو التَّشويه؛ لأنَّه الوسيلة الأخيرة للخلود حين تبحث عنه الرّوح جاهدة حتَّى تتعرَّف عليه، وإلَّا ظلَّت في تخبُّط وتيه لا يقرّ لها مُقام حين تضلّ عن جسدها في العالم الآخر وتضيع فرصتها في الخلود،

أو تراهم حين حفروا في صخره معابدهم وشقّوا فيه الصّروح الهائلة والتّماثيل الضّخمة كانوا يلوذون بجنابه ويحتمون بصولته، باذلين ما وسعهم البذل من أجل التّقرُّب إليه والتّوغُّل في أحضانه بين حنايا صخره مستمدِّين من خلوده خلودَهم ومن صلابته وعنفوانه القوّة والمنعة حين يضمّهم في عصمته ربَّما؟

ما أشدّ غضبه حين تتجمَّع زخّات المطر المتتابِعَة في خطوطٍ سطحيَّةٍ متعرِّجة ثمَّ قنيّات تتّحد في أعلى الجبلِ وتلتقي في دروبه المتشعِّبة لتتجمَّع مرَّةً أخرى في مجاري أكبر، فتصبح قطرات الماء المنهمر الرّقراقة بشيرة الخير والخصب والنّماء لوحش هائجٍ وسيلٍ جارِفٍ، يندفع منَ القمّة للأسفل في عنفوانٍ ليغدو سرّ الحياة حامِلًا نُذُر الموت، والدَّمار يجتاح القرى والمدائن مكتسحًا في طريقه صخورًا يحملها على عاتقه في قسوة وفوران غضب، يلقي بها في وجه ما يلقاه عند انحداره من أعلى القمَّة في أوجِّ قوَّته؛ ليغمرَ القرى والزّروع ويهدم المنازل والدّور ويهلك الحرث والنَّسل، فتغدو رائحة الماء المختلط برمله وتربته النَّاعمة وطين الأرض بموجه العاتي الجبّار حاملي رُسُل الموت ونُذُر النِّهايَة.

قريةٌ في قلب الجبل غربي النِّيل تجاور الأقصر، ومن عادة النّيل أن يشطر الجنوب نصفين شرقًا وغربًا، يمتاز الشَّرق عادة بالمدنيَّة والعمران، بينما الغرب يشعرك أنّه دومًا ناءٍ وإن قرُب بعيدٌ غامضٌ، وإن بدا جليًّا واضحًا، ولعلَّه السِّرّ الذي فطنَ إليه القدماء، فاستعاروا مِن غروب الشَّمس تجاههُ طقوسهم الجنائزيَّة حين حفروا فيه قبورهم ودفنوا في جبله موتاهم، وكأنّ (أنوبيسهم) قد حلا له المقام في هذه الجهة الغربيَّة من النِّيل يجوس في مقابرهم يبسط أمام مدخلها ذراعيه وكأنَّه يبسط عليها رداء الأمان أو يتعسَّسها ليشرفَ بنفسه على عمليَّة التَّحنيط المُتقنَة وسرّيّتها الأبديَّة.

ناءَت قرية الجبل عن المدينة المجاورة للنِّيل غربًا ترمقُ من بعيد واديا الملوك والملكات وتمثالا ممنون، وأطلقوا على القرية لقب عزبة ولقب حاجر لدنوّها من الجبل وحجارته ومحاجره جوارًا لصيقًا، فخريطة الجنوب الأزليَّة التي لم تتغيَّر هي النّيل يحيطه شريطٌ أخضر، مدنٌ وقرى وجبلٌ يرمقُ دفَّتيه من بعيد، تقبع أسفلهُ الحواجر لكلّ قرية أو مدينة على شاطئه، تتبعها كخادمٍ لصيق عبارة عن عزبة جبليَّة متاخمة لها الاسم نفسه مسبوقٌ بلفظة حاجر، كأنَّهما عينان، عينٌ في الجنّة وعينٌ في السَّعير، أو عينٌ على الماء وعينٌ على الصَّخر، يمتاز ما جاور النِّيل من نجوع ومدنٍ وقرى عن الحاجر بيسر المواصلات وكثرة المرافق والخدمات والأعمال، بينما الحاجر يقاسي شظف العيش وضآلة الدَّخل وسوء الحال ووسائل الحياة ونقص الخدمات الضَّروريَّة، وربما انعدامها، وكذا المَرَافِق مع الأمان، حتَّى الماء النَّقيّ حين يستقون من آبار مالحة تفتك ملوحتها بكُلاهم وترسّب فيها الحصى، رغم أنّ النِّيل ليس عنهم ببعيد، في المدينة ضجيج مصنع السُّكَّر بمبانيه العالية العريقة والصّوت القارع المفزع لكسَّاراته العملاقة وعصَّاراته الجبَّارة كالعمارة الهائلة وموقعه من شاطئ النِّيل حين يرنّ فوق صفحته ضجيجه ويزلزل الكورنيش من حوله صخبه العاتي، وكأنَّه ماردٌ جبَّار حبيس أسوارٍ عالية يبغي منها الخروج فلا يستطيع ولا يملك إلَّا الزَّئير الهائل الذي يكاد يغطِّي على كلّ صوت، فلا تسمع سواه، بيد أنَّه أصبح صوتًا معتادًا، ربَّما محبّبًا عند النَّاس يحمل بشائر الخير والبركة، فهو يعصر قصبهم، أهمّ زراعاتهم ومورد رزقهم، ويضمُّ بين جنباته عمّالًا منهم يستمتعون بجانبٍ كبير من دخل وافر.

تقبع أسفل المدينة مدينةٌ فرعونيَّةٌ قديمة تحوي من الكنوز والعجائب ما يعصف بالألباب ويبهر الأبصار، لم يكتشف منها إلَّا القليل، ومعبدًا فرعونيًّا

كان من أعظم ما خلّفه الأقدمون عمَّدت فيه كليوباترا ولدها قيصرون، ثمَّ استحالَ ركامًا مهملًا وأنقاض أحجار مبعثرة لكيانٍ قد تهدَّم بعد أنْ استولى أحد أبناء المدينة من الباشوات على أحجاره بعد هدمها لبناء قصره، ومصنع لصناعة السُّكّر أُمِّم فيما بعد، وأصبح المصنع مِلْكًا للدَّولة، والقصر اشتراه ثريٌّ آخَر من ابنة الباشا ووريثته الوحيدة، كما لا يخلو الحاجر من مقابر رومانيَّة وآثارٍ بيزنطيَّة وقبطيَّة؛ ممَّا دفعَ البعضَ لحفر أنفاقٍ أسفل دورهم بمعاونة مشعوذ يَدَّعِي استحضار جنّيّ يسخِّره ليقودهم للكنز المدفون، أثرى بعضهم ثراءً فاحشًا حين عثروا على بعضٍ منه، بينما الغالبية يشعرونَ بالفشل حين يعثرون على قطع غير ذات أهميَّة لعدم اكتمالها أو انتمائها لعصورٍ ليست موغِلَة في القِدَم، وقد لا يعثر أحدهم سوى على الموت حين ينهار البئر الذي احتفره عليه فيدفن مع أطماعه حيًّا...

العزبة صغيرة نَمَتْ عند سفحه، يبسط الفقر عليها جناحه، تقاسي قسوة الجبل وتقبع في حماه، تركت الشَّمس أثرها الواضح على الوجوه السَّمراء الكالحة، كما طبع الفقر الوجوه والأجساد بطابع الذِّلَّة والنَّحافة والهُزال، وجوه الأطفال يكسوها (القوب) وهو بُطش بيضاء باهتة مستديرة حوافها متعرِّجة علامة على قلَّة الطَّعام وسوء الغذاء.

أمّا الصّدور فقد اعتورتها العلل بعد أنْ سكنت رئاتها سحب دخان القمائن النَّاجم من حرق الطّوب بها ليتحوَّل من اللبن للأحمر وكأنَّ القمائن هي مطبخه الخاص الذي يتولَّى فيه إنضاجه، كان هذا معظم عمل أهل الجبل إلَّا القليل حين يقيمون معاجن كبيرة للطّين بعد خلط الماء بالتُّراب، ثمّ يصبونه في قوالب خشبيَّة مستطيلة لتشكّل قوالب متساوية في الحجم والأبعاد، ثمَّ يفرغونها متجاورة على الأرض في صفوف لتجفّ في وهج

الشَّمس ولفح الظَّهيرة، وبعد إتمام التَّجفيف يجمع الطّوب فيما يشبه الحجرة حين يعاد رصّه كبناءٍ مجوّف يوضع في قلبه نارٌ وقارٌ للاشتعال، ثمَّ يدعونه يحترق لأيَّام لتمام إنضاج الطّوب وتحويله للأحمر، يهبُّ من جوفه دخانٌ أسود خانقٌ كثيف ناجمٌ عن عمليَّة الاحتراق يتوغَّل في الصّدور ليتركَ فيها أثرًا لن يزولَ وعلَّة لا تبرأ حين يتسلّل للبيوت ويقضّ مضاجع الصِّغار، ويغرقون في كثافته لحدِّ السّعال وضيق التَّنفُّس، وربما الاختناق الذي أصبح بحكم العادة جزءًا لصيقًا من حياتهم وسِمَة غالبة تعكِّر نسمة الهواء التي تجيش في صدورهم، فيورثهم عللًا أقلَّها الرَّبو المزمن.

البيوت بدائيَّة فقيرة كأنَّها لم تتغيّر منذ بنائها في الماضي، يغلب عليها سمْتٌ واحد أنَّ أغلبها من طابق واحد أو اثنين على الأكثر من طوبٍ لبِن مسقوف بعروق الخشب، معروش فوقه بالبوص والجريد وسعف النَّخيل، بعضها يغلب عليه البِلى والإهمال الواضحَين، بينما القليل منها مؤلّفٌ من بضعة طوابق يتباهى في زهو ويكتسي بخُيلاء، وينمّ عن حال قاطنيه من ميسوري الحال، يُبنى غالبًا بالطّوب الأحمر، مكسيًّا بطلاء خارجيٍّ وبعض نقوشٍ على واجهته تُنبئ بديانة صاحبه، فعندما تشهد رسوم جمل وسفينة أو طائرة مع عبارات تهنئة بحجَّة مباركة وآياتها القرآنيَّة مزركشة بألوان صاخبة يغلب عليها الأصفر والأخضر، تدرك دون تردُّد أنّه منزل مسلمين، وهم أقلّ تعدادًا من النَّصارى الذين يفوقونهم عددًا لا عُدّة، الذين ترى منازل ميسوري الحال منهم تُعنَى بالصّلبان البارزة تدخل في تشكيلات بوَّاباتهم الحديديَّة أو تكلّل هاماتها في بروز واضح مؤلّف من طوب يبرز عن الجدار ليرسمَ الصَّليب أعلى بيوتات قليلة منها ربَّما تعدّ على الأصابع، تهنئة قديمة ربَّما تلاشت أو انمحت للمقدّس الذي حجَّ لأورشليم وزارَ كنيسة المهد، ونالَ بركات

كنيسة القيامة وقساوستها المباركين المنعَّمين بالقرب الدَّائم من حضرة الرُّوح القدس وتجلياته ولطائف نسائمه التي تغمر قلوبهم بالضِّياء والنّور الأبديّ، حيث خَطَا يسوع وبهرَ بمعجزاته القلوب، حين كان أقباط مصر يستطيعون الزِّيارة قبيل احتلال الصَّهاينة للقدس وصدور مرسوم البابا في مصر بإيقاف هذه الطقوس حتَّى تعود لمدينة السَّلام سكينتها، ويخرج منها سفاكو الدِّماء، ولأنَّ الأقباط الموسرين حرموا هذا النّسُك وهذه البركة، فقد حرصوا على الزَّهو بحصول آبائهم على هذه البركة وهذا التَّقديس فيما مضى مِن الزَّمان، فتجد على بعض دورهم عبارات تنمّ عن تقديس أحدهم في أعوامٍ خوالي توجد في الحاجر أعلى بيت صهيون ورزق الله، أغلبهم من طبقة الأرثوذكس التَّابعة لبابا الإسكندريَّة والكرازة المرقسيَّة وهم غالبيَّة أقباط مصر وأتباع مرقس الرَّسول الذي أدخل المسيحيَّة في مصر وليبيا وأفريقيا، وهو من أصحاب المخلِّص المقرَّبين، وقد استشهدَ في الإسكندريَّة على يد الرُّومان الوثنيين وقتها بعد أن ملأ الكون بركة.

الرِّجال بشرتهم قمحيَّة، ربَّما بيضاء بياضًا مشوبًا بصفرة، يميلون للقِصَر وبعض البدانة، شعور أغلبهم خشنة كثيفة مع كثافة الحاجبين اللذين ربَّما التقيا وتشابكا، يتَّفقون جميعًا على المواءمة رغبةً للعيش في سلام رغم كثرتهم وكونهم الأوفر عددًا، نسوتهم جميلاتٍ سافرات ذوات أعين جميلة وشعورٍ بُنيّة مذهّبة خاصَّةً في العصور المتقدِّمة، أمَّا فيما سبق فلم يكن يختلف لباسهنَّ كثيرًا عن لباس نسوة الجبل من الجبَّة الكثيفة التي تغطِّي الوجه والجلباب الأسود عدا تفصيلات دقيقة حين يضيق الجلباب الأسود ليصبحَ محكمًا أعلى بطونهنّ وكأنّه يميزهنَّ عن غيرهنّ.

ينقسم المسلمون في مركز المدينة وقريتها وحاجرها إلى قبائل تعود معظمها لأصول عربيَّة تفخر بنسبها وتتعالى به على غيرها، وكأنَّه شرفٌ استأثروا به دون سواهم، فترى بعضهم رغم فقره يتيه بأصله وانتمائه، ويعرف عنه ذلك فلا يُنكر منه التَّفاخُر، فهو أصيل على حدِّ زعمهم من (الشّوابرة العربيَّة) التي يعود نسبها للقعقاع التَّميميّ، وهم طلائع جيش الفتح مع ابن العاص قدموا معه وآثروا البقاء في هذه البقعة، وانتشروا منها في السَّهل والجبل، قاماتهم مديدة، تقاطيعهم حادَّة وجباههم عريضة، فارعو الطول، سود الوجوه، شديدو الحميَة والغيرة، سريعوا الغضب، يسهُل استثارتهم، سمْتهم الجرأة والشَّجاعة والأَنَفَة والخُيلاء، وخصوصًا على (بني زرار) الذين ينكرون عليهم ادِّعائهم الانتساب لها، وأنَّهم ليسوا زراريين من بني زرار العربيَّة، بل وحدات من الجيش من قبائل وضيعة، تأخروا في الحضور عند تحديد المهام القتاليَّة قُبيل الفتح، فتلكئوا عامدين ليحضروا مساءً بعد أنْ لاحت بشائر النَّصر في الأفق، فقالوا عنهم على سبيل التَّقريع واللوم: جاءوا مساءً، ثمَّ حُرِّفت حتَّى أصبحت (جَمسة)، استوطنوا معهم ولم يخالطوهم في نسب ولا صهر، يغلب عليهم حبّ المال وجمعه والدّهاء والمكر الشَّديدين، قد تبوَّأ بعضهم مناصب مرموقة، ورغم هذا فهم لا يغيثون ملهوفًا ولا يمدُّون عونًا لأحد ولو كان منهم. وبدو رُحَّل من أصول غجريَّة يسكنون الرِّمال الصَّفراء النَّاعمة في خيام، لهم عادات وطبائع خاصَّة من الموادعة والسَّعي وراء الكلأ والعشب لماشيتهم، وتبرُّج نسوتهم وميوعتهنَّ البادية، سكنوا الكثبان الرَّمليَّة القريبة من الحاجر وعمَّروها، فبنوا فيها البيوت، بعضها فاره وبعضها أشبه ما يكون بخيام الخيش التي درجوا فيها، بعضهم أثرى وعمَّر مئات الأفدنة بعد استصلاحها، وبعضهم مازال يحيا على

الصَّدقات والتَّسوّل ورعي الأغنام، لكنتهم تختلف عن العرب، فيها بداوة ولين، أطوالهم قصيرة ونسوتهم آيات في الجمال والعطاء لكلّ مجترئ دون حدود!

بيوت الحاجر متراصّة دون استواء في صفين شبه متوازيين تفسحان بينهما الطريق الأوحد في الجبل الذي يبدو متعرِّجًا لتقدُّم بعض البيوت وتراجع أخرى دون انتظام أو قانون ثابت يقطعهُ في نهاية القرية ممَّا يلي الهيش والمصرف طريقٌ رأسي يفضي صاعدًا إلى الجبل، ينتهي بمساحة كبيرة متَّسعة من الأسفلت على ربوةٍ عالية أعدّت لهبوط طائرات الإغاثة بعد كارثة السّيل، تحدّه من الجهة الغربيَّة وحدة صحيَّة بدائيَّة يقطن طابقها العلويّ طبيب أسيوطيّ أعزب حديث التَّخرّج، ثمّ الصَّحراء المترامية التي تحيط بالجبل وتنتهي منه وإليه، ينحدر من الجبل ترعةٌ صناعيَّة جافَّة كثعبان عظيم، لا يوجدُ بها ماء، بل تجمُّعات رمليَّة وترابيَّة وبوص وهيش وعشب ينبت في الصَّحراء مع الجفاف الشَّديد دون أن يزرعه زارع، فغدت مرتعًا للهوامّ مبطنة بالحجر الأبيض من الجوانب والقاع المتراصّ كخليَّة النَّحل لحمايتها من الاندثار والرَّدم، تهبط من الجبل وتنساب في الوادي حتَّى تنتهى لأحد روافد النِّيل على أطراف القرية، صُمِّمت خصيصًا مخرًّا للسّيل المندفع من الجبل من جرّاء المطر المنهمر في طيش قاتل، فتكبح جماحه ويكبَّل في ترعته الخاصَّة التي تحدّ من ثورته واجتياحه القرية في الأسفل؛ لتنتهي به في النّهاية للتّرعة المتَّصلة بالنِّيل الذي يحتضن فورته ويقي القرية من شرّه؛ فيكون مصبّ السّيل الجامح في النّيل الفسيح، الذي كما يعطي الخير، يكبح ما استشرى من شرٍّ وخراب في قلبه الواسع الكبير!

على هضبةٍ أعلى من الوحدة الصِّحيَّة والمطار تقبع قرية السّيول، وهي ليست قريةً بالمعنى المألوف، بل مجموعة سكنيَّة مؤلَّفة من وحدات متشابهة متطابقة لمنازل شُيّدت لتعويض المتضرّرين من السّيل الذي طرقهم منذ سنوات هابطًا من الجبل، فعصفَ بمنازلهم وأرزاقهم دون رحمة، تفصل بينها طرقٌ مرصوفة، المنازل من طابقٍ واحد من طوبٍ حجريٍّ أبيض مطليّة بطلاءٍ أصفر كئيب يحيطها سور، يفضي بابه لساحةٍ مكشوفة أُعدَّت لتربيَة الماشية مراعاة لطبيعة ساكنيه وحرصهم على اقتناء الحيوانات، وما أدركوا أنَّ فقر الكثيرين منهم سوف يضمن خلوّ السَّاحَة غالبًا منها عدا قليلٍ من الإوز والدَّجاج، في مواجهة الدَّاخل حجراتٌ ثلاث للنّوم والضّيوف، وعلى يمينك مربّعان صغيران أحدهما الحَمَّام والآخر المطبخ.

تبقى مساكن قرية السّيول دليلًا وشاهدًا على أيَّام سوداء، فقدَ فيه البعض أحدًا من أهله، وخسرَ فيها آخرون مالًا ومسكنًا أَو زرعًا وأملاكًا، وكأنَّها ترمق الجبل في حزنٍ واستعطاف، ترجوه ألَّا يعيد الكرّة وغضبته الهادِرَة، ولا يرسل من علیائِه نذُر شؤمه وبأسه، فيحيل الفقر مع الأمان لفقرٍ وفقْدٍ وخراب، وكأنَّهم يخاطبونه، كلّ منَّا في مكانه ساكنٌ، يشهد على الآخر، أيُّنا يبادر بالتَّعدِّي، يرجونه أنْ يعقِدَ صلحَه الدَّائِم معهم وأنَّهم وافون بالعهد، لن يجترئ على اقتحام حرمته، مندفِع، وأنّهم على الهُدنة قائمين.

في مدخل القرية قُبيل بيوت الأهالي قصرٌ كبيرٌ عظيمٌ فخم البناء يرمقك من بعيد قبل اقترابك من حرمها، ربَّما على بُعد كيلومتراتٍ منها لرسوِّه فوق تلَّةٍ عاليَة محاطًا بالنَّخيل وأشجار الكافور المديدة العتيقة، يحيط بالسّور من الخارج حقول القصب الممتدَّة إلى ما لا نهاية نحو الوادي الأخضر الفسيح حتَّى تحاذي النِّيل وتحيط الطَّريق المؤدِّي للجبل من كلا جانبيه، وكأنَّه مدَّقٌ

وعِر وسط غابةٍ كثيفة، وكأنَّ القصرَ مِنْ عَلٍ يرمق القادِمَ من بعيد ويتطلّع للغرباء في كبرياء مفصِحًا عن كينونة مالكه، ويبرز فوق كلّ بيوت الجبل في هيمنةٍ واضحة وعظمةٍ واستعلاء، يحيطه سور حجريّ شاهق له بوَّابةٌ حديديَّة عالية يضمُّ مساحة فسيحة تتخلّلها أبنية متفاوتة في العظمة والفخامة، ربَّما متناقِضَة، أعظمها بناءً هذا القصر، وهو بيتٌ عظيمٌ له مدخلٌ رائع يفضي إليه سُلّمٌ رُخاميّ عريض له سورٌ جانبي يبدأ بقاعدتين على جانبيه، يقبعُ فوقهما تمثالا أسدين رابضين من الجصّ الأبيض، يفضي إلى بهوٍ فسيح وحجرات كبيرة عالية السُّقُف يتردَّدُ صدى الصّوت فيها من فرط العلوّ والاتساع، القصر مشيَّد بعناية وفنّ، رُوعيَ في تصميمه الدَّقيق أن يكون في غاية الأُبَّهة والفخامة، قطع الأثاث التي تفترش حجرات هذا الطَّابق تتوه في روعة البناء، وكأنَّها عاجزةٌ عن ملء فراغه أو مجاراته، فتبدو ضئيلة غير كافية، وربَّما لم تكن كذلك، وقد أعدّت فيه موائد متعدّدة الأحجام مفروشة بمفارش قطيفة مخمليَّة لأداء واجبات الضِّيافة بسخاء، تنمُّ عن ذوقٍ وثراء، صالونات فخمةٌ مُذهّبة وسفراتٌ ملكيَّة، وحمَّامات ومطبخ كبير مُعدٌّ للولائم بما حَوَى من (آذانات) أوانٍ ضخمة وأفرانٍ كبيرة، وحجرات نوم متعدِّدة للضيوف المغتربين، وحجرات بها أرائك تقليديَّة وكنب متراص بجوار الحوائط لجلسات العائلة وأهل الجبل، وكأنَّ هذا الطَّابق قد أُعدّ لاستقبال كل النَّاس على اختلاف قدرِهم.

أمَّا الطابقان العلويَّان فقد خُصِّصا لولدي الشّيخ الكبيرين عبد الماجد وسلطان فيما مضى، قد زيد في فخامتهما لحدٍّ كبير وعُني في فرشهما بأغلى أثاث في حينه، هما الآن شبه مهجورَين.

على يمين الدَّاخل من البوَّابة عمارة فارهة البناء مؤلَّفة من عدَّةِ طوابق، الأرضي عبارة عن حجرتي ضيافة في إحداهما أنتريه فخم، والثَّانية صالون، وحجرتي نوم مودرن وحمَّامين ومطبخ مُعدّ دومًا للزوَّار والأصدقاء ولِبنات الشّيخ وحفدته منهنَّ حين يحلو لهم المُقام أيَّامًا في كنف العائلة في زيارةٍ غالبًا ما تطول، والطَّوابق الثَّلاثة الأخرى يسكنها نصر وزوجته وأولاده، والذي يليه يسكنه سعيد أصغر أولاد الشّيخ، بينما الأخير قد أُعِدَّ لجاسِر ولد الشّيخ سُلطان والمُقرَّب لقلب الشّيخ، كلّ جهَّز بيته على حسب ذوقه وذوق عروسه، وهي شققٌ لا يطرقها غريبٌ ولا زائرٌ أبدًا.

بينما يلفت نظر القادِم لدخول القصر أوَّل مرَّة جهة اليسار مما يلي الجبل منزل بدائيّ من الطّوب اللبِن، مطلي بالطّين الأسود والتِّبن، مكوّن من طابق أرضيٍّ أوحد به حجرة فرن غير معدّة للخبيز، ربَّما تكون أهمِلت منذ زمنٍ بعيد، وحمَّام بلدي (كنيف)، بينما حجرة النّوم بها سريرٌ من جريد النَّخل منضَّد بأكلِمة ومزوّد بغطاء بنيّ اللون من وبر الإبل وحجرة أخرى تسمَّى مقعدًا، بها سرير خشبيّ قديم ومرتبة عتيقة، لكنَّها نظيفة، ودولاب كلاسيكي عفا عليه وعلى زمانه الأوان!

يقطنه الشّيخ محمود أبو ظفَّار وزوجته الباقيَة على قيد الحياة وجيدة والدة سلطان ونصر وسعيد، يتمسَّك الشّيخ بالإقامة فيه دون غيره من الأماكن؛ لأنّه البيت الذي ولِد وتربَّى وعاشَ فيه زمنًا في كنف والده الشّيخ أحمد أبو ظفّار عميد العائلة ووالدته ستّ الدَّار قبيل أن يتوسَّع هو في بناء القصر والعمارة، ويحيطهم جميعًا بالسّور العالي، كما أنَّه لا يخالف سيرة والده ولا نهجه، وينتظر الموت على سرير والده الجريديّ الخشِن متدثِّرًا بغطائه المصنوع من وبر الجمال، مُرخيًا عباءته على كتفيه، وهل يجروء أحدٌ منْ بنيهِ أو حفدته

أن يناقشهُ في عزمٍ انتواهُ أو يردّ له أمرًا أو تمنّيًا؟ فرغبات الشّيخ محمود، بل طيفُ أفكارهِ أوامر صارمة لا تقبل الجدَل أو يمكن الاعتراض عليها شفاهة أبدًا، أو حتّى في مكنون النَّفس.

يقطُن المنزل الطّينيّ الأثير في نفسه والمحبّب لقلبه مع زوجته التي تقوم على خدمته وتعرف جيّدًا ما يحبّ وما يهوى، وتفهم إيماءة لحظه ونظرة عينيه، رغم أنَّها تجاوزت السِّتين، وتجاوز هو السَّبعين، إلَّا أنّهما لازالا يافعين يضجَّان قوةً وحيوية، لم تداهمهما أمراض الشّيخوخة بحدّة، عدا بعض تيبُّس المفاصل والأرق الذي ظلَّ يطارِد الشّيخ في نومتي القيلولة والعتمة، كأنَّهما نخلتان عاليتان تجابهان الزَّمن والوهن في صمودٍ وجلَد، لم تنل منهما الأيَّام وإن توغَّلَت آثارها الحزينة في نفسيهما التي لا تُقْهر...

لم يزل الشّيخ محمود رجل الجبل وسيّده رغم سنّه الذي كلَّما ازداد أكسبهُ سطوةً ومهابةً، كأنّه يستمدُّ من وهج الشَّمس وصهد الحرِّ قوَّته وعزيمتهُ ومضاءه، ويقاوم عوامل الزَّمن كنخلةٍ عاتيةٍ رأْسُها في السَّماء، كذا لم تتغيّر ملامحه منذ صبوته وشبابه، قامته مديدة فارِعة... كأنَّه يخاطبك من علٍ بعينيه الصَّغيرة الضَّيّقة العميقة الثَّاقِبة الحادّة التي يضوي فيهما بريقُ الثِّقة والعزّة، يقبع شاربه المُشَذّب أسفل أنفه الجبّار، نتوءات عظم الجُمجمةِ والوجه بارزة توحي بالقسوة والقوّة، بينما صوته الأجَشّ الغليظ ذو الرَّنَّة الواضِحَة سوطٌ يُلهِب به الأسماع ويجلِد بهِ كُلَّ تردُّدٍ لتنفيذ أمر يرغبه في نفس مَن يتكلَّم إليه فلا يملِكُ إلّا الخنوع، حباهُ الله بهيبةٍ ووجل يُقذف في قلب مَن يلقاه كأنّه رُغم جلبابه وعمامته أحد الملوك الذين لا يُردّ لهم أمر، بينما كفَّاه كبيرتان، أصابعهما مُمْتدَّة طويلة كأنَّها مذراة سنابل القمح، لم يمنحه السِّنّ الذي طعنَ فيه سوى انحناءة ضئيلةٍ في الظَّهر، لا يكاد يبدو تقوّسها من فرطِ طولِ هامته، وتجاعيد

كالأخاديد كأنَّ وجهه الجبل تتخلّلهُ المدقَّات الوعِرة، وجهه لا يضحك، بيد أنَّ قسماته لا تفصح عن عُبوسٍ، بل نظرات هادئة ثابتة رزينة غير باسمةٍ أو ضجِرة حين يتكلَّم أو يصمت، في ثباتها سرّ قوّتها والإذعان لهيبته دونما تفكير، ربَّما كان غير ذلك، وحالت دون ابتسامته حوائل جعلته يبدو كذلك، بيد أنَّه يتَّضح لمن يعرف الرَّجل عن كثب أنَّ شخصًا بهذا القدْر منَ الإجلال يستحيل عليه أنْ يؤثِّر فيه غضبٌ أو سعادة، فهو لكليهما سواء كأنَّه قاضٍ لا يحبّ أنْ يُفصح عن هواه حتَّى يتمكَّن من الفصل بحكمة وموضوعيَّة في تقلّبات الدَّهر وطوارئه..،..

بعد صلاة الصّبح وفراغِه مِن التَّسبيح بمسبحةٍ عددُ حبَّاتها تسعٌ وتسعون، يجلس كُلّ صباح في بواكيره الأوْلَى وحيدًا أمام بيته الطّينيّ حين تدقّ شعاعات الضّوء الأبواب، تنحني بقُبلة تمسُّ بها جباه الدّور، على مصطبةٍ لصيقةٍ بالجدار الخارجيّ للدَّار مُغطّاة بأكلِمةٍ من صوف، مُستلقيًا بظهره كلَّه للحائط في تأمُّلٍ وهدوءٍ تامّين، مُدلّيًا رجله اليسرى، بينما اليمنى منثنية لأعلى في محاذاة بروز ذقنه، ظاهر فخذه الطَّويل المشدود ملتصقٌ ببطنه ويُطْبِقُ على كوب الشَّاي الصَّغير من حافّتيه العلويَّة والسّفليَّة بسبَّابتهِ وإبهامه يرتشِف منه رَشفاتٍ متأنّيَة وكأنّه يستعذِب مرارته في حلقه، ويناوب بين الرَّشفة والأخرى بقضمة من خُبز (الفايش) وهو مخبوز أجشّ سميكٌ أسفنجيٌّ جافّ به هشاشة، يحملق في قمَّة الجبل البادية بين النَّخيل وأشجار الكافور العالية المتناثرة في حديقة منزله قُبالة الجهة اليمنى من القصر وما يليها من هذه النَّاحية التي لا يفصلها عن الفراغ سوى السّور العالي والأشجار المرتفعة، كان فناء قصره رغم اتّساعه خاليًا من أيّ نبات زينةٍ أو أزهار عدا الحشائش المتناثرة والأشجار العتيقة العالية، وكأنَّهما يتبادلان الأسرار ويُفضي

كلُّ جبلٍ لأخيهِ بما في مكنونه، لا يحبّ أن يقطع أحدٌ عليه هذه الجلسة الصَّباحيَّة الإفطاريَّة المحبّبة إلى نفسه والمتأمّلة في ملكوت الله وخلقه وتقلّبات الأيَّام وبؤسها وذكرى الماضي والتَّفكّر فيه والحنين إليه، والشَّمس حين تبزغ صفراء نقيَّة صافية خلف التّلال وكأنَّها مولودٌ جديد آتٍ مِن رحِمِ عالم مجهول مليء بالأسرار.

يستمرّ في جلسته حتَّى تتحوّل أشعة الشَّمس الحانية من الدّعة للقسوة باعثةً على النّفور، فيتحوّل لقاعة قصره يجلس في فنائه العالي السّقف، بينما يقبل أبناؤه الذين يساكنونه الجوار وقد فرغوا مِن إفطارهم وتجهّزوا لشّئونهم يقبّلون يُمناه ويشاورونه في خاصّة أعمالهم وما يعرِض لهم فيها من عوارض، ثمَّ يمضونَ بعد أن يوجز لهم المقال في كلمات بسيطة وتوجيهات مقتضَبة كأنَّها نصائح صغيرة تفيض حكمة وحنكة ودراسة واعيَة لطبائع البشر وملؤها القوّة والثِّقة، بينما يستعدّ لجولته الصَّباحيَّة، وقد زالت الشَّمس من كبد السَّماء لترسلَ شعاعاتها الحارقة الجثوم إيذانًا ببدء يوم حارّ قائظ من أيَّام الجبل والجنوب.

اجترار الذِّكريات

في جلسة الشّيخ الصَّباحيَّة الأثيرة انتابه شيءٌ من الضَّجر حين اقتحمت شوكة صغيرة إبهامه، بينما يتجوّل في حديقة قصره، ففاجأه دوارٌ لم يعهده فأسند يده إلى جذع إحدى نخلاته الطّوال خوفًا من السّقوط، لم يكن للألم مكانٌ في حياة الشّيخ، ولم يعرف يومًا طريقًا إليه وهو التَّألم الجسدي، أمَّا تألّم الحسّ والشّعور فهيهات أنْ ينجو منه إنسان، وإن وجِد فلا يصحّ أن يصدر منه ما ينمّ عنه مِنْ شكاةٍ، وكأنّ التَّعبير عن الألم عيبٌ مرذول لا يصدُر عمَّن له مكانة الشّيخ وهيبته، استدعى على أثره سعيد أصغر بنيه، وطلبَ منه أن ينكأ موضع وخزة الشّوكة بشيء حاد لاستخراجها، بينما تغافلَ عن الدّوَّار الذي أصابه، وكانَ السَّبب الأوَّل فيما حدث، ظنّه عارضًا لا يجب الاهتمام به، فما بينه وبين المرض والدَّواء علاقة غير ودّيَّة، لا يتعاطاه أبدًا، يكتفي بالشّيح والأعشاب وتدثّره في غطائه المحكَم حتَّى يصبحَ في أتمّ صحَّة وحال، كما أنَّه لم يؤثر عنه زيارته لطبيب إلّا في وقت الشَّدائد، ربَّما مرّات قليلة لا تتجاوز تعداد أصابع الكفّ، ممَّا دفعه للتَّبرُّم، بينما يمعن النَّظر في عينيّ "سعيد" حين استأذنه في استدعاء طبيب الوحدة؛ ليقوم هو باستخراج الشّوكة بعد حقن الإصبع بالمخدِّر الموضعيّ، وكأنّ "سعيدًا" نطقَ قُبْحًا، وكأنَّه لا يعرف أنَّ والده لا يعرف الألم طريقًا لجسده! أيتألَّم كضعاف البشر من جراحٍ تافهة! وإنْ أمعن فيها التَّفتيش والتَّمزيق بحثًا عن شوكةٍ ضالةٍ غازيةٍ؟ أتنهار مقاومة سيّد الجبل مع صموده وجلَده، أمام أتفه مخلوقات الله... قشَّة اخترقت جلده على غفلةٍ منه.

أومأ برأسه دونما حديث أنْ استدع الطَّبيب ثمَّ استدركَ قائلًا دون بنج، فسعى سعيد كمن تخلَّص من همٍّ ثقيلٍ لجلبه بنفسه بعد أنْ استقلّ سيَّارته،

وسرعان ما عاد به، فقد كانت تربطه به صلة صداقةٍ ومودّة، ارتاعَ الطَّبيب في البداية، فقد كان ممن سمعَ عن قدْر الشّيخ ومهابته في النّفوس دون أن يلقاه وإن تعرَّف على بنيه وربطته بهم معزّة، أحضرَ الطَّبيب في حقيبته كلَّ ما يلزم، لم يستثنِ شيئًا، ولم يدرك مقصِد سعيد من قوله: الشّيخ لا يحبّ البنج وظنَّه يعابثه، قوبِل بترحيبٍ وحفاوة وحفل فطور خاصّ، وضعت على مائدته كلُّ ما يشتهي، لم يكن يملك الاعتذار أو الرَّفض فقط يجب أنْ يأكل بشهيَّةٍ وجرأة كأنَّه في بيته، هكذا كان طلب الشّيخ ذو الوجه الصّلب المِضياف الذي يعرِف للنَّاس أقدارهم، جهّزَ الطَّبيب سمير حقنة المخدِّر، رفض الشّيخ أنْ يُحقن بها في ودٍّ قائلًا له: لا داعٍ... افتح ولا تقلق، هذا شيءٌ تافهٌ لا يستحق يا دكتور، في جوٍّ مَشوب بالتوتّر استخرجَ الطَّبيب مِبضعه وأحدثَ جُرحًا سطحيًّا في إبهام الشّيخ وهو يجيل بصره بين وجه الشّيخ الصَّامت في جمود الصَّخر وبين إبهامه، بعد أن غرسَ في الجرح (جفته)، وأخذ يلج به إصبع الشّيخ يفتحه ويغلقه علّه يقبض على الشّوكة الخبيثة التي توارت في اللحم، بلغ التوتّر بالطَّبيب مداه كلَّما طالَ أمد الجراحة، بينما الشّيخ ينظر إليه وإلى إصبعه الدَّامي في طمأنينة غريبة توعز للطَّبيب أنَّه ربَّما يمزّق في إصبع آخر غير إصبع الشّيخ، كان سعيد بعينيه الضَّيقتين التَّائهتين في سُمرة وجهه التي ورثها عن أبيه، بينما أنفه صغير ووجهه المليح الهادئ دائم الابتسام أشبه ما يكون بأمّه وشعره بادي النّحول ممَّا يلي مقدّمة رأسه غير فارع الطّول ولا ذي صولة كأبيه، لكنّه كان في رجحان ورزانة عقل أبيه، يستشعر نفوذ عائلته وقدْر أبيه، بيد أنَّه غير متسلِّط ولا عنجهيّ يقتُلهُ الكبر، ربَّما تغلِبُ عليه السَّماحة والأريحيَّة تمامًا كمن يستمتع دون معاناة ولا تعالٍ، تبدو آثار النّعمة على وجهه وفي ملابسه الإفرنجيَّة، كلَّما وقعت عينه على وجه أبيه لا يجد فيهما

أيَّ مظهر لألم أو توجُّع، إنما هو راسخٌ كجبل يغلّفه الهدوء والصَّمت، فيشيح بوجهه بعيدًا، لم تفلح محاولات الطَّبيب المهتزّة في إنفاذ إرادة الشّيخ رُغمًا عنه، ربّما خشي أن يُحدِث فيه خللًا دائمًا يمزِّق فيه وترٌ أو شريان، فأخبر الشّيخ أنّهُ لا يجد للشّوكة أثرًا وأنّه لابدّ أنْ يكفّ، وطلبَ عمل أشعة، وعرضه على جرّاح المركز بعد أن طهّرَ الجرحَ وضمَّده... وكأنّها ذابت من فرط هيبة صاحب اليد وسيّد الجبل الذي طالما أومأ بها في إشارة تهب أحدهم النّعمة أو الانتقام!

أمّنَ سعيد على كلام صديقه الطَّبيب الذي استأذنَ في الانصراف، فودَّعاه شاكرَين، عاد بعدها سعيد لأبيه فزجرهُ في حزمٍ قائلًا: لانت قلوبكم يأولاد أبو ظفّار، بعد أنْ لانَ مطعمكم ولباسكم، صرتم في الرَّغد ترفلون، أمَا رأيتم جدَّكم، كان يمضي في الجبل ليالٍ لا يغمض له فيها جفن... زاغت البسمة في وجه سعيد بين التَّردُّد والوجل... زمجرَ الشّيخ في عنفوانٍ كزئير أسدٍ، مسترسلًا، انتزعنا من كتفه طلق خرطوشٍ أصابه بمدية محماة دون أن تصدر عنه الآهة، مناديًا خادمه المقرّب سليمان الزَّراري – ينحدر من عرق بني زرار– وهو ليس خادمًا بالمعنى الدّارج، بل هو رجلٌ فقير من أهل الجبل يلزم جنابه ويتيه بخدمته حين يحظى برضاه وينال مِن نعائمه، وقد يؤاكِله ويؤانسه دون أن يجدَ الشّيخ في ذلك حرجًا أو غضاضة، فيجيبه سليمان من بعيد قبل أن يمثُل أمامه ملبيًا النّداء، مهرولًا من جلسته الأثيرة خلف بوَّابة السّور من الدَّاخل مفترشًا حصيرًا معروشًا بمظلَّة مكلّلة بالقشِّ والحطب وقاية له من الشَّمس، يبدو عليه اللؤم والفقر معًا، رغم أنَّ ثيابه نظيفة...

شاربه خطٌّ رفيع أسفل أنفه المُدبَّب، يلفّ رأسه بشال صيفيّ أبيض خفيف يسمّونه (شاش) دون طاقيَّة، فيبدو جزءٌ من رأسه وشعره الأسود...

نعم... يا شيخ محمود... فيقول له الشّيخ آمِرًا ائتني بحيَّةٍ حالًا... في دهشة أقرب للارتعاب تجحظ فيها عيناه، ويرتفع حاجباه وتكتسي جبهته بالتَّجاعيد: حيّة...! وكأنَّه يراجعه ويستوثق، هل ما سمعه حقّ أم خدعته أذناه بلفظة قريبة لما سمع لم يعها جيّدًا...! تجاهلَ الشّيخ دهشته وكأنَّه يكلّمه من وراء ستر، ولم يلحظ الارتياع والتَّردّد في صوته ووجهه ومراجعته له الكلمة: ستجدها في أحراش الهيش وشعاب البوص في ترعة مخرّ السّيل قُبالة الجبل شرقًا... وكأنَّه كان يسأله عن محلّ تواجدها... لا مرتاعًا من الطَّلب الغريب... في ذعرٍ جليٍّ حرصَ سليمان أنْ يبديه في خوفه الذي ارتسمَ على وجهه: حيّة يا سيّدي! ألن تلدغني فتقتلني بسمّها أو تصيبني لدغتها بالحمّى والمرض...؟ يهبُّ الشّيخ واقفًا في غضب بينما يقول كأنّهُ يوجِّه وعيده لكلّ مَنْ سمِعه حين رمقَ سعيد يجاهد إخفاءَ ابتسامته فيشيح بوجهه إلى وجهة أخرى، وكأنَّه يخشى أنْ يجبُنَ سليمان فيصيبه أمر والده النَّافذ وطلبه الغريب: الويل لكم ما بالي لو سألتكم ذئبًا أو ضبعًا؟ ما هذه الخيبة؟ كنَّا نلهو صغارًا باصطيادها... في قلقٍ غير متحمّسٍ يجيب "سليمان"، وكأنَّه ينقذ "سعيدًا" من أزمة وشيكة وكارثة كادت تحلُّ فوق رأسه: أمرك يا شيخنا سأذهب من فوري لجلبها... فيقاطعه الشّيخ وقد فطِن لما اعتورهُ من جبنٍ خليق بمَن هو مثله: اصحب "حسنين الرّفاعي" معك... أدرك أنَّك وحدك لن تقدِّم أو تؤخِّر... يمضي "سليمان" في هلع وهو يتمتم يا ستّار استر مدد يا رفاعي، لم يحنق من زمجرة الشّيخ ولسانه القاطع، فقد اعتادَ ذلك منه لطول العشرة والمودَّة المغلّفة بالغلظة التي هي جزءٌ أصيل من طبائع الشّيخ وطبيعة النَّاس في هذا الجبل لا يجيدون التَّعبير ولا يحسنون سوى الفظِّ من القول والجارِح من الكلمات، وربَّما قصدوا غير ذلك، فتراهم قد يتبادلون السّباب في معرض

المدح والممازحة، فيتحوَّلون في لحظة من أصدقاء يتنابذون بالقول ويتبادلون الدّعابة لخصمين في معركة تنشب اتفاقًا لم تكن في الحسبان، فيدمي كلٌّ أخاه ويتحوَّل المزاح لخصومةٍ ووجْد، حتَّى في الحبّ فقد يهيم أحدهم بحبيبته فلا يحسن لها جميل تعبير ولا رقيق قول، وقد يُقْحِم في لفظه كلمات غليظة وعباراتٍ مستهجنة لا تبدر أبدًا في مثل هذا الموضع كمَن يقدِّم وسط هديته الجميلة قطعًا من دبش وصخر الجبل، فيسيء من حيث أراد جاهدًا أنْ يُحسِن!!!

يعود الشّيخ ليخاطبَ سعيدًا ذا الثَّلاثين عامًا الذي كان عرسه منذ عامين، متأخِّرًا في الزَّواج شاذًّا عن عُرف الأسرة وعوائدها أسوة بأقرانه مِن أهل البنادر حين اقترنَ بإحدى جميلات الأقصر سليلة حسبٍ، ترجع أصولها للشَّوابرة قبيلتهم الكبيرة، قائلًا: رحم الله جدّك الشّيخ أحمد أخبرني أنّ شحم الحيّة دواءٌ ناجع في استخراج السّلاة والشّوك الكامِن في اللحم ينسلّ معه كما ينسلّ الماء من القِربة، يبتسم سعيد ابتسامةً بلهاء لا تصدر منه سوى في حضرة والده فقط دون غيره، وكأنّه يتضاءلُ بها أمامه، بينما يسترسل الشّيخ في استدعاء ذكرياته:

كان جدّك الشّيخ "أحمد" حتَّى قُبيل وفاته وقد جاوزَ الثَّمانين لا يغتسلُ صيفًا ولا شتاءً في الزَّمهرير سوى بالماء القُراح البارد، لا تصيبه رعشةٌ ولا رعدة، إذا أطبق كفَّهُ على يد إنسانٍ يصافحه لا يمكن للمُطبَق على كفّه الخلاص حتَّى يفلته الشّيخ بنفسه ولو جذبه مائة رجل... بينما ينصِت "سعيد" في شغفٍ واهتمام مَن لم يحفظ تاريخ أسرته عن ظهر قلب، ذلك المجد الذي تتحاكى به الخلائق في السَّهل والجبل، والحاضر والبادي!

بنى بيديه هذه الدَّار وماتَ على سرير الجريد الذي أنام عليه فيها بعد أنْ شيَّدَ لنا مُلْكًا ترفلون في عزِّه اليوم، لم يكن يصحبه سوى بندقيَّة أبيه التي كانت تتوسَّد عاتقهُ لا تفارقه في صحوه أو منامِه، بدأ غزوته وفرض نفوذه حين أَمَّنَ أهل الجبل المجاورين للدّير، كانوا بضعة مِن بيوت النَّصارى المستضعفين الذين احتموا في محلّتهم لائِذين بها كالحِصن، يغلقون عليهِم بابها الضَّخم قُبيل العتمةِ خوفًا من مطاريدِ الجبل وذئابه، لم تكن هذه البيوت قد بُنيت بعد، ولم يكن هناك بلدة كما اليوم، مجرَّد دير يقطنه الرّهبان في ذعرٍ وتبتُّلٍ وصلوات وشارع النَّصارى حيث محلّتهم وأصلهم...

يتنحنح فينجُمُ عن نحنحته دويٌّ مفزِعٍ يعيد لسعيد ذكرى الأيَّام الخوالي ذات صورة أبيه فتيًّا موفور القوَّة والعنفوان حين كان يزمجِر في أرجاء القرية، يبثُّ فيها الرُّعب والرَّهبة وكأنَّها رسالة أمان لكلِّ مُستضعفٍ يخشى على نفسه أو بيته غائِلة...

ثمَّ يعود سعيد للاستغراق في تأمُّلاتِ أبيه وذكرياته عن جدِّه المِقدام قائِلًا:

كانت عزبة جبليَّة من بضع بيوت سمّيت باسم أوَّل ساكنٍ لها مِنهم (عزبة غطَّاس).

أرخى عليهم جدُّك سُدُل الأمان حين كانت قبضةُ الأمن والحكومة واهنة وتصدَّى للأوغاد مستعينًا ببضعة رجال من أبناء عمومته، أرسل في طلبهم من القرى والحاضرة يمتلئون عزمًا وفتوَّة، الرَّجل منهم بجيش، قلوبهم ميّتة، سواعدهم كالحديد، يفرّ من حدّة نظرتهم المجرم العتيد والقاتل المحترف، أنهكوا المطاريد جعلوهم طرائد يلاحقونها، أروهم الويل والذِّلَّة حتَّى أجلَوهم عن الجبل المطلّ على العزبة والموازي لها، ما عادوا يأمنون فيه أو يقطعون فيه شبرًا دون توجُّس وترقُّب الموت كلَّ لحظة، وبسط نفوذه

وسيطرته وسطوته وشملَ الجميعَ بحمايته، حتَّى صارَ صاحب الحاجر وجبله وسيّد القرية بلا مُنازِع عن استحقاقٍ وبذل، فبايعهُ أبناء عمومته ونصارى الجبل شيخًا لهم وحاميًا لحماهم، وصاحب الأمر النَّافِذ والكلمة المُطاعة فيهم، أصبحَ الحاجر كلّه خاضعًا لسطوته لا يُقضى في شبرٍ فيه إلَّا بأمرهِ ومباركتِه، وغيَّر اسم العزبة من عزبة غطّاس سابِقًا لعزبة أبو ظفَّار بموافقة الجميع وتأييدِهم، حتَّى أسرة غطّاس ونسله أنفسهم ورُهبان الدّير وقساوسته الذين واصلَ برَّهُم والتَّودُّد إليهِم، لم يجدوا غضاضةً في ذلك، ولمَ لا وما تنفع المُسمَّيات حين كانوا في تهديدٍ دائِم وخوفٍ مقيم، وقد بذل الظّفاريُّون - يقودهم الشّيخ أحمد - دماءهم في سبيل حماية الحاجِر وأمان أهله، أفلا يستحقّون أن يوضعَ اسمهم على كيانٍ أمَّنوه، ولاسيَّما أنَّ جدّك بالغ في إكرامهم وتوقيرِهم وقرّبهم إليه!

كانت ثمّة صداقةٍ وطيدةٍ بينهُ وبين القمُّص مكاريوس (أبونا مكاري) راعي الدّير، كما كان يحبّ أنْ يناديه، يسهر عنده كلّ ليلة متوشّحًا سلاحه مُتطيًا صهوة بغلته البيضاء القويّة كأسد ليؤانِسهُ ليبثَّ رسالته للجميع دون كلمات أنَّ الدّيرَ صارَ حَرَمًا آمِنًا لا يُخشى فيه ولا عليه غائلة، مشمول بحمايته الشَّخصيَّة له والأمان، كان أمنع وأحصن ألف مرَّة مِن هذه الأيَّام وقد أجلسوا عليه للحراسة عسكرًا وخفراء؛ خوفًا مِن نزقِ وتهوُّر مَن يدعون أنفسهم جماعاتٍ إسلاميَّة بعد أنْ هاجموا محلَّات الذَّهب في الأقصر في وَضَح النَّهار، يهزُّ رأسه في حسرة واضحة...

واسترسلَ وكأنَّه يخاطِب نفسَه، بل يحيها بذكرى الأيَّام المجيدة التي لم يشهدها كلَّها، وعاينَ بعضها صبيًّا وهو يقول وقد هدأت نبرته وتخلَّلتها رنَّة حزينة: منحَ جدُّك أراضي شاسعةً لأبناء عمومته مكافأةً لهم على ما بذلوه،

فعمرت بعد أن كانت أحراشًا مُهملةً خرِبة، وأقطع مَن شاء من القاطنين بيعًا وشراءً أراضي خارج محلَّتهم وشارعهم العتيق يزرعون فيها ويبنون دورًا فسيحة بعد أن ضاقَ عليهم دربهم، عمرت العزبة وصارت قريةً كبيرةً توافد عليها أهل الحاضِرة وسكنوا ربوعها بعد استئذان الشّيخ "أحمد"، تحوّلت من بضعة بيوتات لقرية تضمُّ آلاف البشر، يمتهِنون مِهنًا عدَّة وينثرون في ربوعها الخيرات، تحوَّل الحاجِر الجبليّ الأصفر لزروع خضراء وثمار ونخيل وأشجار وزراعات قصب تمتدُّ على مرمى البصر كما ترى، وأشارَ بيده إلى الفضاء العريض ناحية الحقول، ثمَّ استطردَ في ألم: أُسرٌ وعائلاتٌ وروابِط ومصاهرات...

مدَّ بعلاقاته الوطيدة مع عزوز باشا طريق قطار القصب حتَّى أطراف القرية يحمل محصول القصب لمقرّ شرِكة السّكَّر في المدينة البعيدة على شاطئ النّيل.

يردُّ "سعيد" وقد اكتسى وجهه بالجدّيَّة وأمارات الفخر: أنتَ أيضًا يا والدي وشيخي العظيم وطَّدت لأسرتنا العزَّة والمجد، وكنت خير امتداد لطموح جدّي رحمه الله، لم تكتفِ ببسطِ حمايتك على الجبل وحاجره وأهله وكفّ يد المطاريد عنهم، بل غَزوت الجبل واقتحمتَ مجاهله حتَّى صارَ كأنَّه كتابٌ مفتوحٌ تُقلِّب أوراقه، توغَّلتَ في دهاليزه وكهوفه، شققت قلبه فأقمت فيه المحاجر ودككتَ حصونه باللوادر (البلدوزرات) الحديثة، كنت أوَّل مَن جلبها في هذه المنطقة، كان النَّاس يرمقونها وينظرون إليك في دهشة كيف تسوس هذه الكيانات الضَّخمة وكأنَّك استحضرتَ مردةً تدكُّ الجبل وحصونه، فيتفتت من قوّة ضربتها وقبضتها كالكفّ العملاق الذي انحنت أصابعه تنهش في صخره فتحيلُه ركامًا مُفَتتًا...

ففتحت للخلق أرزاقًا أخرى في مجالاتٍ لم يكونوا يألفونها!

يردُّ الشّيخ وقد أخذَ منه الوجد كلَّ مأخذ وبلغت به الحسرةُ مداها حين تذكّر الغائب الذي لم ينسه لحظة، وكأنّ ردَّ "سعيد" بدلًا من أن يشرحَ صدره ويبهج فؤادَه انتحى به منحىً مغايرًا، وأخذه لمنطقة حزنه الأبديّ الخالد وكبوته دون قصدٍ منهما: لم أكن وحدي، كان كتفي بكتف الحاج "سلطان" شقيقك فكَّ اللهُ أسره، كان خليفتي الحقيق بكلِّ هذا المجد وأجدر مَن كان يستطيع مواصلة رحلة عزّتِنا.

غزونا معًا الجبل بالرِّجال قبل الماكينات، حين قضى جدُّك وأسنَّ بنو عمومته ورحلَ منهم مَن رحل لم يتبقَّ منه إلَّا مَنْ وهنت عزائمه وأرخى التَّرف ولين العيش مفاصله وقبضته، حين عادت فلول المطاريد الكامنة في كهوفه النَّائية تتوثّب للانقضاض علينا في غفلةٍ منَّا تبغي ثأرها القديم، كانوا يترصَّدون الفرصة كحيّةٍ ملساء متلوِّنة بلون الرِّمال والصَّخر، كامنة تتوثّب الفرصة للدغنا وبثّ سمومها فينا؛ بغية الانتقام واستعادة كرامتها المُهانة، كنتَ صغيرًا لاهيًا حين كنتُ أنا وسلطان نعاين محجرًا جديدًا، جبذني جبذةً قويَّة أوقعت بي فجأة على غِرَّة وهو يطأطئ رأسه في خجلٍ وانكِسار معتذرًا، كان يبغي إنقاذ حياتي حين لمح فوَّهة بندقيَّة مصوّبةً تجاه صدري من بعيد، فأصيب ساعده لينجيني...

فيردّ سعيد في نشوة: فارسٌ جسور حقيقٌ أنْ يكونَ خليفة هذا الأسد، مشيرًا لأبيه، حينها أقسمت بأغلظ الأيمان ألَّا ينجو الجاني بفعلته وأنَّ جفنك لن يغمض حتَّى تأتي بالمجرم مكبَّلًا انتقامًا لإصابة سلطان، وردًّا لاعتباركم، فهبّ الظّفاريُّون هبَّة ليث غضوب برًّا لقسمك، يمسحون الجبل طولًا وعرضًا حتَّى باتَ المجرم وأعوانه مقبورين مُضرَّجين في دمائهم، وطابَ لنا

الجبل من يومها لا ينازعنا فيه إنسٌ ولا جانّ في رنَّة ثقةٍ وفخرٍ وخيلاء لا تصدر من سعيد كثيرًا...

يردُّ الشّيخ وقد بدا على وجهه الارتياح: أجل يا ولدي فأيّام عزِّنا لا تنقضي حكاياتها ولا تنتهي سطورها مجدًا وشرفًا وبطولةً...

يقطعُ حديثهما قدوم "جاسر" ولد "سلطان" الوحيد، لم يزل بعدُ صبيًّا قبيل سجن والده، كان "جاسر" شابًّا فتيًّا بالغ الوسامة لم يتجاوز عامه الخامس والعشرين، أشقر، يميل شعر رأسه وشاربه للحمرة، بينما وجهه الوسيم الأبيض المشوب بالنَّمش يضفي عليه وسامةً أخرى، كأنَّه ولد أحد الشَّوام أو الأجانب، يبدو لمن لا يعرفه أنَّه سائحٌ ضلَّ طريقه أو سقط بمنطاده في الجبل، كان كعمّه سعيد لا يرتدي الجلباب ولا يرتاحُ فيه، ربَّما أخذَ من والدته بالغة الحسن كلَّ ملامحها الجميلة، بينما ورثَ عن والده جسده الممشوق واعتداده بأصله وجاهه، وأخذَ عن جدّه صوته الأجشّ وولعه بالنِّساء!!!

كان كابن عزّ ورِثَ عن أبيه المجد والثَّروة والهيبة دون أنْ يبذلَ فيها أيَّ جهد، وكأنَّ القَدَر يعوِّضهُ عن أبيه الذي لم يربِّه ويمنحهُ شرف وكفاح أجداده؛ ليجني ثمار جهدهم الرَّائِع، تربَّى "جاسِر" مع "سعيد" في كنف جدّه عقب سجن والده، في الطَّابق العلويّ من القصر، ظلَّ مسكنه هو وأمّه كما كانا زمان أبيه، ضمَّهما الجَدّ إلى كنفه وحباهما برعايةٍ خاصَّة، حظي فيها بقدرٍ لا بأسَ به مِن التَّعليم، رغم أنَّه لم يعنَ بذلك فقط يلبّي أوامر جدّه الصَّارمة وأمنيات والده التي فُرِضت عليه، فرآها فرصةً سانحةً للتَّسكُّع مع فتيات المدينة ومرافقة بعضٍ منْ النّسوة سيّئات السّمعة، بعيدًا عن رقابة جدِّه ونفوذ أعمامه...

كانت الشَّمس توشك على التّحوّل من وجهها اللطيف لوجهها السَّافر القاسي، اصطبغَ وجه "جاسر" معها بحمرةٍ قانيةٍ وبدا وجهه مُحتقِنًا مزرودًا وكأنّه ينفثُ منه اللهب من جرَّاء أشعَّتها السَّاخنة، قد نضحَ منه عرَقٌ يقطُر فغدا وجهه شديد الوهج مُبللًا، لا تدري هل السَّبب في حاله تلك اكتنافه السّير في وهج الشَّمس وشدَّة الحرّ بعيدًا عن الظِّلّ في هذا الوقت من اليوم أم غضبٌ استبدَّ به وسيطرَ عليه، فأسلمه لتلك الحال، وبدا في ملامحه الغاضبة ونبرة صوته!!!

انكبَّ على يمين جدِّه يلثمها، وكأنَّه يرتشف منها القوّة والبركة: صباح الخير يا جدّي... يجيبهُ الجدّ الذي بدا الحنان في صوته واضحًا: مالي أراكَ مُقطَّب الجبين عابِسًا... فيجيبه وهو يزدردُ ريقهُ مِن الغيظ: عمِّي سليم يا جدّي يماطِلُ في زواجي مِن "نادية" ابنته... يزمجِر جدُّه في غضب... كيف هذا وقد خطبتها لك بنفسي! هل وجِد في الجبل مَن يدبُّ بخطاه يعصاني في أمري ولو كان ولدي الذي يحمل في عروقه دمي... يجيب جاسر، وقد بلغَ به اللهاث من توالي الحديث دون أن يستريحَ منذ قدومه، وكأنَّه أسرع مُستجيرًا بحمّى جدّه وماله مِن أمرٍ نافذٍ على الرِّقاب: قال لي مشيرًا لأسلاك كهرباء الضَّغط العالي المشدودة فوق الحقول حتَّى لو أمسكت هذه الأسلاك لن أعطيك نادية... يتدخّل سعيد وهو يرمُق جاسرًا بعين لائمة ماكرة: ما دفعه لهذا القول إلَّا بلوغه عن سيرتك ما يكره... فيقاطعه "جاسر": لا ورأس جدّي ما فعلت ما يستلزم منه كلّ هذا الغضب... يردُّ "سعيد" عمّه الشّقيق وصفيّه وصديقه: لا تقسم برأس جدّك فهي أشرف وأجلّ من أن تُقحم في صراعٍ كهذا... يسترسل متوجّهًا بنظره لأبيه، وكأنَّه يخصّه الحديث: اللعنة على "سليم" يا أبي، لا يريد أن ينسى أنّه غير شقيقٍ لنا، ألا يذكر تضحية

"سلطان" وما قدَّمهُ لكرامتنا جميعًا؟ ألا يعلم أنَّ "جاسرًا" ليس مجرّد حفيد للشّيخ محمود، بل هو ابنٌ للعائِلة كلها المُقَرّب مِنْ قلبها وقلب سيّدها... يردُّ الشّيخ محمود في حِدَّة: يعلم أو لا يعلم، ائتوني بسليم فورًا، وليذهب كلٌّ لعمله، كفاكم إهدارًا للوقت... في حسمٍ وشدّة وافوني بحال المحاجر اليوم عند أوبتِكم... يردُّ سعيد في همّة وقد أيقن أنَّ الأمر قد قُضِي بعد أنْ تدخّل الشّيخ فيه بنفسه: أوامرك مُطاعة يا سيّد الجبل.

لم يلبث أن أتاه سليمان بحيّةٍ مقتولة لتوِّها، أمرَ سليمان أن يسلخَ جلدها ويعتصر جزءًا من منتصفها في خرقةٍ بين حجرين، فسالَ من الخِرقةِ سائلٌ أصفر غليظ القوام، دَهن به إصبعهُ، ثمَّ لفَّه بخرقة ينشدُ أنْ يشدَّ شحم الحيَّة، غليظ القوام بكثافته، الشّوكة المُجترِأة على اختراق جسد الشّيخ المُهيب...

كان سليم الابن الثَّالث للشّيخ من سِلسال الذِّكور بعد عبد الماجد البكري، ثمَّ سلطان الابن الثَّاني المرشّح لخلافته بقوَّة وحمل مجد العائلة المهيبة بكلِّ نفوذها وجلالها بما أوتي من شخصيَّة فذّة أسطوريَّة، وما حباه الله به من صفات رائعة قلَّما تجتمع في شخص واحد؛ ممَّا أهَّله لهذا الأمر الجلل مقدّمًا على أخيه الأكبر عبد الماجد الذي حرمته الطَّبيعة من كلِّ شيءٍ يحدوه لنيل هذا المجد رغم كونه بكريّ أبيه.

فقد كان عبد الماجد لا يكاد يشترك مع أبيه ولا أجداده في شيء يُذكَر، عدا النَّذر اليسير، فأنفه ظفَّاريٌّ ضخم فوق شاربٍ مشذَّب ونبرة صوته تشبه جدّه لحدٍّ كبير إلَّا أنَّ عينيه كبيرتان جاحظتان، ووجهه مكتنِزٌ باللحم، له شدقان عظيمان تتدلَّى خدودهما، فتعطي لرأسهِ ضخامة، قامتُهُ قصيرة، بادي السِّمنة، له كرشٌ كبير يهتزُّ مِنْ فرْط بدانته كلَّما سار، لم تبالغ الدُّنيا في حرمانه من مهابة المظهر وتناسق القامة والوجه الظفَّاريّ الذي يضجُّ بالمهابة فقط، بل

حبته بطباع لا تتواءَم مع طِباعِ رجالات عائلتهِ وسماتهم القويّة الممتلئة شهامة وجرأة، ربَّما غالت الطَّبيعة حين منحت أخاه سلطان من الأب، والذي يليه كلَّ موروثات أبيه وجدّه من الهيبة والجلال والأَنَفة والمروءة، ووجهًا يكاد يتطابق مع وجه أبيه وجدّه، وكأنّه نُسخةٌ مكرَّرةٌ لهما، وكأنَّه توأم أبيه لا ولده.

ولِدَ عبد الماجد من سعدية زوجة الشّيخ الأوْلى، لم تكن من أقربائه، لكنَّها ابنة أحد أعيان تجَّار المدينة الحاج إبراهيم القارض تاجر البلح الشَّهير، كان يشتري النَّخيل ويجمع الأطنان من البلح الذي يُجفّف في جبل الشّيخ، ثمَّ يرتحل به كلّ عام قُبيل رمضان لأسواق روض الفرج، كان يحلّ ضيفًا عزيزًا مُكرمًا على الشّيخ أحمد وأعلنَ صراحةً رغبته في مصاهرة سيّد الجبل، الذي أمر ولده الشّيخ محمود وقتها وكان شابًّا لم يتجاوز العشرين بإتمام هذه الزِّيجة.

يشبه عبد الماجد أمَّه في خنوعها واستسلامها لهوى النَّفس والظَّنّ السَّيئ والأحقاد، تُفسِّر كلَّ تصرُّف للنَّاس مِن وجهة نظرٍ مستريبةٍ وسوء ظنٍّ، وكأنَّ كلَّ البشر قد أجمعوا على الكيد لها وكراهيتها، لم يغيّر من طبعها انحدارها من أسرةٍ ميسورة وتزوّجها من سيّد قومه وابن سيّدهم ولا إنجاب أكبر بنيه وابنتين تعقبانه هما كاملة وفاطمة، ظلّت نيران الحقد الأسود تأكل قلبها حين تزوَّج عليها الشّيخ محمود ابنة عمِّه وجيدة، وأنجبَ منها ذكورًا آخرين سلطانًا ونصرًا وسعيدًا، رغم أنَّ زواج مَن هو مثل الشّيخ في حينه مرَّتين وأكثر ليس أمرًا مُستهجنًا بل طبيعيّ مقبول حتَّى يشعلَ في قلبها كلَّ هذه الأحقاد وهذا العداء والنَّظرة السَّوداويَّة للدُّنيا وما فيها من مباهج، ولكنَّها الطَّبيعة التي جُبِلت عليها والتَّكوين النَّفسيّ الذي أثَّرَ في وجدانها جعلها ترى الألوان سوادًا والنّور ظلمة والحياة مُقبِضة حزينة ليس فيها ما يسرّ.

التحقَ عبد الماجد بالتَّعليم الأزهريّ وأتمَّ حفظَ القرآن بصعوبةٍ بالِغة بعد أن تكرَّر منه نسيانه مرّة بعد مرّة في سنٍّ كبير، لم يكن غبيًّا بقدر ما كان دائم الانشغال والشّرود في أفكارٍ متضاربة وأحقاد غرستها أمّه في كوامن نفسه منذ الصِّغَر ونمَّتها معه كلَّما كبر، أقحمت الغيرةَ في حياته من أخيه سلطان بسبب حبِّ أبيه له وتفضيله عليه، حتَّى إنَّه لم يتم تعليمه ولازمَ أبَاه يستقي من نبعه حتَّى الثُّمالة ويتقرَّب إليه بتدبير أمِّه، فانشغلَ عبد الماجد عن التَّعليم بأفكار النِّسوة من الحنق والغيرة وتعثَّر في مراحله المختلفة يجتازها بجهد واضح، حتَّى انتقلَ للقاهرة في دار العلوم زاد تخبُّطه يجتاز عامًا ويفشل أعوامًا لم ينل فيها إجازته، ظنًّا منه أنَّه يعود ليحظى بمكانةٍ مفضَّلةٍ عند أبيه، لكن عودته خائبًا مكسورًا زادت من نفور والده منه، عاد مُحمَّلًا بشيءٍ آخر غير العلم والشّهادة رزءٌ ثقيل من خيبة الرّجاء وأتراح الفشل لنفسٍ مثقلة بالأتراح والأحقاد والوهن مع كثيرٍ من عادات المدن التي أضافت لطباعه لينًا وخنوعًا وضعفًا، أتُراهُ خسرَ برحلته تلك حين نأى عن كنف أهله وابتعدَ عن دائرة الهيمنة والسَّيطرة الموروثة المتعاقِبة مفضِّلًا التَّسكُّع في شارع الهرم وبيوت الهوى ونسي ما تغرَّب لأجله، وكأنَّ تيهًا تملّكه أسلَمهُ للتَّخبُّط مع صعوبة التَّأقلم على مجتمعٍ جديدٍ عليه أبهره وغاصَ فيه، لكنّه يظلّ في النِّهاية الغريب الثَّريّ الذي جاءَ في مهمَّة خاصَّة لازمه فيها الإخفاق؟؟؟

حين عادَ زوَّجه أبوه من إحدى قريبات أمِّه بناءً على رغبتهما، وأسكنه طابق القصر العلويّ بعد أن خصَّص الأوَّل لسلطان وأقطعه أراضيَ وحدائق تدرُّ عليه دخلًا وفيرًا وكأنّه يقصيه في مودَّة مَن يراعي خاطره.

فقد بلغَ سلطان مكانةً عظيمةً في نفس والده، وكذلك النَّاس وكأنّه يرتقي كلَّ يومٍ سحابة تحمله للأفق والحظوة والتَّسيُّد ليتبوَّأ في عظمة واستحقاق

مكانة أبيه، ومِنْ قائِلٍ أنَّه ربَّما فاقه محبَّةً وتأثيراً فيمَن حوله، كان يشبه أباه ربَّما فاقه منحًا وعطاءً، سارَ على نهجِ أبيه وجدّه، لم يكونا يغمضان جفنيهما حتَّى يجوسان كلَّ ليلة الجبل والحاجر يذرعانه شبرًا شبرًا تجول عينيهما فوق البيوت والطّرقات، يمتطي جدّه صهوة بغلة بيضاء جسيمة كأنَّها الجمل حين يعتليها مع طوله الفارع يخيّل إليك أنَّه يحلِّق في عليائه، وكذا كان يفعل أبوه.

ورِثَ الشّيخ محمود عن أبيه هذه العادة، يودِعُ كتِفه بندقيَّته القديمة التي ورثها عن والده الشّيخ أحمد – الفاتح الأوَّل–، لا تهدأ نظراته المتوثِّبة الحذِرة حتَّى يعاين كلّ شبرٍ فيها ويشمله بنظرتِه، حين يجوس الدّروب والممرَّات مداخل القريَّة وما يجاور الجبل يؤمِن مملكته الصَّغيرة النَّائية، لا يجترئ مُجترئ أنْ يدخل حماه ويلجَ مملكته إلَّا بإذنه وعلمه، أصبحَ أبناء الليل وقِطّاع الطُّرق حتَّى ذِئاب الجبل وضِباعه تهابه وتخشاه كأنَّها تعرِف قدرهُ ومكانتهُ...

كانت تربطه برجال قسم الشّرطة بالمركز التَّابعة له عزبته صداقة وموَدَّة، يحلّ عليه دومًا مأمورو القسم وضبَّاطه المتعاقبون ضيوفًا مُكرمين، لا يقتحم أحدٌ مملكته الحصينة إلَّا في سُدُل الزِّيارة والتَّكريم، وإنْ نابهم شيءٌ أو أرادوا طِلبةً أو أعجزهم فارّ يأتيهم به الشّيخ لو أراد مُكبَّلاً مُذْعِنًا...

لم يكن معظم شباب الحاجر ممن لم يطرقوا أبواب المدارس ذوي اهتمام بالخدمة العسكريَّة ولا أدائها، كثيرٌ منهم يتهرّبون منها، يعتقدون أنَّها إهدار لوقت أوْلى به أنْ يخصَّص للسَّعى خلفَ أرزاقهم، لا كراهيةً في خدمة الوطن الذي لم يعنوا به أو يدركوا كنهه ربَّما يعزى السَّبب لانشغالهم بطينهم وزرعهم الذي استولى على حياتهم، فلم يعد فيها مكان لغيره، وبعدهم التامّ عن كلّ قضاياه وهمومه بفعل نأيهم وجهلهم معاً لم يغادروا الحاجر منذ صغرهم أصبح دنياهم الوحيدة حين يسرحون في ماقبل الفجر ما يوازي

الثالثة صباحاً ويئوبون لمنازلهم قبيل الظهيرة فلا طاقة لأحد العمل في الهجير حين يرجعون لمساكنهم يتناولون غذاءهم ولا يبارحونها إلَّا قبيل الغروب يُتمّ بعضهم مابدأ بينما لا تتعدّى مساحة السمر والترفيه ما يجاوز صلاة العِشاء فيأوى كلٌّ إلى فراشه يمارس المتزوِّج ترفيهه الوحيد مع امرأته التي لا يستبين لها ملامح في ظلمة الليل وعتمة مسكنه فقط أُخدودٌ يقذف فيه همَّه!!! بينما يسمر الشبابُ بعض الوقت حول الجوزة وحكاوى تشبه الأساطير عن خوارق لم يرها أحدٌ منهم فقط سمعوها من أفواه الجدود وعن عوض الممسوس –به مسٌّ من الجنّ منحهُ قوةً خارقة – الذي استطاع أنْ يحمل عجلاً سميناً على كتفيه يودِعه ظهر عربة، وسحر الفقيرة يتيمة الأبوين التي اعتادت طرق عيادة –زهرى – طبيب النساء في البندر والمتخصِّص في إجهاض الفتيات ثم اختفت في ظروفٍ غامضة بدعوى سفرها لأخوالها في القاهرة ثم وجدوا جثَّتها في المصرف، وحكايات مملة متكررة كئيبة عن مايسة البدوية وابنتها ميرفت ذات العيون الجميلة الخضراء التي تزوجت مؤخرًا ولم تحِد عن مسلك أمها قيد أُنملة؟!! كالسوس ينخر في القصب والضبع ينهش في الرمة النتنة حديثٌ لا ينتهى عن فلانٌ الذي أحبَّ فلانة وفرّاج الذي يتسلل كلَّ فترة ليشهد سيادة جارته وهي تستحم من فرجة جدار منزلها، ثم يعود ليحكى لهم الأساطير والوهم عن تفصيلات جسدها العارى وشعرها المبتلّ؟

يتوارون في هربهم من أداء الخدمة بمنعة الشيخ وكمونهم في حماه لا يأبهون لحملةٍ تضبطهم ولا يخشون غائلة ما داموا في حدود حرمه الآمن المهاب إلَّا من يدفعهُ نزقهُ وغروره لاجتياز هذا السياج المعنويّ وتخطى حدوده، حينها يرفع الشيخ يد حمايته وجواره عنهم إذا نالهم ما يستحقون

ولو أراد الشيخ لتدخل لخلاصهم بكلمة أو أمارة (إشارة) يرسلها مع مندوب، لكنه لم يكن يعبأُ بمن خالف أمره ونهيه ولا يلقى له بالاً ولو كان مِن أقرب خُلصائه أو ابن أحد حلفائه.

كان للسلاح في أيدي أهل الحاجر وقاطنيه أهمّية قُصوى، كأنّه دمية في يد طفل أو تميمة مباركة لا غنى عنها، تتفاوت أنواعه وفقاً لحال متملّكه يبدأ من بنادق الخرطوش للطبنجات الآلى والرشاش حتى الآر بي جيه أمتلكه بعضٌ من عتاة أهل الجبل، وكانت تجارته رائجة تحت سمع وبصر وإقرار السيد وعشيرته، يحمله فقط من يأذن له الشيخ بحمله فلا يواريه بل يبرزه جهارًا نهاراً دون أنْ يخشى كسرة (ضبطية) تفتيش أمني مباغت، يحمله غالبية العائلة الظفارية وأبناء عمومتهم وأصهارهم وخفرائهم، كما سمح الشيخ بحمله للعديد من أقباط الجبل في خفية بعد استجداء للضرورة مثل أسرة "سعد" و"مرتجى" ولد "بشندي" وولدا أسرة صهيون ممن كانوا يتودَّدُوْنَ للشّيخ وتربطه بهم أواصر مودة وصداقة، رغم مسئوليته الكاملة عن حمايتهم وأمنهم، تعود أهمية السلاح لطبيعة الجبل وما قد يطرأ مباغتةً من هجوم ذئبٍ شاردٍ أو طريدٍ فارّ، والليل والظلمة لهما رهبتهما كأنهما دنيا خاصَّة لا يقتحم غمارها في جرأةٍ سوى قليل من الرِّجال يصير السلاح فيها عزوة لحامله يركن اليها وقوة إضافيّة قد تحوِّل الجبان أو الضعيف شجاعًا جبّارًا، ووسيلة لا تُبارى لإثبات المنعة والسيطرة والقُدْرة على المواجهة، حين يقصد الشيخ إرهاب بعض الموتورين دون أذىً فتطيش رصاصاتٌ ليليةٌ فوق العمائِم تدوّي في الآذان بضجيج الموت، ليعلم من يدفعهُ نَزَقهُ للعصيان أن نيلهُ ليس هناك أيسر منه وأنَّ ما طاش بقدر أصبعٍ فوق الرءوس قادرٌ أن يعصِف بكل

رأسٍ متحجِّرةٍ آبِقةٍ بسهولةٍ أكثر إذا تمادت في غيّها ونُذُر وعيد لمن رأى وسمِع وعِبرةً لمن أراد الاعتبار.

وكيف تُحمى المواشى والبهائِم والمحاصيل مِنْ غائِلة فلول المطاريد واللصوص؟ وردعٌ بيّن وزجرٌ جليّ لمن سوَّلت له نفسهُ الاعتداء حين يصلُ أُذنيه دويّه المُفزِع من خلف الحُجُب فيراجع نفسه ألف مرّة قبل أنْ يفكِّر في العُدوان ويعلم أن من ترصَّد لهُ مُحصّنٌ بسلاحٍ يدفع به عن نفسِهِ وأملاكهُ الغوائِل، إن توهَّم الإفلات من انتقام الشيخ الذي قد يسلُخ جِلدهُ بلا رحمةٍ على تجرّؤه على إحداث الجُرم في مملكتِه ..

فغابات القصب الكثيف المؤلّفة من حقولٍ متجاورة تمتدّ لمِئآت ربَّما آلاف الكيلو مترات على مدّ البصر والتي قد يضيع الوالِج فيها بلا رجعة حين تضربه الشمس بقبضة أشعتها الحارقة وتنفذ لحنايا مخّه، أو تهاجمه ذئاب ترعى في غاباته لا تخشى غائلة ، أو هاربٌ طريد وجَد في تيهها متّسعٌ لتخفّيَه، حريَّةٌ أنْ يحتمى طارِقها بِسلاحٍ يؤمّنه في هذه الدنيا الغامِضة وهذا البحر اللجّيّ الذي لا تدري ما ينتظرُكَ بقاعه منْ مخاطِر...

لم يكن منع السلاح فكرةً مستحسنة لدى سيّد الجبلِ وسكّانه، لكنّ التمادى المُستفزّ مِن بعضهم في الإعلان عن حيازتهِ استفزّ السُلُطات التي اشتكت للسيد استشعارها الحرج حين بلغهم نبأ تبختُر حمّادي الترامسيّ – وهم عائلاتٌ من أصلٍ واحدٍ ينتمون لقريةٍ كبيرة تجاور نجع حمّادي قد فرّوا منها هروباً من دم يطاردهم وثأرٍ قديم يسعى أصحابه لاقتصاصه منهم فلجئوا للجنوب عابرين الجبل لائِذين بحِمى الشيخ فاستوطنهم أحد حارات الحاجر التي أصبحت تسمى باسم قريتهم نجع الترامسة معظمهم عمّال تراحيل وبِناء يسافرون للمحافظات ربما دول الخليج سعيًا خلف

أرزاقهم – حاملاً رشاش من نوع عوزى الإسرائيلي على كتفه في غدوته ورواحه خلف بهائمه، حذَرهُ الشيخُ فاستجاب أيّامًا ثمّ رجع لسابق سيرتِه لم يرعوِ مما دفع الشيخ لرفع يدهِ عنهُ لتفاجِأه (كسرة) هجومٌ ليليّ مفاجئ من الشرطة داهمت مسكنه واستخرجت السلاح الذي أخفاهُ في زريبة المواشي، قضى في الحبس أيّامًا كاد يُقدّم على إثرها للمحاكمة لولا تدخّل الشيخ بعد رجاء واستعطاف من كبير النجع الحاج مهدي لدى الشيخ محمود الذي سعى للإفراج عنه بعد مُصادرة سلاحه الذي أنفق في سبيل شرائِه مبلغًا باهِظًا كنوع مِنَ التباهي والتفاخُر...

كان السلاح للترهيب يُحمل ولا يُستخدم غالبًا إلا في الثآرات حين تبرز نيّة القتل لا يردُّها رآدّ، بينما كان سلاح المعارك الفعليّ هو (الشوبة) أو الشومة كما يسمونها في الشمال وهي تشبه النبّوت الذي يستخدمه الفتوات غالبًا في العصر القديم في الحارة القاهريَّة، أمَّا في الجنوب فقد كانت رُغم ثقلها وغلظها تحملها أكفّ الرجال ليلًا ونهارًا في الجبل وحاضِرته لا تقوى على حملها كفٌّ واهِنة، تُستخدم في العراك وسيلة ناجعة لإظهار السطوة والغلَبة وردّ الاعتداء دون إزهاقٍ للأرواح.

فقط قليلٌ من الجروح وقطراتٌ منَ الدماء، فحمل العصا فنٌّ والضَّرب بها لشجّ الرَّأس وإسالة الدَّم دون كسر أو موت مهارةٌ يجيدها البعض ويتدرّب عليها الشَّباب، وكأنّها خاتمٌ على رأس المشجوج وإقرارٌ منه بالهزيمة والانكسار أمام من ملك زِمام القوة والسّرعة، فهوت عصاه أولًا على رأس غريمه، يُمنّي بعدها بغرزٍ جراحيةٍ يُكلِّلُ رأسهُ انكِسار الهزيمة وذلة الإصابة التي تحني رأسه أمام قاهره أو تدفعه للاستعداد لجولةٍ أُخرى يردُّ فيها كرامتهُ.

وقد تُتّخذ فنًّا للتباهي والتحطيب وهو نوعٌ آخر منَ المنافسة الودّية حظى منه أهل الحاجر بنصيبٍ وافر تتطلّب مهارةً وحنكةً والمطلوب بين المتبارين هو أن يستطيع أحدهم مسّ جسد غريمه بعصاه مسًّا خفيفًا دون إيذاء قبل أن يدفع المهزوم عنه العصا قبل أن تلامسه ويدرأها عنه بعد أن تصطك عصى المتبارين بقوَّة في صدّ الضربات القويَّة، طقسٌ يتمّ في الأفراح والمناسبات السَّعيدة وسط قرع الدفوف وغناء المزمار وعزف الرباب واجتماع الرجال في حلقة واسعة حول اللاعبَين.

كان الشّيخ بين الفينة والأخرى بهيبته الغامرة يزور المركز التَّابع له حاجره لقضاء بعض المصالح، فيزور مقرّ قسم الشّرطة فيغدو كأميرٍ يزور قُطْرًا مُجاوِراً لما يلقى من إجلالٍ وترحيب، يتلقاه الخفراء من أمام البوابة الرئيسيَّة في استرضاء تام عجيب يبادرون للإمساك بخُطام بغلته يسوقونها للداخل حتى يُنزلوه في أشرف مكان ربّما على بعد بضع خُطوات من المكتب الكبير (مكتب المأمور) ثمَّ يقودونها لمرابط خيل الحكومة حيث العلف والماء، فيدخل الشيخ "محمود" على المأمور دونما استئذان أو انتظار فيقوم المأمور احترامًا له، ويحتفي بقدومه أيّما احتفاء، وقد يعلم بمقدمِهِ سابِقًا فيكون ومعه أحد كبار معاونيه وصولاتِهم في شرف استقباله في توقيرٍ ووُدٍّ خالِصين، ولِمَ لا وهو الحاكم صاحب الأمر والكلمة النافذة في الحاجِر والجبل صاحب الصولة والنفوذ ورُغم هذا تربِطه أواصِر متينة مع رِجال القسم والأمن وكأنَّهُ مندوبهم هناك! ألم يتكفّل ببناء مبنى مركز الشرطة الآيل للسقوط والمتهدِّم من جرّاء القِدم والسيل مِن مالِه الخاص مستبدِلاً بالطوب اللبِن الطوب الأحمر والمُسلّحات حين عنى بتجديده وتوسِعته، فأضاف له مربضًا للخيل وحجراتٍ إضافية ومكاتب دون أنْ يشاركه فيه غيرُه؟

ورِث ولدُه الثاني وخليفتهُ وذراعهُ الأيمن الحاج سلطان دون غيرِه عزم ومَضاء أبيه وصولته وتوسّع في علاقاتِه ونفوذِه بما حباهُ الله به من صِفات أضفت عليهِ مزايا أُخرى أجلَّها فن التعامل مع الناس وخلط المحبةِ بالهيبةِ في جرَّةٍ واحِدة مع حُسن التودُّد والسخاء وبشاشتهُ الدائِمة ومنْحهُ الدائِم عن طيب نفس وأريحية، فذاع صيتُه وتحاكي الناس بجودِهِ وكرمِه وشخصيته الفذّة واتسعت دائرة علاقاتِهِ ومعارِفه لتشمل مسؤلي محافظتِه ومجلِسِ مدينتِه وعِلية القوم وكبرائِهم في إقليمه، فصار مندوب أباهُ الأثير الذي ناب عنه في زيارة مركز الشرطة والصديق الشخصيّ لمأموره ومَن توالى عليه من مأمورين أو اعتلى هذا المنصب المقرّب إليهم والمُحبّب لقلوبِهم أكثر من غيرِه ربما لأنّهُ أقْرب سُلطةٍ إليهم ورمزٌ للهيبةِ والحكومة أمام أعينِ الناس في هذه المنطقة، فلا غرو أن يمدّوا بينهم وبينهُ جسور الأُلفة فتصير مكانته وهيبته اللصيقة امتداداً لهيبتهم ونفوذهم وكأنَّ كليهما يكمل ما نقص مِن الآخر ويجبرُ كسرهُ.

فيقْدُم سلطان كأبيه في زهو وأنَفه ممتطيًا صهوة حِصان عربيّ أشهب غايةٌ في الروعة والفخامة وكأنّه عني عند اختيارهِ مع بضعة خيولٍ آخرين حين ابتاعهم من تاجرٍ يقتني هذه السلالات النادرة الأصيلة بهذا المظهر الذي أضفى على هيبتِهِ وعنفوانهِ جلالًا آخر وهيبةً بعد أُخرى...

لايكفّ عن المنح يُمنةً ويسرة طيلة ولوجه مقرّ القسم ودهليزه الطويل ولأنَّهم عرفوا عنه هذه العادة وجرّبوها كثيرًا، كانوا ينتظرونه بلهفة كلّما حانت زيارته ويستقبلونه بحفاوةٍ وإجلال فترى الجنود والخفراء قد اصطفوا لتحيته على طول الممرّ الضيّق لنيل عطائه الجزل في مشهدٍ مفعمٍ بالسؤدُد والترحيب والتقدير.

يحار منْ شهِدهُ عن مكمنِ عظمته أيكون ما ورثه عن أجداده من قوةٍ وجرأةٍ وبسالةٍ وسطوة وقدرةٍ على القيادة؟ أم فيما حباه الله به دون من سبقه من جميل الطِباع وحسن المعاملة والحِنكه في تأليف القلوب بالمحبّة وبذخه وسخائه بلا حدود، وقدرته على التوغُّل مع الناس في أدقّ شئونهم وأبسط تفصيلات حياتهم وكأنَّه أحدهم يتباسط مع البسطاء ويتعالى في جلال حتى تفوق رأسه أعلى الرءوس في عزةٍ وشممْ. كأنَّ عطاءه سيلٌ منهمِر لا ينضب ولا تحدُّه حدود، عطاء مَن لا يخشى الفاقة أبدًا، في ظاهره وباطنه الرحمة، حتى يقال إنَّهُ أهدى صديقه مدير أمن المحافظة أحد خيوله العربية الأصيلة لا عن رشوة وتملُّق بل عن بذل وسخاء وجود مؤصّل في طباعه الجليلة، كان من النوع الذي يخلص المودّة والصداقة لا يخصّ بها علية القوم أو الوجهاء من ذوي النفوذ بل ربما تعدَّى منحه أهون الناس أو مَنْ ليس له أدنى منزِلة ومن لا يتوقع أن يلقاه مرّةً أخرى فلا بفصِح له عن شخصيته وكأنّ جودهُ مدفوعٌ بأريحيّةٍ خاصّة لا تحرِكه مصلحة فهو حب البذل والمنح مجردًا لا تعتريه شوائب المنفعة وانتظار مردود عمله إلا في نفوس الناس حين يزول عنها بعض الهموم فتسعد فتغلّفه حينها سعادةٌ غامرةٌ...

***

وصل "سليم" بعد أذان العِشاء إلى بهو القصر الكبير، كان في انتظاره في الردهة الفسيحة الشيخ "محمود" وأخواه لأبيه "نصر" و"سعيد" و"جاسر" ابن "سلطان" الوحيد عدا "عبد الماجد" الأخ الأكبر الذي أصبح في معْزلٍ عن باقي أسرته فاستقلّ بمنزلٍ كبير في أحد أطراف القرية مما يلي مهبط طائرات السيل، لم يكُن بُعْدًا بقدْر ما كان نفيًا قهريًّا استجابةً لأوامر الشيخ "محمود" الصارِمة بإبعاده ماديًّا ومعنويًّا عن الأسرة كلّها بأفراحِها

وأتراحِها فأمرهُ بغلظةٍ وجفاء الأب الحازِم حين يمتلئ قلبهُ بالقسوة تجاه ولده امتلاءً لا يدع معه مجالاً للحبّ أو الغُفران ألا يريَهُ سحنتهُ ولا يسمع عنه خبرًا شرًا كان أو خيرًا ولا يقدُم إلا إذا طلبَهُ بنفسِه.

كان "سليم" ابنًا أوحد للشيخ "محمود" من زيجةٍ سريعة لم تدُم طويلًا وانتهت بالطلاق من السيدة رفيعة القوّاس ابنة حاضِرة المحافظة، كان ولدها الوحيد الذي لم تنجِب للشيخ غيره، والثالث من الذكور لإخوةٍ غير أشقاء يلي "عبد الماجِد" و"سلطان"، تزوج الشيخ والدته بعد أن بهرهُ حسنها، عيونها الخضراء كأنَّها حبوب البازلاّء تبرُق في أشعّة الضحى، كانت ابنةً وحيدةً مُدلّلةً لأحد موظّفي شرِكة السكّر، اشترطت عليه الإقامة في المدينة وعدم الإقامة في الجبل وافق في البداية، ثمَّ طلقها بعد أنْ أنجبت له "سليمًا" حين رفضت الارتحال معه للجبل، لم يقبل أن يظلَّ مُشتّتاً بين الجبل والمدينة بعد أن اتسعت أعماله وتنامى نفوذُه، واستمرّت حاضِنةً لسليم لم ينازعها الشيخ حضانتهُ حتى قارَب الشباب، لم تنقطِع صلتهُ بهم أبدًا حين ظلّت عازفةً عن الزواج بعد الشيخ فلن تجد من يخلف عليها بعدهُ من هو مثله في رجولته ومهابته وكأنَّه ترك فراغاً لا ينسدّ وبؤرةً غائِرةً حزينةً في نفسها منذ تطليقها ندمت بعدها أشدَّ الندم، لكنه الندم حين يفوت الوقت وتضيع الفرصة، أبى الشيخ أنْ ينتزِع وحيدها منها فهو مع فِراقها كان يعجبُ لشخصيتها المتألُقة الواثقة الطموح وكأنّها امرأةٌ راجحة العقل والجمال معًا ويرضيه طريقة تهذيبها ولدها وتكوين شخصيتِه، ولكن من تطلب الطلاق من الشيخ لا يمكن أن تُردُّ لعصمتهِ أبدًا ولو كانت أجمل وأحكم من ولدت حوّاء. كانت تُغذّي في "سليم" روح الرجولة والمروءة والثقة اللامتناهية في الذات، وعلّمه النأي الاعتماد على نفسه والاستقلال بذاته وعدم التعويل على

ما يصل يديه دون جهد بل مجاهدة النفس للوصول لأفضل مكانة بعد بذل العرق والكفاح. حَبَتهُ الوِراثة جسدَ أبيه الفارع وقامتهُ المديدة بيد أنَّ جسدهُ مُمتلئ قليلًا امتلاءً لا يُشينهُ بل يزيده جمالًا وقوّة، بينما وجهه قمحيٌّ معتدل القسمات والتقاطيع، أنفٌ أقنى وشارِبٌ ظفَّاريّ وعينان خضراوان كأمّه، رفضت أمّه العودة معهُ للجبل بعد إلحاح وآثرتْ المُكثُ لدى ابنة عمّها الأرملة في المدينة الكبيرة تؤنس كلاهما وحدة الأخرى في آخِر الأيّام، راجية لابنها التَّوفِيقَ والسَّعَادَةَ.

اختار "سليم" أن يقيم في منزلٍ مستقلٍ بالقرية بالقرب من منازل أهله وقصرِهم كان كفيلا صغيرة وهبها له أبوه دون أنْ يُشدِّد عليه في الإقامةُ معهم وكأنَّ بُعده عن أهلهِ زمنًا عوَّدَه الاستقلال بحياته متجافيًا عن عزوته وأهله حين نما وترعرع في منأى عنهم وكأنَّ حاجِزًا لازالت آثاره في نفسه تمنعهُ من الاقتراب، وكأنَّ رواسب الاغتراب في المدينة، ثم البعد عن أمّه التي التزمت تربيته لازالت شوائبها تعكِّر نفسهُ وتهيمن على أفعاله وتصرفاته، هل كان غريبًا بين إخوتِه وعن أبيه أم منحه البعد شعورًا قهريًّا بأنَّهُ نما وحيدًا كنبتةٍ برّيّة ولو ضرِب بجذورِه في أرضٍ جديدة ستظلّ بيئتهُ الأولى ومسكنه الأوّل في كِيانِه وذاتِه .

منحهُ أبوه محجرًا يُديرهُ ولودرًا يسوسه، وبرغم نشأته الغريبة وشعوره الذاتي بالوحدة وإحساسه بموجدةٍ ظلّت قابعةً في دواخِله تنغّصُ عليه رغد عيشهِ وتؤرّقُه كان خيرَ من يخلُفُ والده وأخاه...

تزوّج "سليم" من إحدى بنات عمومته من عزبةٍ مجاوِرة، عانده القدر وفجَّرَ مأساتهُ منْ جديد حين لم يمهلهُ فاقتنص منه زوجه بعد أقلّ من عام وهي تضع له بكريته "نادية"، لفِظت أنفاسها المختلِجة المُرّة وهي تهبها

الحياة وتوقَّف قلبها عن الضجيج حين اخترق نسيم الحياة رئتي وليدتها وكأنّ صرختها وهي تلتقط أولى أنفاسها آخر ما أودعته الدنيا أُذُني أمها قُبيل الرحيل في مشهدٌ مأساويّ يختلط فيه الموت بالحياة، ثم تبعتها أمّه رفيعة بعدها بأسابيع، وكأنَّ الأحزان التي تكالبت عليه أرادت أنْ تنخر قواه وتهدُّ عزائمه كما العواصف المتتابعة التي تتوالى لاقتلاع شجرة بعينِها فإذا قاومت واحِدةً تلتها أُخرى أقوى منها وأعنف؟

كان أقوى وأشجع من أن تقتلعه عواصف الأحزان كشجرة عاتيةٍ في مهب الريح تنحني لكن لا تنكسر لتستقيم من جديد وتستعيد شممها وإباءها، يرجِع الفضل في ثباتهِ وتماسكهِ للراحلة العظيمة التي قصرت نفسها عليه بعد طلاقِها وزرعت فيه الرجولة والصلابة والتماسك ومقاومة الانهيار، كانت تقول لهُ دائِمًا كن صلدًا لا تلين حتَّى تلين عزائِم الرجال ولو حاوطتك قوى الشر، وليّنًا تنحني لتقوم من جديد حتى لا تنكسر إذا اجتاحك من هو أقوى مِنك حتى يقولوا أنجبت رفيعة القّواس من سيّد الجبلِ سيّد الرجال.

سرعان ما نهض مِن كبوة أحزانِه وتزوّج بأُخرى انجبت له البنين والبنات وكأنّ نشأتهُ وحيدًا أورثته القدرة على مجابهة الأحزان ربما اجتيازها وتخطّيها وعدم المُكث عندها طويلاً استزادةً في اجترار مرارتها...

بينما "نادية" التي أورثها القدر جزءًا مِن تغريبة أبيها حين ربّاها أخوالُها في بِدء نشأتِها، وثكل أمها الذي وخَزَ قلبها بشدّة واستشعرتهُ بِضراوة طفلةً فصبيّةً ، وتعاظم لديها الشعور بالفقد حين طرقها طارِقُ الأنوثة الأوّل وبدأ جسدها في تحوّلاتٍ تتجوّل أرجاءَهُ تضع بروزاتٍ هنا وانثناءاتٍ وحنايا هُناك وتركزّ اللحم والدِّفء في مناطِق وتزيد في ليونة وطراوة تجمُّعات بينما تُضفي لمسةً مخملية ناعمة على الجلد الذي رتعت تحتهُ الهِضاب، وتضفى لمسة الأنوثة

والجمال على الوجه والجسد والملامح، تخرجه منْ براثِن الصِبا حين تتشابه ملامح الذكور والإناث لتفصيلاتٍ أكثر دقّة وخصوصية تعطى لكل جسدٍ منحتهُ المُميّزة، وبرغم جمال عينيها السوداوين الواسعتين إلَّا أنَّها لم تقتنص البريق الأخضر الذي يضوىّ في حدقة أبيها وورثه من جدتها الراحلة...

راعتها قطرات الدم القاتم تتسلّل من موضِع عفّتها وهي تلهو خلف البيت وكأنّ مصيبةً حلّت بين فخذيها لم تدرك أنها عنوانٌ جديد وبداية للانتقال من مرحلة لمرحلة عمرية جديدة، جلست مكانها لم تدرك ماذا تفعل وما هي جنايتها حتى تكلل بهذا الخزي حتى تلقتها زوجة أبيها في غير اكتراث ولا هدهدة لمشاعرها المرتجفة علمتها بجفوة بينما الصرامة بادية على محيّاها ماذا تفعل، ربتها جدّتها لأمها طفلة وآبت صبيةً لزوجة أبٍ غريبة عنها بعد اغتراب، لم تنخدِع بحنانها المُتكلّف ولم تخضع لها يومًا، تمنّي نفسها بيوم الخلاص، لم يجشِّم سليم نفسهُ مشقَّة التظاهرِ بالحنان الأبويّ، فقد فارق نفسهُ حين حُرم منه صغيرًا في المدينة الفسيحة لم يغنه حنوِ أمّه البالغ ولا زيارات أبيه كالضيف عن فقْدِه فترك في نفسه فراغًا لم يكتمِل وجرحًا غائِرًا لمّا يندمِل بعد، زاد من فجوته رحيل أحبابه المتوالي، وكيف يطالب بالمنح من حُرِم العطاء ولم يرتوِ منهُ فؤادُه؟

لم يكُن ليلقى "سليم" عريسًا أفضل من "جاسر" ولد أخيه الأكبر مضرِب الأمثال في المنعة والجود الذي برق نجمه وسطع حتى كاد يفوق الشيخ نفسه ثم خبا بريقه حين اندفع بحماسةٍ غير محسوبة العواقب للوقوع في براثِن ولعنة الدمّ المحظور! لم يكن هذا يعيب سلطان وإنْ أضاع مع ضياعه كثيرًا مِن سطوة العائلة وهيبتها ونفوذها إلا أنّ جميعهم وعلى رأسهم الشيخ

نفسه لازالوا يعزون له الفضل والعرفان في التضحية بمستقبله في سبيل كرامة العائِلة كلّها وشيخها الكبير...

و"جاسِر" فضلًا عن كونه من نسل الظفّاريين العريق ومن أكمل عِرقٍ فيها فهو وريثُ والده الوحيد والحفيد المُقرّب لقلب الشيخ محمود...

جمعت عاطفة رقيقة قلبي "جاسر" ونادية وكأنّ رابطًا ما خفيًّا قد انعقد فيما بينهما فهم من سلالةٍ واحدةٍ يحملان ذات الدمّ، متشابهان في اليتمْ رغم أنّ "جاسرًا" لازال والدهُ حيًّا لكنّه يعاني مثلها ألم فقْده والحرمان من عاطفته وحنانه كما حُرِمت أمها في أولى ثوانٍ مِنْ حياتِها، قبل رغبة الجدّ نفسه في هذه الزيجة التي ربّما جمعت خيرة بنيه، وكأنّه يجمع عِقدين انفرطا من يديه دفعا أثمانًا مِن البُعد والابتلاء "سلطان" و"سليم" رغم حبه الخاص لـ"سلطان" الذي لم يعدله أي حب..

لم يكن "سليم" يعارِض الزيجة قدرَ معارضتهِ لبعض مما نما إليه من سلوك "جاسر" في كليتِه بقنا وما علمه عن تردّده على عزبة الغجر البدو بين حينٍ وآخر، وهم ساكنو التلال الرَّمليَّة والكثبان الناعمة أدنى سفح الجبل ينحدِرون من سلالةٍ غجريّة بدوٍ رُحّل، تحزِم نسوتهنّ وسطها بحزامٍ عريض من قماش ملوّن وترتدي بناتهُنَّ ألبسة مزركشة صاخبة الألوان متنافرة حوافّها مؤطّرة مذهبة وقد توشى بقصبٍ يتخلل تفصيلاته، يبدين زينتهنّ، فيهِن جرأة ربما تبجُّح لايتوارين أو يحتجِبن إلا قليلًا، يرعين الغنم ويخالِطن الرجال، لم يكن رجالهنّ ذوي حميّةٍ أو غَيْرةٍ مُمعنة في سوء الظنّ إلا قليلًا، يغلِب على طباعهم التساهُل وحُسن الظنّ من تكرار ترحال الجدود واعتيادِهم عليه في ما مضى بحثًا عن مرعىً وكلإٍ لسائماتهم قبيل استوطانهم هذه التبة الرملية كأنّ دورهم ومساكنهم تغوص في بحرٍ عظيمٍ من الرمال،

فتغريباتهم الاختيارية جعلت منهم ضيوفاً غرباء أينما يحلّون ينشدون الأمان ولا يسعون لإثارة المشاكل ولا استثارةِ غيرهم من ساكني هذه الديار وربما خنوعٌ وخضوعٌ انتهازى غير مُبَرّر ليطيب لهم المُقام ولو غضّوا الطرف عما لا يمكن السكوت عنه فصارت هذه السمات طِباع مؤصّلة في كثيرٍ منهم...

كانت "مايسة" سيّدة قد تجاوزت الأربعين لاتزال تعلُق بها مسَحات من جمال قديمٍ وفتنة لا تُبارى لعيونٍ تستأثِرُ بالسحر كلّه وشفةٍ سفليةٍ تقبع أسفلها خطوط من وشم أزرق كحيل تشكل مع عيونها العسلية الفسيحة الغاطسة في المكحلة حسن مُغَلّف بالغموض والإثارة، تحت بعلٍ بدويٍّ طاعِنٍ في السن أو أنَّ المرض الذي أقعدهُ أضفى عليه سنًّا وهِرمًا، لها منه بنات وصبي صغير، يسكنون دارًا أقرب للحظيرة منها للسكن والمأوى، فهو ساحة متَّسعة من اللبِن ثمَّ حُجرات بدائيَّة بها فرشٌ وأرائِك ومراتِب بسيطة مع قليل من المتاع والأثاث القديم في مدخل قريتهم، وكأنّه آثر الانعزالَ قبيل باقي الدور الذي يبعد عنه أقربهم فراسِخ إمعانًا في فقرهِ وسوءِ حالِه، تحيطُه الكُثبان الرَّمليَّة التي تسفح الريح بها دارهم كلّما هبَّت مزمجِرة في غضب، سفحت ذات مرّة عيني "جاسر" الذي استبدّ به العطش ودارت الشمس برأسِه فاستبدّت به جمَرات الرغبة حين سقته مايسة من كوزِها المعدِني الماء بينما جسدها يميد في أفُقِه كأنّها حيّةٌ تتلوّى في ميوعةٍ ودلال، لم تزل عيناه مُصلتة عليها، حتى دعاه "هرّاس" زوجها القعيد لشرب الشَّاي معهُ حين علِم مَن يكون، ومن يومِها صار ضيفًا لصيقًا يظعنُ ويُقيم كأنَّه صاحب الدار.

وشى أحدُهم لعمّه "سليم" بسهرات "جاسِر" لديهم في أمسياتٍ غير قليلة فاستشاط غضبهُ وزادت نِقمتهُ ..

لم يكن "سليم" مبرأ مِن كلّ عيب ولم تكُن العائِلة أقلّ ولعًا بالنّساء مِنهُ، لعلّ "جاسرًا" الذي رفَلَ في النّعيم منذ نعومة أظفاره واتّقد جسدهُ بنار النزق والشهوة استجابةً لنزق الشباب وبواعثهُ أقلّ عُذراً مِنهُم، فنشأتُه في الثراء والجاه وكونهُ لم يزل عزبًا ربما يمنحانِه المُبرِّر للانزلاق وراء تُرّهات وطيش الشباب والخضوع لإغراءِ أُنثى تحاول الإيقاع بفتى العزّ المُدّلل ابن الأسرة الثرية المُهيمِنة، وعدم خوفِه مِن ردع زوج أو غائِلة انتقام قد يُحسبُ حِسابَهُ ألف مرّة، ربّما سوَّل له غروره ذلك وأكثر، مع تحرّيه في علاقاتِه الغرامية اختيار نسوة لا يأبه أزواجهُنّ كثيرًا لمسألة الشرف والحميّة، ربَّما يغضّون الطرف ولا يشعِلون الحرائق ويسيلون الدماء من أجل أمرٍ ثانويّ لدى بعضِهم ربما يعتبرونهُ كذلك؟

ألم تكن "مايسة" زوجة "هرّاس" إحداهُنّ ممن تنطبِقُ عليها شروط غرامياتِه، فأهلها لا يعبئون لمسلكِها ولا تقتلهم الغيرة بشأنها بينما هرّاس فقيرٌ مشلول يلزمُ حجرةً داخِليةً حقيرة غدا حبيسًا فيها للمرض والتصامُم ربّما اللامُبالاة وعدم الاكتراث مِن تردُّد ابن الأكرمين الأجاويد عليهم يسأل عن أحوالِهم ويعينهم بما فاضت به يده السخيّة.

هل كان يغُطُّ في سُباتِه بعدها مِن جرّاء مرضهِ وعجزِه أم يستدعي النّوم وغيبة الذهن حتى يُريح آخر رمقٍ من ضمير لازال ينغِّص عليه أيامه المتشابِهة عجزًا وفقرًا وكدرًا وهوانًا وقلّة حيلة، ربما لو كان كما مضى من سابِق عهدِه متمتِّعًا بصِحَّته وقوّتِه لكان له شأنٌ آخر، وأيّ شأنٍ يصلُح مع جبابِرةٍ كهؤلاء يهيمنون على الجبل وسيادته يفرضون سطوتهم فرضًا مع عطاياهُم، ربما كان يعزّي نفسه ويستدعي لها الذرائِع والمبررات عن تغاضيه

المُشين فينفض عن كاهلِهِ تبِعة الخنوع والاستسلام لدياثتِه برضا منه وزوجه دون إكراه أو غصب.

ولو أراد أنْ يدفع عن شرفه حقاً ويذود عن حرماته ويردّ نزق "جاسر" لأوصل للشيخ الكبير أو لأحد أعمامه شكواه، فدرءوا عنهم الأذى ولم يقبلوا أنْ تُلوّث شرف العائلة على هذا المنحى ولا أنْ يشيع عنهم الاستسلام لشهواتِهم جيلاً بعد جيل أو أنْ يوسموا بقهرِ من يكتنفونهم وإذلالِهم وأنّهم حكموا الناس بالخسف

لا المحبّة والهيبة العادِلة... هل كان يتداعى اللغط في عقل هرّاس ثمّ يستسلم بعده لنومٍ عميقٍ يغُطّ فيه غير آبِهٍ لما يدور حوله من حوادِث!!!

***

وقف "سليم" في مجلس العائِلة في بهو القصر الكبير فيما يشبِه المحاكمة تمثَّل فيها القاضي الشيخ "محمود" بجلاله وهيبتِه و"نصر" و"سعيد" كأنّهما المحلفين بينما يقف "جاسِر" في ركنٍ أيمن مستنِداً بظهره للجدار في قلقٍ وترقُّب كالمُدّعى الذي ينتظِر الإنصاف والحكم له أو عليه.

يهتِف "سليم" في أدبٍ وتواضع بينما يُطرِق بعينيه في الأرض:

أوامِرك يا أبي وشيخي... يردّ الشيخ في عنفوان وحدّة اصطبغت بها كلماته:

لماذا تؤجِّل زواج الأولاد –يعني "جاسر" و"نادية"– بعد أنْ باركت أنا بنفسي هذه الزيجة بل وسعيت لإتمامها، يسترسِل وقد اكتست نبراتهُ بقسوة الغضب:

أتريدُ أنْ تعصاني أم ظننت أنّي قد هرِمت فسولت لك نفسك مخالفة رأيي.

يردُّ "سليم" وقد غمرهُ سكون الاستسلام وهو يهز رأسه يمنةً ويُسرةً:

حاشا لله يا والدي، يعلم الله أني لم ولن أعصى لك أمراً بل طلباتُك تنفذُ ولو على رقبتي أو على رقبةِ عيّلٍ مِن عيالي.

يجيبهُ الشيخ وقد هدأت حدّتهُ قليلًا:

كفاك مداهنة وكلام معسول لا يقدّم أو يؤخِّر خبِرتهُ من نشأتك في البنادِر، يبتسِم "سليم" بينما قسماتُ وجهه تتداعى بين التردد والحزم وهو يقول:

ولكن "جاسر"... "جاسر"... فيقاطعه الشيخ:

ما يريبك من "جاسر" أليس ابن أخيك الأكبر سناً ومقاماً وربيب بيتي وتربية يدى .

فيردّ سليم: أعلم كلّ هذا يا شيخنا وأعتبره فوق هذا بمنزلة ولدى وأكثر... ولكن!!! يتدخّل "سعيد" متبرِّمًا يتملكه الضيق من موجة التردُد الصلد الذي يتسلل لحديث أخيه بين الفينة والأُخرى وكأَنَّهُ يختلق المُبرّرات للتحلُّل مِن وعوده أو إرجائِها وكأَنُّه يخصُّ والدهُ بالحديث دون غيره بينما نصر في جلبابه الرثّ وهيئتِه المُهملة جالسٌ لا يحرِّك ساكِنًا ولا ينبس ببنت شفة وكأنَّ الأمر برمّتِه لا يعنيه غاية ما يفعلهُ أن يلتفِت لكل متحدِّث هنيهة فيؤمِّن على كلامِه بإيماءةٍ من رأسه أو يطرِق ببصره في الأرض:

أعلم يا والدي عن "جاسر" أمورًا غير محمودة لا ترضيك ولا تُرضي أحداً منَّا وأرى أنَّ نزقه واندفاعهُ مرجعه لطيش ورعونة بقائه أعزبًا حتى الآن وغياب الحاج سلطان فرّج الله همّه عن دقّة متابعته، ولذلك أرجوك أنْ تأمُر سليم بتحديد موعد للزفاف ووضع حدٍّ لمماطلته ...

يهز الشيخ رأسهُ بينما ينحنى وهو جالس متكئاً على عصاه عاقداً بكلتا يديه أصابعه على ناصيتها – يرتكز على هذا كله بذقنه وأعلى رقبته – يُطرِق

الجميع بينما يجيل الشيخ محمود نظره في أبنائِه وحفيده ينتظرون ردَّه الذي تأخرّ قليلاً ثم نزل قاطِعًا كمطرٍ ينهمِر صار واقعًا حتميًّا لا يقبل الجدل أو المراجعة كماء السماء حين يهطل لا تستطيع الأرض له دفعاً ولا تملِك سوى تقبُّله في إذعان محتضنة إياه بين حناياها وشغافها :

زواج "جاسِر" و"نادية" ثاني أيّام عيد الأضحى بعد زيارتكم لـ"سلطان" في السجن العمومي بقنا اليوم الأول واستئذانِه .

يُذعن "سليم" في ضجرٍ يجاهِد ألَّا يبدو لكنه يبدي اعتراضًا من جهة أخرى فيقول:

أمرك يا أبي ولكن هل تكفي ثلاثون يومًا لتجهيز زفاف حفيدي سيّد الجبل؟

يردّ الشيخ في حزم بينما ينهض واقفًا: انتهى الأمر، وأسبوع واحِد لو شِئنا، تبقى موافقة كبيركم الحاج "سلطان" في زيارة العيد.

يردّ "نصر" أخيرًا وكأنّه مخمور استفاق بعد غيبوبة حين أراد اللحاق بركب الحديث:

وهل يردّ لك الشيخ "سلطان" أمرًا يأبتِ، يرد الشيخ كَمَن فُوْجِئَ بوجوده بينهم:

لابدَّ من إعلامِه بزواج وحيدِه، ربما تكون فرصة مناسبة لارتدائِك ملبسًا جديدًا مهندمًا يصلح لمن في مثل مكانتك ومكانة أهلك، وقد اكتسبت لهجته لكنة سخريةٍ واضِحة لم تظهر آثارها على وجهه، يخفِض "نصر" بَصَرَهُ إلى الأرض احترامًا لنقد والده الذي يشيح بيده ثم يغادِر مغمغِمًا في غضب، متكئًا على عصاه الغليظة التي هي إحدى موروثات أبيه التي لا تبارح كفّه

تتطاير في يده كريشة في الهواء بينما هي في الواقع من فرط ثقلها لا يقوى على حملها الشخص سوى بيديه الاثنتين.

كان "نصر" لا يعتني بملبسه ولا أسلوب حياته، وربّما جالَس الصعاليك وسامر المُعدمين في الطرقات دون أن يعتريه كبرٌ أو خُيلاء، فمنذ صغره عازفٌ عن البهرجة والتعالى زاهِد في الترف ومظاهره رغم امتلاكِه عن أبيه ثروة لا يكاد ينفق منها ويرضى بالكفاف لا عن بخلٍ وحب لاكتناز المال، بل لكونه من الشَّخصيَّات التي تقنع بالقليل ولا تشتهى زينةً ولا جاه، فهو يحب أنْ يحيا البساطة بطبيعةٍ تلقائيَّة لا يتميّز فيها عمن سواه ومع هذا فهو ماهرٌ في إدارة شئون ممتلكاته وأعماله، وربَّما لا ينتهج هذا المسلك مع زوجِه وأولاده إلا قليلًا، قد يكون ما عاينه في شرخ شبابه من انهيار الأسرة سبب في ذلك أو عن زهدٍ وترْك أودِع فيه منذ ولِد...

انفضّ المجلس ولم يبقَ فيه سوى "جاسر" و"سعيد"، يخاطب "سعيد" ابن أخيه قائلًا في حنقٍ ظاهري باطنهُ الود والنصح والمحبّة:

آن الأوان أن تتخلّص من عاداتك السيئة التي غاليت فيها وتماديت لم تعبأ بمكانتك ولا قدْر عائلتك و من مستنقع لبركة تخوض وتتوحّل كضفدعٍ.

يجلس "جاسر" بجوار عمه الذي يتخذه صديقاً وخِلاً وقد مدّ رجليه واستند بظهره للمُتكأ الذي يستند على الجِدار وأمال رأسه للخلف في استرخاء مُغمض الأجفان قد شبك أصابع يديه خلف رأسه واضعًا راحتيه بجانبي رأسه من الخلف تمنعه من تمام الانثناء، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة: الحمد لله يا عمّاه أنْ انتزع جدّى من سليم موعد زفافى بعد أنْ بالغ في التسويف والتأجيل واختلاق الأعذار .

يردّ "سعيد" وقد بدا عليه الارتياح وكأنّ همًّا ثقيلًا قد انزاح من صدره: قليلٌ من كثير نقدّمه لأخينا وشيخنا "سلطان" فك الله عنه كربه، يسترسل معاتِبًا "جاسر":

من أعمالك يا روميو... يقهقهان في سعادة وتصطك أكُفّهما في مرح علامة على الظفر والانتصار، في إسهاب العم المُقَرّب المخلص: في العيد ينتهي تاريخ عبئك، وتصبح إنسانًا جديدًا، يردّ "جاسر" في العيد يا عمّي حين أُزفّ على نادية ستنتهي آلامي وسأُبعث مِن جديد شخصًا آخر يرضى عنه الجميع.

يردّ "سعيد" مُرتابًا في ابن أخيه المتهوِّر: ربنا يسمع منك...

يستطرِد "جاسر" دون أن يعلّق على قول عمّه كأنْ لم يصل أذنيه ما قالهُ أو ربما أراد أن لا يعكِّر صفو سعادته الليلة أيّة ظنون كالطائِر الذي يجدُ عشًّا خاوياً يأوى إليه ليرتاح لا يفكّر فيما يزعجه من عودة صاحب العُشّ الذي قد تنشب بينه وبينه عراك، فقط لا يلقي بالًا لما هو آتٍ وينتشي بما ظفر به اليوم.

يكفي أنْ أصبح لك مجاورًا وأسكن في الطابق الذي يعلو شقتك وشقة عمي نصر الطيب، ينتبه فجأة كمن خطر في باله خاطرٌ يبحث عن إجابةٍ لسؤال فيه:

ولكن لماذا يصرُّ جدّي أنْ أغادر القصر وطابقهُ الذي ولدت وتربيتُ فيه وأتزوج في العمارة معكم؟

يجيبه سعيد وقد همّ بالنهوض:

ربما يريد أنْ يجمعنا نحن جيل الشباب في مبنىً واحد فيوطِّد بيننا الأواصر، ويدع القصر وطوابقه وما حوت من ذكرياتٍ حلوة ومُرّة مطويّة فيه، حين كان يقطنها أبوك وعمّك الكبير "عبد الماجد"...

يردّ "جاسِر" في حزن وتحسُّر وهو ينظر في عيني عمّه: ربنا يسامحه فيما جنى علينا جميعًا... يهدئ عمه "سعيدًا" من ألمه وذكرياته الحزينة وكأنهما جُرّا جرّاً لبؤرة حزنٍ كامنةٍ في النفوس أبيا إلا أنْ ينكئاها بعد أنْ كانا يُحاذرا المساس بها...

حين تقافز لذهن "جاسر" أنْ انتصارهُ اليوم وبلوغه مراده مشوب بلواعِج الحزن والأسى حين يُقام عرسه ووالده خلف أسوارٍ عاليةٍ، ربما لا يبعُد كثيرًا، ولكنه يقاسي الوحْدة والقهر والألم، وكأنّه يتيم على حياة والده الذي كان مِلء السمع والبصر وكاد يبلغُ مبلغًا عظيمًا يفوق فيه السابقين لولا لحظة من رعونةٍ وطيش.

يمازحه "سعيد" ينسيه ما اعتراه فجأة قائِلًا: هوِّن عليك يادون جوان لا تضع فرحتك واملأ بها قلب والدتك، ثمّ ينصرفان...

يخرج "سعيد" ليصعد لشقته يصيب جزءًا من راحة بعد يومٍ مكدّس بالعناء والتباريح، بينما يرتقي "جاسر" السلّم الداخلي الذي يفضي للطابق العلويّ في نهاية الدّهليز حيث مسكنه وأمّهُ، يجاهِد أنْ يُخفي سحابة الحزن البادية على وجهه وأضرمت نارها في خلَجات صدرِه، مُخاطِباً نفسهُ: يكفي ما تجرَّعت من مرار حين عانت الفقْد بصبرٍ وثبات وهي لم تزل شابّة يافعةً جميلةً، وكُتِب عليها الترمُّل وزوجها لم يزل حيًّا، كاد يمسَّ بأنامله النجوم، ويحلِّق في العلياء، فإذا بِهِ يهوى في قعر جُبٍّ سحيق ليس لهُ قرار وتهوى معه آلامها وسعادتها ومُستقبل وحيدها.

لم تكُن تخلُد للنوم قبيل وصوله والاطمئنان عليه وإن كان أوانه ساعتها لمّا يحن بعد...

فتح الباب العالي الموصد فوجدها تجلس قُبالته على كنبةٍ في البهو الخارجي للصالة المؤلفة من قسمين الخارجيّ مجموعة كنب ملتصقة بالحائِط موضع جلستها الأثيرة تحيط بمنضدة منخفضة مستطيلة عليها مفرشٌ شبكيّ من طرازٍ عفا عليه الزمن وخوانٌ قديم عليه فاز زهريّ نفيس خالٍ مِن الورود ملتصقٍ بالجِدار، والداخليّ عبارة عن صالون مُذهّب كراسيه فخمة ضخمة مِن طراز كلاسيكي أعلى جداره الأماميّ برواز فخم كبير يحيط بصورة الحاج "سلطان" في شرخ شبابه، يجاوره بروازٌ صغير لصورة "جاسر" فوق أحد المراكب الشراعية في النيل، ربما كانت صورة "جاسر" هو التغيير الوحيد في الطابق الذي لم يتغير فيه شيء منذ فارقهُ صاحِبه ولم يعُد مهيئًا لاستقبال زائِر، يفصل بينهما آرج تعلوه ستارة شفافة ينتشر في عرصاتها ورود مذهّبة مؤطرة حافتيها العلوية والسفلي بوشي مُذَهّب يبدو عليها البلى وآثار الذكريات.

قد اكتنز جسدها فأصبح يميل للبدانة من دوام المُكث في موضِعها لا تفارقه ولو لساحة القصر للتنزُّه وتليين مفاصلها التي تيبّست بفعل قِلّة الحركة، تُغلِّف نفسها بِرداء أسود لا يتبدّل لونُه، تجاورها صينية من نحاس أصفر تحوى شُعلة الكحول النحاسية الصغيرة العتيقة ذات القوائِم التي تقبع فوقها كنكة بُنْ صغيرة تفور فتتأرجح لتعاجلها السيّدة بالتقاطها قبل أنْ ينسال وجهها على الشعلة فتفقد أجمل ما يميّزها كعروس جميلةٍ الجسد والتقاطيع لطّخَت وجهها أصباغ متنافِرة.

تُفرِغُ ما نضج منها في فنجانين صغيرين في ساحة الصينية كسائِلَين ينتظران العطاء، بينما تجلِس على شلتةٍ صغيرة محشوة قُطناً فوق السجادة العجمية فاطمة النوبية فصارت الشلتة والسجَّادة سواء تحت مقعدتها

الضخمة، تستند بذراعها الأيمن على الكنبة في مواجهة والدته، وفاطِمة هذه هي خادمة زرارية سوداء من أصلٍ نوبيّ طاعِنة في السنّ والسِمنة والبركة ترتدي السواد أيضًا بينما تشدُّ على ناصيتها بطرحتها السّوداء التي تعقدها مِن خلف الرأس، وهي أرملةٌ فقيرة لم تُنجِب تؤنِس وحدتها وتقوم على خدمتها منذ زواجها قدر استطاعتها، أصبحت جزءًا أصيلًا من حياتها وفردًا من العائِلة لا يمتّ لها بِصِلة ورفيقتها في دنياها المتناهية الصّغِر التي صار "جاسر" فيها كلّ ما تبقّى لها.

دخل "جاسر" يغلفه صمتٌ عني خِلاله استبدال الوجوم والأسَف الذي تسلّل إليه حين طرقت ذهنه ذكرى أبيه الغائِب المُغيَّب، فارتدى قناعًا مِن بهجةٍ مُصْطنع وهو يقبِّل جبينها هاتِفًا:

أمِّي يأعزّ الناس عندي لك خبر طالما انتظرتهِ طويلًا.

يتبدّل الحزن في وجهها الصامت فيستحيل ابتسامةً كبيرة تفترش جنباته فيضيء وجهها الوضيء مليح التقاطيع وكأنَّ شمسه تُشرِق فتُبدِّدُ ظلماته وما ألمَّ به من مخاوِف فتنقشع الظُلمة في مواجهة الضياء، تتوجّهُ بكلّيتها تِجاههُ وهي جالِسة فتطوّقْهُ بذراعيها وتلثُم خدَّهُ المتورِّد بحُمْرةِ السعادة قائِلة في تهلُّل:

ألف بركة ياحبيبي، بينما عيناها تذرِفان دمعًا نضب بريقه من فرط ما انهمر، تدَّعى أنَّهُ دمعُ الفرح بينما هو في الواقِع حُزنًا على غياب منْ كان اليوم لوجودِه ألف معنى، بينما تُطلِق العجوز زغاريدِها الجنوبية المُتَقطِّعة ودعواتها بصوتٍ جهوريّ أن يتمّ الله له على خيرٍ وبركة قائِلة: ربنا يبارِك لك يابن كبيرنا ويفرّحك بعروسك ونسل نسلك ويغالِبها البكاء هي الأخرى...

يستفيض في قصّ أحداث جلسة المساء مع جدّه وأعمامِه، بينما تحملِق في وجهِه وهو يحكي تسترجِع صورة والده وهو يتكلّم حين كان لا يردّه رادّ، اليوم صار "جاسِر" رجلًا وعريسًا لكم كنت أودُّ أنْ يشهد "سلطان" هذه الليلة ولا يتركك في مواجهة عمّك سيّد الثعلب وحدك، في حوارٍ داخِليّ صامت مع النفس كان حديثها، لم يعُد قلبها يسعُ سواه ولم تكُن تراه غير طفلها الجميل البريء رُغْم نزَقهُ واستهتاره، لم تكُن توجّه لهُ أدنى درجات اللوم حين يصل مسامعها بعضٌ مِن أخباره، فلسانها لا يُطاوعها أنْ تُريق حيائهُ أمامها أو تُكلِّله بخزى الانكسار، فتجرحهُ حين يضطر للاعتذار أو التواري خجلًا ربَّما الإنكار، فهو عندها غير قابل للخطأ فضلاً عن اللوم والتقريع قد تُكذِّب فيه عينيها وتصدِّقه.

حكى لها "جاسر" ما حدث بتفصيلاتِه بينما لا يتوانى لسانها يتمتِم في خشوع بدعواتٍ صالحات، بينما وجهها الأبيض المشوب بالنمش في جمالهِ السَّابق يكاد يتطابقُ مع تفصيلات وجه "جاسِر" وكأنّهما وجهٌ واحد أعطى تفاصيلهُ لمخلوقين ذكرٌ وأنثى، بيد أنَّ عوامل الزمن قد أودعَت في وجهها رتوشه في انكماش خلف زاوية العينين وتغضُّنٍ مع بعض التورُّم أسفلهما وتجاعيد في الوجنتين والجبين وترهُّلٍ في الخدين قد أصابهُ فيما أصاب الجسد كلَّهُ بعد أنْ غزتهُ الأمراض والسِمنة والعِلل، وبدا الشيب في خصلاتٍ متواريةٍ في خجل أسفل غِطاء رأسها، لم يكن الزمن وحده هو من امتد بريشتِه لوجهِها، فقد كان لتكالُبِ الهموم والأحزان الأثر الغالِب في منحها هِرماً يفوق سنها الذي تخطَّى الأربعين بقليل.

***

لم يكن "سليم" راضيًا عن الجلسة كلَّ الرِّضا وإن كان لا يملِك في أمر والدِه رداً ولا تعقيباً ولا نكوصًا، فقط رُضوخٌ تام واستسلامٌ كامِل للمشيئةِ الأبوية الظفَّاريةِ الراسِخة...

بيد أنَّ ألَمًا استبدَّ بهِ وشعورٌ بالقهر لا من والده الذي كان الكل يذعنون لأمرِه في رضا نفسيّ وإن بدر منهم ما يغاير مكنون ذواتِهم فهو في النهاية الشيخ الكبير ورأس العائِلة وسرُّ قوّتِها ولهُ عقلٌ راجِحٌ ونظرة ثاقِبة في دقائِق الأمور، يستبين هذا من مردود آرائِه وحكمته حين تؤتي رؤاه ثمارها ويُطأطىء المتذمِّر رأسهُ إذعاناً بأنّ ما أمر به الشيخ وأصرَّ على نفاذه هو عينُ الصواب الذي فيه خيرُ الجميع ولو على طويلِ المدى.

يعلم في قرارة نفسِه أنَّه لا يوجد من هو أجدر مِن "جاسر" حريٌّ بمصاهرتِه، ولكنها الحمية والتعصُّب التي جعلته ينصاع لرغبةِ والِدهِ وكأنَّه يستجيبُ لها مُرغمًا، فقد تمثَّل في ذاتِه أنَّ استجابتهُ لأبيه الذي فرض عليه موعد الزِفاف فرضاً لم تكُن في النهاية سوى فرض لرغبة "جاسر" و"سعيد" وإنفاذاً لمُرادِهما الذي لم يكُن يعيره انتباهًا لولا تدخُّل أبيه.

أهكذا يا أبي دائمًا أجدُني مرغمًا على أمور طاعةً وخضوعاً لمشيئتِك؟ من المدينة للجبل ومن البُعد للقُربى، حتى في أمر زواج بكريتي لهذا المتهوِّر الطائِش، حين كان يتحرّى لفت نظرها عامِداً يوقِعها في براثِنِه، يشغلها بحديثِه إذا اجتمعت الأسرة في مناسبةٍ أو عيد، وحين استوقفها في دِهليز القصر الكبير أوان حفل زواج "سعيد" منذ عامين وأخذ يجترّ حديثها اجترارًا ويستطيلُه رغبة في استبقائِها، ويصطنُع الظُرف في كلماتِهِ التافِهة بينما يُحدِّق في عينيها، ويشغلها بجمالِهِ ووسامتِه ويفتِنها بشبابِه ومعسول حديثِه الذي تعجب له الفتيات.

يبرُقُ في عينيه الغيظ حين تبرُز أمامه هذه الذكرى، كاد يفتِك بهِ لا يراعي للدم حُرْمه، لولا تدخُّل "سعيد" الذي استدعاهُ "نصر" مِن جِلسته بجوار عروسِه، ليفُضّ عِراكًا كاد ينشُب بين الولد وعمّه، ووأدًا لبذرةِ شِقاقٍ قبل أنْ تنمو فتزيد شقاء العائِلة وانقسامها، حين أخبره برغبة الشيخ الكبير في تزويج حفيديه وما أبداهُ "جاسِر" مِن تودُّد لـ"نادية" لم يكُن غير تسرُّعٍ واندفاع لم يكُن له داعٍ قبل أوانه، هدّد "جاسِرًا" وأنذره بسوء العاقِبة إن تكرّرت فعلته، ولم يستجِب لموضوع الخِطبة إلا بعد أنْ طلبها مِنهُ الشيخ بنفسِه...

لا غرو يأبتِ، فالولدُ سرُّ جدّه وما "جاسِر" إلا برعم نبت في حديقتِك الوارفة فلا غرو أنْ يولع بالنساء كجدِّه الذي هام به عشقُهُ فهوى عبثَتْ الذكريات بعقلِه فأزّقتهُ!

ساقتهُ قدماهُ لسهرة الجبل التي تُقام كلَّ ليلة في كوخٍ صغيرٍ من البوص كان يبيت فيه تجّار البلح أوان موسِمه بجوار بضاعتهم التي ينشرونها تحت أشعة الشمس لتجفِيفها أدنى سفحهِ، حين كان بنو عمومتِه ينفثون الدخان الأزرق المنبعِث من نرجيلةٍ مغموسٌ تبغُها في الحشيش الذي عبث برأسِه التي لم تعتدهُ سوى في مناسباتٍ قليلة فأثقلها، لكن طقس السهرةِ وشيء مِن ضجرٍ وملالةٍ جعلاهُ يستسلم لإلحاح كسَّاب ابن عمّه الذي كان يمضغُ الأفيون مضغاً وكأنَّهُ يلوكُ قطعةً مِن الحلوى!

استشعرَ أنَّهُ إنسان آخر غمرتهُ سعادةٌ غير مُبرّرَة وضحكٍ هيستيريّ دون داع، ثمَّ تداعت عليهِ ذكريات حزينةٍ كأنَّ جبلاً مِن الأسى قد انهارَ فوق رأسِهِ فجأة.

دخل "سليم" منزلهُ قد انتاب رأسهُ دوار جعله بالكاد يسيطِر على خطاه التي كان يستشعر أنَّهُ يطأ بها في أرضٍ رخوةٍ تكاد تتباعد وتقترب فيغلبه

الترنُّح ويغالِبُ بجسده الفارع السقوط، كان الجميع يغُطّون في سُباتٍ عميق، غطَّى شخير امرأتهُ على سكون المنزل بينما يتسرّب ضوءٌ خافت من عقِبِ باب حجرة ابنتِه وهمهماتٌ خافِتة كأنَّها مُناجاة أمِنت الافتضاح في غمرة السكون يغطِّيها صوت غناء رخيم لا تُخطئهُ أُذُن لمطرب شبابيّ رقيع لم يدرِك اسمه، فتح الحجرة دون استئذان بينما "نادية" التي انتفضت فزِعة وكأنَّ شيطانًا طرق بابها، كانت مُستلقيةً في سريرها دون غطاء ترتدي جِلبابها المنزليّ تهاتِف "جاسِرًا" يهديها البُشْرَى بقرب زفافهما مغلَّفة بكلمات حبٍ يجيدُها مع الأخبار السَّعِيْدَةِ النَّاجِزة، فاستبدّ به الانفعالُ حين سألها في حدّة: لازِلتِ سهرانة حتَّى هذا الوقت المتأخِّر كعشاق آخر الليل؟!

بينما "نادية" تبرُق في عينيها الدهشة والخوف وكأنَّها جُمِدت في مكانِها فيسترسِل في تهكُّم:

لعلّكِ تسامرين عريس الغفلة... سقط الهاتف النقَّال من يدِها بجوارِها في وجل دون أنْ تغلقه حين رأت الشرر يقدحُ من عيني أبيها، غابت من شفتيها الحروف فعجزت عن الإجابة المنطقية في هذا الأوان: أليس خطيبها وابن عمّها وزوج الأيام القادِمة؟

وكأنّه يجهل هذه الحقائِق أو كأنَّها جديدةٌ عليه متسائِلًا وكأنَّ جمرة غضبٍ اتَّقَدت في جنباتِه فاستعر أوارها في وجنته التي احمرَّت، وعيناه الخضراوان التي استحال بياضهما حمرة قانية: ألم أنهكِ عن السهر ومهاتفة أي إنسان في هذا التوقيت تحديدًا؟

وكأنَّه مغمورٌ لَمَّا يفِق بعد وكأنَّ وساوس الشيطان وأهازيجهُ اضطربت في عقلِه، فاصطدمت وتعاركت في صخَب فدفعتهُ دفعًا دون أنْ يدري أنْ يهوي بالكاسيت فوق رأسِها فيسيل دم بين مفرِقها يتسلل بين جدائِل شعرها

الفاحِم ويستحيل خطاً قانياً متعرِّجاً يتلوى فوق جبينِها، ويتوقَّف الكاسيت عن شدوِه للأبد ويسقط مكسورًا بعد اصطدامه برأس الفتاة الموشِكة على العُرس بقوةٍ وانفعال غير مُبرَّرين... شعورٌ مباغِت من عذاب الضمير انتاب سليماً حين رأى دم ابنته، التي لم تذرِف عينيها دمعة واحِدة وهي البكائة دون أدنى سبب أو لأهوَن الأسباب ينساب على جبينِها، تنظر إليه ذاهِلة ربَّما مُعترِضة، يلتمِعُ في عينيها بريق الدمع دون أن يهطُل وتتسع في استِدارة من فرط الدهشة والألم الذي أضفى عليها جمالاً آخر ربَّما حزينٌ مُنْكسِر!

أخذت تنظُرُ إليه واجِمة لا تنْبس بكلِمة، تبدَّلت نظراتهُ الغضوبة نظراتٍ آسية متوارية لا تجدُ مبرِّرًا لتلك الحماقة وهذا الانفعال، بينما تمنحهُ نظرة لومٍ وعُتبٍ مشوبة بكراهيةٍ آنيةٍ ليست مستديمة، فهي لم تكره أباها رغم قسوته واستِجدائها حديثهُ دائِماً، كأنَّها غريبة عنه بعد سنواتٍ مِن الجفوة عند أخواهِا طِفلة!

استدعى فرط ألمها زفرات من أعماقها تنطِلق بالآهة مع دموعها التي انهمرت بعد جفافٍ طال لدقائِق ذاهِلة.

لم يتبادلا العُتب أو الكلمات، ربما دفع سليم لهذا الُحمق موقِفهُ السخيف الذي كان فيه منذ سويعات كالفأر في المصيدة أو الظبي بين فك أسدٍ ضارى حين قهره حزمُ والُده دون أن يملِك حق تعديل الموعد الذي حدَّده لهما، وأثر الدخان الذي تسلَّل لحنايا مخهِ وأثَّر في سلوكهِ وتصرُّفه كأنَّ ماردًا جبَّارًا قد تسلَّط على عقله أفقدهُ القدرة على السيطرة على انفعالاتِه وضبطها.

تسلّل لأذن "جاسِر" عبر الهاتِف الذي لم يُغلَق ما أهمَّهُ وكدَّر عليه صفو فرحته وكأنَّ قوى الشرّ اتفقت مجتمِعة على تنغيص فرحتِه وسلبِ بهائِها،

أحزنهُ ما ألم بـ"نادية" حتَّى كاد يفقِد صوابهُ وأن يكون السبب فيما جرى لها؟!!

جمعتهما مرارة الفقد فهي على اليُتم تَربَّت وهو على درب الحرمان سار حين وجد أباه الحاضر أبدًا في الذاكرة والحكايات والفخر مغيّبًا مدى الدهر وكأَنَّهُ رجُل الأساطير الذي قدُمَ مِن زمنٍ بعيد ثم طوته الغياهِب بعد أن غمر الجبل فخرًا وسؤددًا، شيءٌ من الحب وكثير من الحرمان ألّفا قلبيهما معًا...

استدعى مُسرعًا الطبيب الذي أسعف الدم المنهمر من رأسِها بإحدى عشرة غرزةً جراحية وهي جالِسة تحت مخدِّر موضعيّ، لم يقبل أنْ تستلقي ابنته أمام إنسان ولو كان الطبيب الذي قدُم إنقاذاً لحياتِها، رفض طلب الطبيب بعصبية وزمجرة وكأَنَّه يطلُبُ شططاً، بينما تعلّل كاذِباً للطبيب وغيرِه أنَّهُ فقد صوابهُ حين أهملت إغلاق باب الحظيرة الخلفيّة ممَّا عرَّض خروف (الفَدو) - وهو خروف جسيم عظيم علفه الشيخ سليم وسمنهُ للنحر صبيحة الأضحى ونذرهُ لذلك – للقتل حين فرَّ من الحظيرة هارِبًا فصدمته سيّارةٌ مسرِعة بينما يجتاز الطريق!

كانت أكذوبة مُفتعلة اختلقها وحاك تفاصيلها خشية الافتضاح فما المبرر لشج رأس عروسه قبيل زفافها سوى أن تكون مصيبةً كبرى، لم تُفصِح نادية أيضاً عن السبب الحقيقي ولم تكفّ عن البكاء في حضرة الطبيب الذي لم تنطلي الأكذوبة عليه، فلاذ بالصَّمت في هذا الجو المُلبّد الغامِض في مشهدٍ غاب عنه زوجة أبيها وإخوتها غير الأشقّاء.

سُرعان ما اندملت جِراح رأسها بينما في النفس جِراحٌ لا تندمِل رغم حرص الشيخ "سليم" على استرضائها، ربما تداويها الأيام بترياق النسيان أو تغمرها الأحداث فتقبع في قاع النفس في ركنٍ قصيّ لا تخرُج منه إلَّا حين

تُستدعى أو تهدهدها أحزانٌ أخرى تستثيرها فتغوص تستخرج ماحوت الذات من ذكريات.

انشغلت العروس بتجهيزات عُرسها وانشغل "سليم" بانتقاء أفخم وأفخر الأثاث والثياب والتجهيزات لها، فهي رغم كل قسوته وما عانته من صدِّه ابنتهُ البِكريّة وفرحتهُ الأولى وأوّل مَن ستحمل بين أحشائِها أحفادًا ينصِّبونهُ جدًّا وإنْ حملوا اسم "سلطان" ولم يحملوا اسمه يكفي أن تُكلّل أسماؤهم بلقب "أبو ظفَّار"!

العيد

صبيحة العيد والضوء يغمُرُ المكان وينتشرمع صدى طنين التكبير، يملأ نسمات الجبل صحوةً وبركة وكأنَّ الكون يُبعثُ مِنْ جديد في بهجةٍ خالِصة، عاد سعيد ونصروجاسِر مِن المسجِد بعد فراغهم من الصلاة، وكأنَّ اليومَ اكتسى رداءً صفا كدرُه وانبلَجَ في وجوه الصغار الذين تزينوا في أرديةٍ جديدة وكأنَّهم بهجة العيد وجمالهُ وألَقهُ، بدا في فرحتِهم عند شِراء الحلوى وتكالبِهِم على لُعَبٍ اشترَوها، يبتهجون غاية الابتهاج ويسعدون بأقلّ المُتع المُتاحة في هذا المكان البعيد.

وأقبل "عبد الماجد" و"سليم" من منزليهما فيمن أقبل من وفود مِن كبار رءوس العائلةِ والأعمام وكبار بيوتات الحاجِر لتهنئة الشيخ بالعيد، وآداء طقوسٍ أصيلة لم تتغيّر مِنْ عهد الشيخ الكبير، لم يكُن عبد الماجِد مُرحّبًا بِحضورهِ لكنها سُنةٌ أشبه بفرض حتَّمت عليه التواجُد في المُناسبات والأعياد حتى لا يثير غيابه ألسنةً راكِدة قد خمَدَت ودرأ للقيل والقال واستِكمالاً للشكل الأُسريّ الذي كان قد تفتَّت فلا يبدو مُتهالِكًا.

وأقبل الأولاد كما يحلو للشيخ "محمود" أنْ يدعوَهُم، وإنْ خُطَّت شوارِبَهُم أو بدرت بوادِر اكتمال الأنوثةِ لدى إحداهُن فتدثَّرت في خِمار وأخْفَت جدائِلها في طيّاتِه.

كان اجتماعهم معًا يحقّق معنىً خاصًّا في نفسِه، بعد فُرقةِ الآباء... لعلَّهُ أمل أن ينبُت بينهم منْ يُعيدُ المجد الظفّاريّ التليد ويُعيدُ للجبلِ هيبَتهُ الآخِذة في التداعي.

أقبل أبناء نصر- الذي ارتدى جلبابًا أبيضَ جديدًا - على غير عادتِه بصحبتِهِ "محمود" الذي لم يتجاوز العاشِرة و"سكينة" ذات السبعة أعوام و"حامد" الذي مازال يتعثَّر في ملابِسهِ الفضفاضة وعامهُ الرَّابع، في الزّيّ الجديد يدفعُهم أبوهم دفعًا للقدوم على جدّهم وتقبيل يده ونيل منحة العيد، كانت هيبة الجَدّ وجلاله تجعله في معزَلٍ عن أحفادِه وكأنَّ غلالة رقيقة يُرى من خلالِها تمنعهُم من الوصول إليه وتقع مِن نفس الصِّغار موقِعًا جليلًا فيعانون التردد ثم الارتداد خطوةً بعد خُطوة، حتى شجّعهم صوت الجَّدّ الذي ناداهم ممازحاً غير باسِم: تعالوا يا أولاد الكلب،

مازحهم اللفظ بيد أنَّ عبوس وجهِهِ الدائِم الخالى مِن أي تعبير لم يتغيّر وإن تهلَّلَ بالبِشْر الذي كان يُعرف في عينيه لا تقسيمات وجهه ممن درج على القُربِ منه والتحدُّث إليه.

كان أبناء "عبد الماجد" في مراحِل دراسيَّة وعمريَّة متفاوِتة، "عمر" يقارِب "جاسِرًا" في السنّ قد انتهى من شهادة التعليم الفني، و"هديّة" في المرحلة الثانوية، وفارِس ووائِل في التعليم الابتدائِي، قدموا جميعًا في تماسُك ظاهريّ لا يخفى ودواخِل تقاذفتها الأقاويل وحكايات المساء وسمرِه حين يستحيل الكلام همسًا وهمهمةً غير مفهومة وغمز ولمز ومواراة بين الأب والأم والجدّة سُعدى التي انحنى ظهرها وهي تبحث عن دورٍ في حياة أحد فلا تجد.

ما جعلهم يشعرون بالغربة بين أهاليهم وسط دارِهم، وأنَّهم كيان إضافي غير مفيد لكنَّهُ واجِبُ الوجود ليضفى صبغة الأُلفة والترابط، ربَّما لا يعي الصِغار هذه الأطروحات التي لا تنبُت إلا مِن نفسٍ أنضجتها وساوس الكبار وتوجهاتِهم وتجارب الحياة .

حمل "سعيد" "دنيا" ابنته التي لم تتجاوز عامها الأوَّل، فمنحها الشيخ قبلةً بملءِ فيه على خدّها المكتظّ الطريّ بينما تفوح منها رائِحة اللبن كأنّها خارِجةٌ لتوّها من مجْبَنة وأودع حِجرها حِفنةً من الأوراق الماليّة، وكان لنادية ابنة سليم تكريمٌ واضِح مِن جدَّها الذي أجلسها جِوارهُ وخصَّها بالحديث حين قرَّب فمه من أذنِها وكأنَّه يواسي جِراحها التي قاربت أن تندمِل، أقبل أبناء أخواتِهنَّ وأبنائهم النِسوة يلثُمون يد كبير العائلة وكبير الحاجِر، كلٌّ يحظى بالتقرُّب من سيّد الجبل الذي لم يعُد يظهر سِوى في مُناسباتٍ قليلة...

اجتمعت النِسوة في طابق القصر العلويّ الأخير الذي كان يقطُنهُ الشيخ عبد الماجِد، تقودُهم الأمّ الكبرى زوجة الشيخ محمود والِدة سلطان، كانت لا تطرُقُ باب القصر إلاّ في مناسباتٍ قليلة منذُ غاب عنهُ بكريّها وأول من رأت عينها كما كانت تقول دائمًا...

علّل "عبد الماجِد" غياب والدتهِ بمرضِها الذي أقعدها ومنعها من الحضور، ربما كان الأمر كذلِك أوغيره، رغم ذلك لم يعبأ الشيخ بمبرِرات ولدِه ولم يُلق لكلِماتِهِ بالًا، لم يكُن يسْعد بحضرة عبد الماجِد ولا والِدته التي آثَرت صُحبة ولدها بعد طرده مِن رِحابِ أبيه ونقمتهِ عليه .

شكّل رجال العائِلة وشُبَّانها حلقةً واسِعةً حول سليم الذي كان يُجيد الذبح كما يُحسِن الكثير من الأعمال، وقدّ كبَّل عِجلًا سمينًا فأوثق قوائمهُ وطرحهُ أرضًا بمعاونة "جاسر" و"عمر" و"سليمان" الخادِم الزراري الذي باشرَ إتمام المُهمة من السلخ والتقطيع بمهارة فائِقة من طول ما عاين وساعد في إعداد ولائِم وذبائِح الشيخ وآلِه وكأنَّه جزّارٌ محترِف، وما قام سليم بأمر الذبح إلاّ تبرُّكًا وحِرصًا على دوام ما اعتادوا عليه كلّ أضحى حين كان يقوم الشيخ الكبير بإزهاق الدم أوان فتوّته أو أحدٌ منْ آلِه يعهد إليه بذلك،

بينما الصبية يمرحون في أرجاء القصر يبعثون فيه الضجيج وكأنَّهم يحيون مواته ويثيرون غُبار الأمل في أروِقتهِ الفسيحة، فيستفزّ هذا المشهد المُتأصِّل في نفوس النِّسوة بهجةً قديمةً وبُشرى سارّة وهم يصطفون في شُرُفات القصر والعمارة فيطلِقون الزغاريد ويهتِف الرِجال والشباب مكبِّرين مُهلّلين، وكأنَّهن يستعِدن ذكريات الأمس كمن تذكره رائِحة عِطرٍ قديمة بالماضي أو بعض شخوصه فتستحضِرهم ذاكِرتهُ وتتداعى مواقِفهم وكلماتِهم في ذهنه!

حين كان يقدُم المأمور وكبار رِجالات المركز ومجلس المدينة وكثيرٌ مِن العُمَد ورءوس العائِلات يقدِّمون التهاني أفرادًا وجماعات في جوٍّ تامٍّ مِن البهجة، يتناول كثيرٌ منهم فطورهم مع الشيخ وآلِه، يتقدّمهم الحاجّ "سُلطان" الذي يستقبِل الجميع وينوب عن والِدهِ في توديعِهِم ويشرِف بنفسِهِ على توزيع لحوم الأضاحى على كلِّ بيتٍ في الحاجِرِ وأجواره بجودٍ وأريحية وكأنَّه يقوم بالنحر بدلًا عن عائِلات المسلمين ويُهدى أصدقاءهُ النَّصارى مِن ذبائِحه وعطاياهُ الشيء الكثير، فلا يبقى في هذا اليوم فقيرٌ جائِع ولا بائِس حزين...

فيتحوَّل القصر وساحتُهُ إلى كعبةٍ صغيرة تموج جنباتهُ بالزائِرين ويضجُّ بالبِشر والبَشَر معًا في جوٍّ احتفاليّ أُسطوريّ غامِر تتحاكاهُ القُرى والمدينة.

لم يتبقَّ مِن هذه الطُقوس جميعها سِوى مشهد الذبح واجتماع الأسرة كلِّها على مائِدة واحِدة للإفطار واستقبال بعض المُهنئين وتوزيع اللحوم على بعض فقراء الناس وأصدقائِهم فقط...

في الرُدهة الفسيحة بالطابق الأرضيّ اجتمع الرجال مع أولادِهم الشباب مِن الذكور على مائِدة مستطيلة انضمَّت إليها موائِد أُخرى بمحاذاتِها، لتسع هذا الجمع الغفير مِن رِجال العائِلة، انتصب على رأسِها الشيخ الكبير الذي

قال وهو يلتقِم بأصابِعه حِفنةً من رقاقٍ قد غمر بالمرق والصلصة –السخينه– كان قد مُنِع مِنها بأمر الطبيب ووجد اليوم فرصة سانِحة لقليلٍ من التمرد على أوامرٍ لم يكن يخضع لها إلا قليلًا: آنَ لشملكم أنْ يجتمِع في هذا اليوم المُبارك أعادهُ اللهُ عليكم وعلى نسلكم بالخير.... تتضاغن الأصوات الآكِلة بين مُردِّد كل عام وأنتم بخير يا شيخنا... كلّ سنة وأنت طيب يا أبي... بارك اللهُ فيك يا جدّي بينما أشداقُهم قد امتلأت عن آخِرها بقطع اللحم والثريد والرُقاق...

يسترسِل الشيخ لنبدأ من الآن التجهيز لحفل الزفاف غدًا ريثما يرجُع الرجال من زيارة أخيهِم في سجن قنا العموميّ... بينما يحملِق في وجه عبد الماجد في ازدراء جعلهُ يمسِك عن مضغ ما تبقى في فيه من طعام ويُطرِق صامِتاً بينما تعالت أصوات الجميع بالتهاني والدعوات ومباركة الزيجة ، بينما ظلَّ سليم واجِماً يردّ باقتضاب على المهنئين وكأنَّ حديث والده أعاده لحالته القديمة يوم أن اقتحم رغبته وفرض عليه موعِد الزفاف فرضاً، وإن كان قد أعدَّ العُدّة وجهَّز ابنته أفخر جهاز وكأنّه في خضمّ الاستعداد قد راحت مِن بالِهِ أيُّ ذكرى مُنغِّصة.

بينما النِّسوة مع الصبية والفتيات في الطابق العلويّ من القصر يفعلن الأمر نفسه في عشوائية وبساطة حين جلس بعضهنّ على الأرض وانقسموا لمجموعات كأنَّهُنَّ مَكْلَمات لا يصدر عنها سوى اللغط وأصواتٌ كثيرة مُتداخِلة لا يفهم من عباراتِهنّ شيئًا سوى لفظة الفرح و"نادية" و"جاسِر" وبعض الهمهمات بينما انبرت الشيخة "سيّدة" مع "وجيدة" و"نادية" يتبادلن حديثًا خاصًّا في حجرة منفردة، هل كانتا توصينها بـ"جاسر" أم توضِّحان لها أمور ليلة الزّفاف وتقاليدها وما تخجل منه البنات فتبسِّطا لها

الأمر، أم ماذا؟ لا أحد يدري ما جرى بين الجدّة والبنت وحماتها، غطى اصطخاب النّسوة وضجيج الأصوات على كلّ همهمة رغم حِرص "كريمة" امرأة "سليم" زوجة أبيها على استراق السَّمع الذي بدا مستحيلًا.

كانت الشيخة سيده ووجيده والدة "جاسِر" لا تستشعران الارتياح في حضرة "خديجة" زوجة "عبد الماجد" لم يكن هناك ودٌ ظاهر بينهم وإن وارى الجميع ذلك رغبة في أن يمُرّ اليوم بسلام رغم ما تنطوى عليه القلوب من حنقٍ وكراهية، ومنذ متى وانتهى اجتماعُهن بخير دون مشاحنات لكنهُنَّ اليوم جميعًا آثرن المسالمة، حتى لا يفسدن فرح الأبناء صبيحة اليوم القادم.

الزيارة

نهض "جاسِر" و"سعيد" و"سليم" استعدادًا لزيارة الشيخ سلطان في محبسه وإبلاغه الأخبار الجديدة السعيدة التي يتلهَّف لسماعِها، تم تجهيز السيارة الجيب لهذه الرحلة القصيرة التي لا تستغرق أكثر مِن ساعتين ذهابًا وإيابًا، حمَّلوها بطواجِن اللحم والأوز وكثير من المأكولات التي يفضِّلها، مع قاروصتين من السجائِر الفاخِرة وأطقم داخلية بيضاء وثلاث قطع جديدة زرقاء اللون من الملابس الرياضية (ترننج) مع بعض الدفاتر الورقية للكتابة فيها وكثير من السلامات والتحيات والأشواق...

البوابة الحديديّة عالية زرقاة كئيبة كعادة كل سجون الدنيا وكأنك تجتاز حاجِزاً بين الحياة والعدم، دلف إليها الزائِرين في انقباضٍ وتوجُّس كمن لن يخرج منها أبدًا!

تلقاهُم العقيد وجدي بيك أحد كبار ضباط السجن فور دخولهم بناء على ترتيب سابق بعد أنْ أبلَغوه هاتفيًّا برغبتهم في الزيارة، تربطهم به أواصر منذ أنْ كان ملازِمًا في مركز شرطة المدينة التي يعتلى جبلهم حاجرها بداية تعيينه، تربطه بهم الأواصر والمودَّة، لذا أصرَّ على الحضور لاستقبالِهم يوم العيد وراحته إكرامًا للشيخين وأهلِهما .

كان الشيخ "سلطان" يتحرَّك بخطىً متثاقِلة في حُرّية تامة في باحة السّجن الفسيحة، وكأنَّ شيئًا ما كبَّله عن الحركة بيسر، وقد كان يقطع الفيافي ويتسلق الكثبان الرَّمليَّة بخفّة ورشاقة طائر وكأنَّ قدميه مخلبان ويديه جناحان يتقافز بهم أجمعين، يجترّ دخان سيجارته في هدوء وسكون بالغين، يرتدي ترينجًا أزرق من لون بذلة السّجن التي لم يرتدِها الشيخ مُطلقًا ولم

تحكّ له جلدًا منذ ولوجه محبسه من سنواتٍ طُوال لم يعُد يهتمّ بإحصائِها، ولذلك حرصوا في كلّ زياراتِهم على توفير الأردية الزرقاء الموافِقة للون بذلة السجن التي تُقبِض قلبهُ وتشعره بالضيق، قابلهم العقيد وجدي مرحبًا في مودةٍ بالغة ودعاهم للاجتماع في مكتبه فشكره سلطان في امتنان وتقدير متعلّلاً برغبته في التجوال في الهواء الطلْق وتليين مفاصِله بعيدًا عن الجدران التي يحسّ أنَّها تكبِّل أنفاسهُ، وكأنَّ أشعة الشمس التي بدت قاسية تمنحهُ الشعور بالحرية وكأنَّ الفضاء العريض يحمل له من نسمات الجبل وهْجه وصَبَاه، استأذن الضابط وجدي بعد أن أوكل لأحد الحرس حمل مئونة الشيخ سلطان لغرفة حبسه ولو لم يأمره بذلك لحملها الجندى أو من هو أعلى منه رتبة من تلقاء نفسه، وربما حملها أحد المساجين الذين كانوا يوقِرون الشيخ سلطان ويحترمونه لما يعلموه عن قدره ومكانته وما عاينوا من جوده وأريحيته وشخصيته الفذّه القائِده المهيبه وإن طغى الحزن عليها فبدا في حديثه ونبرة صوتِه وبريق عينيه. تعانق الإخوة سريعًا وتبادلوا التهاني بينما طال عناق الأب لوحيده وكأنَّه عمد أن يستبقيه بين يديه يتشمَّم ريحهُ ويستبقيها في أنفه ما استطاع، وكأنّهُ يعانق شبابهُ الذي سُلِبهُ وعمره الذي ضاع سُدى، أم تراه استمرأ حضن "جاسر" الذي ما عادت يداه تلتقيان خلف ظهره وهو يعانقه حين نما جسده وتفتّلت عضلاته وصار شابًّا يافِعًا ملء السمع والبصر.

كان وجدان "جاسر" يتهادى بين النشوة والألم، وأبوه يربت على ظهره في حنوٍ بالِغ وكأنّه يختزن هذا الموقف في ذاكرته بعد أنْ يغادره لأيام قادمة وليالٍ كالِحة سوداء يستدعي فيها تلك اللحظات القليلة السَّعيدة في حياته ويقلِّبها في شريط الذكريات مواساةً لوحدتِه وسجنه .

ترقرقت أعين "سلطان" و"سعيد" بالدموع فأمعنا في حبسها وجُمدت في عين سليم بينما فاضت رغمًا عن "جاسِر" الذي بدا متماسِكًا أوَّل اللقاء!

هزَّه أبوه وهو يطوِّقه بكلتا يديه: عيب يا ولد عهِدتك رجلًا لا يبكي فما بالك اليوم؟

يردّ "جاسر" وهو يدلِّك عينيه بسبابته وإبهامه يمسح بهما أدمعه: يعزّ عليّ يا والدي ألَّا تحضر زِفافي، فيقاطعه "سعيد" في حنوٍّ بابتسامة مُقتضبة رغبة أن يجرَّ الحديث خارِج نطاق الأحزان حتَّى لا يزيد أسف أخيه وحسرتهُ التي تسكُنْ أضلُعه رغم مقدِرته العظيمة على إخفائِها إظهارًا للتماسُك، قائِلًا لـ"سلطان" بينما يربُت على كتف "جاسِر": إنَّما جئنا لاستئذانِك في شأن زواج "جاسر" و"نادية" ابنة "سليم"، كاد "سلطان" أنْ يُفلِت يدهُ المتشابِكة خلف ظهر "جاسر" وهو يحتضنه بينما يلوي عنقه تجاه "سعيد" ملتفتًا لحديثه الذي أسعده أيّما إسعاد، فعاد وأطبق كلتا يديه وضمّهُ من جديد كأنَّه لم يلقه إلَّا الآن قائِلًا في لهفةٍ وشوق: ألف مبروك يا حبيبي، وقبَّله قبلةً طويلةً على وجنته، ثم أفلتهُ بعد هنيهه ليضمَّ أخيه "سليمًا الذي بدا مُسالِمًا، ربَّما كان مستسلِمًا لواقعٍ لا مناص منه أو ربّما رقّ لما آلَ إليه حال أخيه الأكبر الذي كان يقتديه هيبةً ونفوذًا... فبدت على وجهه أمارات الحنوّ والمحبّة، بينما يسترسل "سلطان" في دعواتِه لهما بالبركة، فيرد "سليم": باركَ الله في عمرك وصحتك أخي وشيخي... يُمازِح "سلطان" "سليمًا" متجاهِلًا دعواته التي بَدرَت منه على سبيل المُجاملة وعفو الحديث، كأنَّه لم يسمعها، فما حاجةُ مثلِه لصحَّةٍ تفنى في غياهِب السّجون، وما قيمة عمر يطول أو يقصُر وراء جدرانٍ عالية؟!

قائِلًا: أخيرًا سيختلطُ نسلينا وستربِطُ بيننا أواصر جديدة غير الأخوَّة بالدم من جهة الأب فنصير أشقاءً وأصهارًا وجدودًا لفرعٍ واحِد تربِط أغصانهُ بيننا، مباركٌ يا "سليم"، يحتضِن "سليمًا" الذي أخذ يقبِّل كتفهُ ومِنكبه في مشهدٍ مفعم بحبٍ خالِصٍ وجيشان عواطِف صادِقة قائِلًا: صِهرك شرفٌ لي يا أخي وشيخي...

فيجيبهُ "سلطان" مشددًا على كلماته كأنَّه يوصيه: كلاهما ولديك "جاسِر" و"نادية"، يردُّ "سليم" في اقتضابٍ كأنَّهُ تذكَّر فجأةً أحاديث الأمس القريب: نعم وأكثر، مغمغِمًا:

ادعُ الله له بالهِدايه والتعقُّل، يقاطِعهُ "سعيد" الذي كان دومًا كرُمَّانة الميزان، يتدخل من فورِه حين تقتضى الضرورة لإنقاذ "جاسر" كلما أوشك على السقوط في بئرٍ أو مطبّ، فيقيلهُ من عثرتِهِ وكبواته كما الصديق المخلِص والعم المُحِبّ قائِلاً:

فرغنا من هذا الحديث، من اليوم سيصبح "جاسر" كما تحب وأكثر، ينظر سلطان نحو "سليم" في دهشة وقد ساورهُ شيءٌ مِن القلق من حديثهما، فيطمئِنهُ "سعيد" وهو يومئ برأسه: لا عليك يا شيخ "سلطان"، ما بهِ إلا القليل مِن حمق الشباب، فيلتفت "سلطان" لـ"جاسِر" أطع جدَّك وأعمامك، و"سليم" من اليوم أبوك، لا تخالف لهُ رأيًا واحرِص على رِضاه... فيجيب "جاسر" وقد احمرَّت أذناه مِن الخجل فأطرَقَ نحو الأرض: أفعل يا أبي بمشيئة الله، فاطمئِن، ثمَّ انساقوا في أحاديث شتَّى عن صحَّة الشّيخ "محمود" والحاجّة "سيّدة" وحال الجبل ورِجالِه.

لم يكُن بكاء "جاسِر" وتحسُّرهُ نابِعًا مِن غيبة أبيه وفقده فقط، حين أدرَك كم كان يحتاجه في هذا التوقيت الحرِج وهذه الأيام على الأخصّ، زاد من

أحزانه رؤيته أبيه الفارس الصلد الذي كانت تقدُم إليه كبار الرجالات مظهرين التودُّد والتهنِئة في أيام الأعياد وحيدًا قد استبدّ به الهُزال والوهن بعد فقدهِ الكثير من وزنه، يسير في باحة سجنه وحيدًا حزينًا مُترنِّح الخُطى، ترتعش السيجارة بين يديه وأصابِعه، سأله "سعيد": ما لي أراك مهزولًا تفقد من وزنك زيارةً بعد أُخرى، وجهك يزداد شحوبًا وأنفاسك تتلاحق كأنّك مريض تُخفي عنَّا متاعبك؟

فيجيبُهُ "سُلطان": داهمتنى العِلل والأدواء صرت مريض سكّر وضغط دم وصارت آلام مفاصلي لا تستجيب لدهانٍ أو مسكِّنات، يسترسِل موجِّهًا عينيه نحو "جاسر" كأنَّه يخُصَّهُ بالحديث دونهم: يبدو أنَّ أباك شابَ قبل أوانِه فأصابهُ طارق الشيخوخة مبكِّرًا بينما يتصنَّع الابتسام، يجاهِد كي يُخفي ألمه حتى لا يُكدِّر صفو عُرْس وحيدِه، أو يزيد من انشِغالِهِ عليه.

يرد "سعيد" في نبرةِ حُزنٍ واضح: سأُرتِّب لك وسيلة لإجراء كشف وفُحوصات في أفخم المستشفيات الخاصة هنا أو في القاهرة لن آلو في ذلك جهدًا، فيؤمِّن على كلامه "سليم" وكأنَّهُ يؤكِّد أنَّه سيسعى معه لعمل ما في وسعه في سبيل مصلحة أخيه.

يُجيبُه "سلطان" يائِسًا: وهل يدَعونني أخرُج من سجني هذا المُشدَّد؟ لا أظُنّ! لا داعي للقلق فطبيب السّجن يباشِرُ علاجي وهو ماهرٌ كُفء، يحيلني لمستشفى السّجن، وأحيانًا للمستشفى العام، فأجدها فرصة سانِحة لأرى الدّنيا خارِج تلك الأسوار العاتية.

أخبرني أنَّها أمراض شيخوخة مُزمِنة، تلزمها المتابعة وتنظيم النظام الغذائِي والالتزام بالدواء، ولن يتغيَّر العلاج في أي مكان في الدنيا عن هُنا، يستطرد في ألم مشوب بمزاح: يكفي أنكم أسلتم لعابي بهذه الوجبات الدسِمة

والسجائِر الفخمة التي لن أنال منها سوى النذر اليسير حسب أوامر الطبيب، وأوزِّع ماتبقى على رفقاء الزنزانة.

يردّ سليم مُستنكِراً مقطّب الجبين بينما يمطّ كلماتهُ مطًّا: هل يخضع الشيخ سلطان لأوامر من أحد؟ أم يعرف المرض كيف يُداهِم من هو مثلك؟

يتمتِم "سلطان" في أسى مَن يئس من النّجاة أو فقد الأمل في الغد: هي أيّام يا شيخ "سليم" نمضيها بحلوها ومرّها...

كان لابُدّ من عودتهم سريعًا فالوقت ضيّق قد داهمهُم، ولحظاتُ الاستعداد الجادّ للعُرس قد حانت، وإن فرغوا مِن استكمال التجهيزات، والاتفاق على السُرادِق اللائِق الذي ينصبهُ العمّال الآن ..

غادروا المكان بينما ظل سلطان يتابِعهم بعينيه وكأنّها تقتفي أثَرَهُم وهم يتضاءلون كلما ازدادوا ابتعادًا حتى خرجوا مِن البوابة الكبيرة، فاستبدّت بِهِ مشاعرٌ شتّى لم تتوغّل لنفسِه منذ سُجِن سوى في لحظة القبض عليه، حين كان يحتضِنُ "جاسِرًا" كأنّهُ يعتصِرهُ بين جناحيه، يستمهِلهُم قليلاً ريثما تتعبأ رئتاه من رائِحته وعبقهُ حين فطن إلى أنّهُ آخِر لقاءٍ يجمعهما في بيتٍ واحِد!

ولحظة قُبيل بدء المحاكمة حين رأى في عيني أبيهِ الشيخ "محمود" نظرة انكِسارٍ وتحسُّر لم يعهدهما عن والِدِه ذي النظرة الحادّة القاسية ولم يرها فيهما مِنْ قبل، تُغلِّف نبرة صوتِه رنّة ألمٍ عميقٍ وشجنٍ وكأنَّ صوتَهُ يبكي لِبكاءِ قلبِه وهو يصيح به: لا تخشَ شيئًا يا ولَدي سأُخرِجك منها كما أقحمتك فيها.

لماذا يعاوِدهُ الشعور نفسه الآن وقد مضى من الأيام ما قد مضى، من الضيعة والوحشة وفُقدان العُمْر، فيؤلِّب عليهِ بركان الذكريات، ذكرى لحظةٍ فارِقةٍ بعينِها، طاش فيه صوابهُ وجرَّهُ حُمْقُهُ في فورة اندُفاعٍ ونزَق لم يُعرَف عنه، أودَت بِهِ وبعائِلتِهِ للأبد، فقدَ فيها هيبةً موروثةً وشخصيّةً قائِدةً واعِدةً حباهُ

الله بها لو أرخى لها الزمان سُدُلهُ لارتقت عنان النُجوم واجتازت الأُفُق فأضحى رفيقًا لِحفنةٍ من القتلة والمجرمين من لصوصٍ وقوّادين وقاطعي طريق، وجليسًا لأردأ أنواعٍ مِن البشر من كان لا يتورّع عن مطاردتِهم ولا يكترِث النظر إليهِم حين يأمر بجلْدِهِم هاهو يقضى آخر عمره الذي أُنهِك بينهم، بعد أنْ كان جليس علية القوم ووجهائه وصفوتِه... صار كحصانٍ أصيلٍ جامح أسلمهُ جموحُهُ لِشِباكٍ قيَّدَتْهُ أو أجمةٍ متداخِلة الأغصان كبَّلتهُ، فأصبح عاجزًا عن الانطِلاق بعد أنْ كان دائِم التحليق تطأُ قدماه آخر أرضٍ تقع عليها عيناه، فصار مُعلّقًا سجينًا، ينتظر مصيرًا غيبيًّا وهو متسربِلٌ في أغلالِه، عاجِزٌ عن فكّ أسارِه أو امتلاك ناصية قرارِه ومصيره، ها هو الآن في سجنٍ كبير وإن أبيح له التِجوال، يكفي أنَّ روحهُ مُكبَّلةٌ رغمًا عنهُ وهو الذي اشتهر بحِكمتِهِ ومحبَّة الناسِ لهُ، حين كان ملجأ الضعيف ومصدر حماية الحاجِر وأهلِه مسلمين ونصارى.

وكأنَّ سجنهُ أصبح في قلبِهِ كالحجر الجاثِم فوق صدر عبدٍ مُعذّب لايملك من أمرِ نفسهِ ولا خلاصِه شيئًا، الذي تلاشت في الأفق أيَّة بادِرةٍ تُبشِّرُ بِقُربِهِ، فأصبح جُلّ مُشتهاهُ موتٌ يُطلِقُ أساره ويخلِّص روحه من عذابِها المقيم.

لم ينم سلطان ليلة حِنَّاء "جاسِر" تلك الليلة التي ينتظرها كلّ أبٍ يفرح فيها بولَدِهِ ومعهُ، ظلّت أطيافٌ موحِشةٌ تُطارِده، حين يُغمِضُ عينيهِ وحين يفتحهُما وبين اليقظة والنوم، أشكالٌ مُفزعةٌ لوجوهٍ اصطبغت بالدم تتجول في الجدران وكأنَّها تطارِده بدأبٍ لايفتُر، لا يراها سِواه رغم شراكة زنزانتِه مع آخرين، وكأنَّها تنبثقُ منْ محضِّ خيالِهِ لتطارِدهُ.

لاحت في مخيلتهِ صورتها ذات الصورة التي لم تبارِح حنايا ذاكِرته، المرأةُ ذاتها –"تريزا"– يُفيق منتفِضاً انتفاضة أوزة خرجت لتوِّها مِنَ الترعة بعد أنْ انغمسَت فيها فهزَّت جسدها بقوة تنفض الماء عن ريشِها فتتناثرُ قطراتُهُ كحبَّات اللؤلؤِ تضوي تحت أشعَّة الشمس الوضَّاءة، وكأنَّ ليلة حناءِ ولدِه هي الماء الذي غمر نفسهُ فاستفاقت روحهُ التي لم تفارِقها تباريحُ الذكريات! وعذاب الضمير والنوبة الليلية لجلد الذات للذات، ومتى نسِى ليتذكَّر وهو يكابِدُ كل ليلة نفس الأطياف التي أقامت حوله تلك الليلة على الأخصّ سياجاً خاصّاً ومأدُبةً عذابٍ مُركَّزة لتُمعِن في تذكيرِهِ بويلات الأمس واليوم الحزين، الليلة التي يعقُبها زِفاف وحيدِه لعروسِه، فيوصيه وينفحهُ الخبرات والأسرار في حبٍ وسعادة ويخوض معهُ في حديثٍ كان يتحاشى الولوج إليهِ، ثم يستقبِل الناس ويتقبَّل التهنِئة في فخرٍ وزهو... ها هو الآن بين جدرانٍ صمَّاء في معْزِلٍ قد حُرِمَ كُلَّ ذلِك بينما كلّ ما يعنيهِ يصخبُ خارِجها مِن حولِه وكأنَّهُ يستمِع ضجيجهُ وتتهافت الكلمات إلى مسامِعه دون أن يشهَد شيئًا!

يُخاطِب نفسَهُ وكأنَّهُ ينفثُ كالمِرجل أزيز الدخان مِن جراءِ غلى الماء فيه فيصطخِبُ متضاغِطًا: آآآآآآآه كنتُ أودُّ أنْ أحتويك في صدري رجلاً مكتمِل الفتوة وآن له أن يكللها بالزواج، تبدو في مخيلتِهِ صورة ولدِه الوسيم في بذلة عُرسِه بجوار نادية ابنة سليم التي ما عاد يذكر ملامِح وجهها مذ غادر الجبل بلا رجعة بينما لم تزل رضيعة لدى أخوالِها، يتقافز لذاكرتِهِ شاش –شال– أبيه مخضَّباً بالدمّ، تريزا تسبح في بركة دمِها أمام درب النصارى، وجه نعمة البدريّ كأنَّه القمر وهي تهيلُ على شعرها البنيّ الناعم التراب وعلى وجهها، بينما تنهمر من عينيها دموعٌ سوداء كخطّين أسودين متعرجين على صفحتى وجنتيها من جرّاء اصطباغِهما بالكحل أم تراه دمعها صار أسود

علامةً على بؤس ذلك اليوم الذي لم تطلُع فيه شمس؟ لن يموت الماضي وإن ظللت أدفع ضريبته كلّ يومٍ أضعافاً مُضاعفة، لازال ذنبهما يطاردني، ربما كانت الخطيئة الوحيدة التي قارفتُها وما تطهُر منها كفّايَ بعد؟ أيغفرها لي الله فيرحمني وقد كنت بالناس رءومًا، كثيرًا ما تصدّقت ومنحت وعفوت، لم أتجبَّر على أحدٍ مِن خلقِه ولم أخُن عهدًا، وكأنّي لم أُصِب إثماً غيره؟ أما يكونُ عذابي في غياهِب سجني تكفيراً لجريمتي؟

هكذا ظل يتردد هذا الحديث داخِلهُ، ثم وضع يديه على أذنيه ضاغِطًا كأنَّهُ يصمّهما عن صوتٍ اقتحمهما يطرق على طبلة أذنيه بمطرقة فولاذ! أو كأنَّ بداخل رأسِهِ رحىً صاخِبةً لا تكفُّ عن الاصطكاك والدوران صارِخًا دون أنْ يسمعه رفقاء محبسِه: رُحماك يا رب، وكأنَّه يستغيث برحمته أنْ ينجيَه من عذابِه.

يتوالى شريطٌ من الذكريات أمام عينيه كأنها مشاهد سينمائية مُبعثرة لروايةٍ لم تُكتب نهايتها بعد، "تريزا" التي تقطُنُ منزِلاً طينياً لكنّ أثر الجاه والفخامة بادية في زخرفتِهِ وبنيانِه، احتوى مِن وسائِل الرفاهية والتمدين والعزّ الكثير مايتوائمُ مع أوانِه، حين اتسعت تجارة زوجها "سعد" وازدهرت، كان "سعد" هادئًا باسم الثغر في خبثٍ وطيبة، أملس كثعبان غير مؤذٍ من ثعابين البيوت ماكِر أمين لا يغشّ أو يحتال فقط يعامِل زبائِنه بطريقةٍ تجعلهم مرتاحين له فهو يفهم نفسية جيرانِه، يجيد الفِصال، قادرٌ على احتوائِهم وكأنَّه ولِد تاجراً أريبًا لايُشَقُّ لهُ غُبار، وبدت عليه وعلى داره مظاهِر الثراء.

ابتاع مِن الشيخ "محمود" وأبناء عمومته أراضٍ وعقارات ودورًا متجاوِرة اتخذَ بعضها مخازِن والمطلة على الشَّارع الرئيسي حانوت أقمشة وملابس جاهزة وأردية حريمي من عباءات وجلابيب وأغطية رأس

وبطاطين ولوازم تجهيزات العرائِس يبتاعها مِن تجار الجملة بالمدينة، تعاونه "تريزا" في حانوته وفى تصريف بضائِعه الحريمي بين نسوة الجبل وأجوارِه ويعاونه "منتصر" أخوها الأصغر الذي ربياهُ كولدِهما، فأثرى ثراءً هائِلًا بعد أنْ راجَت تجارته، وكان من أوائِل مَن اقتنى الرَّاديو ثمَّ التلفيزيون في منزِله بعد عائِلة الشيخ "محمود" وآلِه؟

كان لحداثة عهد الناس بالترف ومظاهِره أثرٌ عظيم جعل انبهارهم يفوق الخيال يعجبون حتى للصورة المشوشة حين يُحجُب الإرسال بسبب قُرب الجبل منهم بينما يقضون أسعد أوقاتِهم أمام مصطبة "سعد" وحول دارِه في انتظارِ نسمةٍ شارِدةٍ تحمل لهم موجة أثير تنقل لهم صوت المدنية وصورها.

تمتع "سعد" و"تريزا" وكانوا ينطقونه- طريزا- بحماية الشيخ "محمود" كباقي النصارى كما تمتع قبلهم آباؤهم بحماية والِده الشيخ "أحمد"، فخرجوا مِن محِلة النصارى بعد أن بسط أردية الأمان على الجبل كلّه.

***

لم ينجِب "سعد" من "تريزا" بارِعة الجمال سوى "نِعمة" ابنة وحيدة جميلة كأمها حين تخطُر أو تميد مختالةً بِما حباها الله بهِ من جمال ورغَد، هكذا اسمتها أمها دون مشورة "سعد" الذي كان يغيب الليالي في البندر منشغلًا بتجارتِه في شقَّةٍ اشتراها هناك يلتقِط فيها الأنفاس هنيهة هربًا مِن تكرار الترحال، حتى لا تضطرّه الظروف لولوج الجبلِ ليلًا فقد كان جبنهُ وضعفهُ وما يخفُ الليل بهِ الجبل مِن مخاطِر وما يحوزهُ من أموال ويحمِلهُ من بضائِع دوافعهُ لتفضيل المبيت خارج الجبل في المدينة عن طرقها في غياهب العتمة وعدم الأمان، صحيح أنَّ سيد الجبل قد بسطَ رداء حمايته عليهم إلا أنَّ

عواقِب غدرٍ قد تحيق بهِ في غفوةٍ من الحامي، من يضمن له ألا يترصده لصٌّ من البندر فيتعقبهُ ويتّخذ ستائِر الظلمةِ والسكون مسرحاً لجريمتِه، أو يهاجِمهُ ذئبٌ أو تطيش خرطوش أحد اللاهين بسلاحهِ ليلاً لإفزاع اللصوص الغرباء فتُحّلِّق فوق رأسِه أوتكون من نصيبه!!!

كان ساعِدهُ وربيبهُ منتصِر أخو تريزا الذي ربَّاهُ في كنفهِ بعد وفاة والديه حتى اكتمل نضجهُ، لم يكن يشبه أخته سوى في شعرِهِ البُنيّ، المهوش المُجعَّد كأنَّهُ وحدةٌ واحِدة، وجههُ بادي الاصفِرار، رأسهُ غير مُنتظِم كأنَّه حبَّة بطاطِس، وعينان زائِغتان أعلى بروزٍ عظميّ ناتئ أسفلهما، ربعة صدره منتفخ عريض يعلوه منكبٌ مستطيل تبرز كراديسهُ، صوتُهُ أجشّ وشارِبهُ بضع شعيرات صفراء أسفل أنفه المتضخِّم بلا انتظام كوجهه، يبدو بلا لحية رغم أنه لم يجرِ على صفحة خدّه موسى أبداً فهو أجروديّ، فقط بضع شعراتٍ متناثِرة فيه أكثرها أسفل شفتهِ السفلى، تقتله العصبية دون داعٍ أو مبرّر، يسهُل استفزازه واستثارته، فيه عنجهيّه ونفور، كأنَّه متحفّزٌ دوماً لمعركة على غير أوانها، وبرغم كونهِ مسيحيًّا غير متديّن لا يزور الكنيسة إلّا قليلًا ولا يصلي صلاة الآحاد بانتظام ربما لا يطرقها إلا في الأعياد والمُناسبات، إلا أنَّ مشاحناتهُ لا تنتهي وكأنَّه راعي الكنيسة في الجبل وحامي حماها، يتحوَّل مزاحهُ الذي لا يخلو عادة مِن سخافةٍ ونَزَق مع أحد أقرانِه إلى تنابذ بالقول وتبادل للشدّ والجذب ومجالًا لاستثارتِه واستفزازِه.

نهره الأنبا اسطفانوس ابن مكاريوس راعي كنيسة الجبل بعد أبيه عن المُضيّ قُدُمًا في استثارة المشاكل لشعب الكنيسة الآمِن في كنف العائِلة الظفّاريّه، وقد كفلوا الحماية للجميع دون تفرِقة بين أصحاب مِلّة وأُخرى، لم يعبأ أو يهتمّ بتعليمات أبيه القسّ المُبجَّل؟

غُصَّة في حلق "منتصِر" تعامى عنها "سعد" وتغافل متعمِّدًا ضارِبًا عرض الحائِطِ بِأقاويل لن يُجدى البحثُ وراءها سِوى الخراب.

هل أصبحت تجارتهُ التي راجت شُغله الشاغِل؟ أم عزوفهُ عن النِساء الذي جعله يؤجِّل زواجه يتصامم اليوم؟ أم تضاؤل الرغبة تدريجيًّا مع الانشغالِ والسن جعلاه لا يلقى لكل شائِعةٍ بالًا؟ أم خوفهُ من تكرار أقاويل تردَّدت لا يستطيعُ مُجابهتها أو دفع غوائِلها أو اتخاذِ شأنٍ حازِم بصددِها؟

أكان يقوى على المجابهة أم كان يستطيع أنْ يمتلِك زمام مواجهة الرجُل الذي عرفوا عنهُ جميعًا القوة والمهابةِ والحزم؟!!

حين صبَّ الزمانُ جام غضبهِ على خطيئةٍ لم يشأ أنْ يتركها تنعم بالأمان أكثر من ذلك، وظنَّ مقترفيها أنهم نجوا بفعلتهم! حتى لا يُقال هل غاب العدل؟ أم غابت حِكمة الأيام؟ فقيَّض لها أكثر الناس نزقًا وأقرَب الأقربين ينفُضُ رُكامًا عفا عليهِ الزمن وطوتهُ غياهِب الأيام؟

هل كان "مُنتصِر" الذي نبت في أحضانِهما برعمًا ذابِلًا فعنيا به حتَّى اخضرّ وتصلَّب عودهُ... هو القشّة الأخيرة التي قصمت ظهر بعير الاحتمال؟

حين تمرَّد على قانون الجبل وسادتِه! وخزة من ضمير أم صحوة شرف أم فورة حماس صادِق أو كاذِب ليس منه طائِل ولن يُجْدِي الآن نفعًا، ربَّما يورِدُهُ موارِد الهلاك، دفعه إليه نزقهُ وتهوُّره اللذان عُرِفا عنهُ... أتُراهُ أراد أنْ يدفعَ عنهُ فجأةً تُهمَة الخُنُوع والاستسلام، لما يلوكُ شرفهُم ويتردَّدُ همسًا بين الشّفاة في حذر لا تُعيدُه لو طُلِب منها تكراره، ربَّما أنكرت ما وَشَت بهِ مضطرِبةً خائِفة؟

تمرّد "منتصر" في البِداية على "سعد" واعتزل العمل معهُ بعد أنْ وجَّه له إهانة تطعن في رجولتِه، حين صرخ في وجههِ وقد صار وجهه قطعة مِن الجمر:

ألست رجُلًا تتركهم يلوكون عِرضك ويدنِّسون بيتك بينما تقبع في دكّانِك تراجِع حصيلة أرباحِك؟ فيُعرِض عنهُ سعد الذي بدت عليه آثار السّنين وقد غزا الشيبُ رأسه فأمعن الغزو وظهره الذي تحدَّب أعلاه وقد التمعت عينيه ببريق الدمع والخذلان حين يصكه ربيبهُ بهذه التُّهمة المُخجِلة فيرد عن نفسِه غائِلة العار ويقول وقد سال من أنفه دمعهُ وهو يمحيه بطرف كمِّه: لا تكُن ظلومًا ولا تُنصِت للأوغاد الذين أوغِر صدورهم ما آلَ إليه حالنا مِن عزّ وثراء... يستطرِد في ضعف ويأس: ألم أربك كولدي ولم آلو جُهداً لإرضائِك وسعادتِك؟ يُطرِق في أسى من يعتصِر الحزن قلبهُ اعتِصارًا أمِنْك تكون الطعنة فعند مَنْ يكونُ المأمَن؟ هكذا كان حالُه... نكأَ جُرح "تريزا"، كانت كأمِّه، في حِجرها دَرَج، لم يجترئ على مواصلة تبجُّحِه معها كما فعل مع زوجِها ،لحظات مِن التردُّد والأسى جعلتهُ يتراجع في اللحظات الأخيرة عن مواجهتها بِما يجيشُ في صدرِه وما رأى وسمِع، افتعلَ معها عِراكًا دون مُبرِّر ليس لهُ أدنى صِلة بما كان يدور في عقلِه ويغلي في دمِه، لكنها وعت مايرنو إليه، حين تنامى لسمعِها ما دار بينهُ وبين زوجِها! أجابتهُ دامِعة العينين لا تنكأ جِراح الماضي وتُقلِّب في دفاتِرِهِ القديمة، لست مسئولاً عن ما جرى في حياتِنا سابِقاً وقد كنت تلهو مع الصِبيان وترتدُّ إلى صدرى تطلُب مِنِّى الطعام والحلوى، لم تعرف أمَّاً لك غيري، لم أضُن عليك يوماً بنفيس، ماغيَّرَك، أترضخُ لأقوال الحاقِدين؟ تستطرِدُ راجية:

إنما نَفَسوا على "سعد" تجارتهُ الرَّائِجة وذيوع صيتِهِ فاتهمونا بأحطّ جريمة، ما كان "أبو ظفَّار" سوى حليف وحامٍ يرتشِف قهوتهُ مع أبيك "سعد" في أهازيج المساء حين يمرّ مرور الكِرام، فيجالسه ويسمرُ معهُ يؤانِسهُ كما يؤانِس بيوت المسلمين، يستفسِرُ عما يريب ويزيل من القلوب الضَّغائِن ويبثّ في ربوعِنا الأمان، فلا نستشعِر في وجودِه قلقًا أو تفرِقة بين جِنسٍ أو دين، أمَا تراه كان يطرق درب النَّصارى في الأعياد يهديهم التَّهاني فيرحِّب به عمّك صهيون وبيت بشندي حين يصرّون أن يتناول غذاءه عِندهُم، أمَا علمت أنَّه كان صديقًا حميمًا لأبينا "مكاريوس"، يزورهُ في بيتِه ويزور كنيستنا في الآحاد كُلما سنحت الظروف يمرُّ في اطمئنانٍ ودعة وكأنَّه يُعظِّم شعائِرنا، فيحيي الجالسين لاستماع العِظات، ينهاهُم عن النّهوض إجلالًا لهُ وتحيةً! أستحلِفك بالمسيح الحيّ:

ألم ينعم الرُّهبان منذُ عهد أبيه الشّيخ "أحمد" بالأمان وصارت حُرِّية عباداتِهم مكفولة ولولاهم لتخاطفتنا المطارِيد وقُطَّاع الطُّرُق؟ ألم يكن يتعهدنا في غياب أبيك "سعد" الليالي الطوال بالمدينة بالرعاية والسؤال؟ تُلقى بعباراتِها مُقتضبةً مُضْطرِبة وكأنَّها اجتُثَت مِن معانيها، تتحاشى أنْ تنظُر في عينيه بينما هو مُتصامِمٌ يُخرِسهُ الحرج، سكوت منْ لم يعد تنطلي عليه أقوالها، وكأنَّها تستعيرُ مِن الماضي مُبرِّرات خطيئتِها، لكنَّه الحياء حين منعهُ أنْ يُريق آخِر قطراتِه من وجهِ "تريزا" شقيقتِهِ وأمِّه، انبرى واجِمًا لا يلوي على شيء، ألمّ به ندمٌ خاصّ، لماذا أصرَّ أنْ يضع منْ ربتهُ موضِع المتهمة في شرفها تدفعُ عنها العار، وتقِف أمامهُ خجِلة مرتاعة كأنَّهُ عرَّاها منْ ثوبِ حيائِها وكان أوْلى بِهِ أن يرحم ضعفها ولا يواجِهها بزلاّتِها في تبَجُّحٍ وخِسّه، بينما هي لا تكُفُّ عن استِمالتِه واسترضائِه: لا تُفجِعنى بك، اصفح عن الماضي وما

جرى فيه ليس جُزئاً مِنك وإنْ كُنتَ مِنهُ جُزئًا، كُن كقلب يسوع نقيًّا طاهِرًا بارك لاعِنيه فوق جبل الزّيتون، لا تعبأ بكلامِ أحد واعلمْ أنَّ أختُك بِلا خطيئة! ثمَّ أجهشت باكية تتلمَّس احتِضانهُ، وكأنَّها أحسَّت قُرب الظفرُ به وأدركت ما يعتمِل في صدرِه من شعورٍ خفيّ مُضادّ يُطالِبهُ بالعفو والتسامُح : ألم يكونوا ضُعفاء في ذِلّةٍ وخوف؟ أكان يُمكِنها أنْ تقِفَ في وجه سيِّد المكان وأقوى رجُلٍ فيه مع ما خُصَّ بهِ مِن صولة وشهامة وأريحية، جميل الصفات التي تنشُدُها المرأة في الرجُل، ألم يُنقِذهُ هو نفسهُ مِنْ موتٍ مُحَقَّق بل وأنقذهُم أجمعين قبيل انهيار الدار فوق رءوسهم حين احتجزهُم السيل داخِلها؟ يهدأ حتى توقِن باستعادتِهِ ثمَّ لا تلبثُ نوبة الغضب أنْ تعاوِدهُ، فيخاطِب نفسهُ: هل يعدِل الشرفُ الحياة، وهل تُفرِّط المرأة وتُعطِي أغلى ما لديها لِمن أنقذ حياتها، فتأتي بخطيئةٍ تخطو وتدُبّ على الأرض؟ أم تموتُ الحُرّة ولا تُفرِّط؟ حُرَّة وهل كُنَّا أحرارًا نملك مصائِرنا أم كُنَّا خاضعين لآمِرٍ ناهٍ أنقذنا ليستعبِدنا ويسبي نساءنا؟!! هل قهرتها شخصيتهُ الجامِحة فهامت بِهِ حُبًّا وتسليمًا، لا أستطيعُ أنْ أتخيَّل كلَّ هذا الوحل، ليتنى ظللتُ أعمه في غيابة التجاهُل والإنكار، لماذا نبشتُ قبر الألم والضغينة؟ كأنَّ قلبهُ قد استحال حجرًا أصمَّ لم يلتفِت لرجائِها فانتفض يُلملِم حاجياتِه ويقطع ما بينه وبينهُم مِن مودَّة؟

وهو يقول: هيهات فات الأوان لابُدّ مِنَ الفِراق ولو كانت كُلّ قطعةً مِن لحمى تدينُ لكم بالحياة فلن تعدِل الحياة الشرف، ولن أُطأطئ رأسي لأنال لُقمتي.

***

في حرم الشيخ ومسرح نفوذِه، لم يكُن يُعنى الشيخ محمود بهذا الشابّ المدفوع بطيشِه وغروره، ربما لم يكُن يُشغِل لهُ بالاً أو يتذكَّر مجرَّد اسمهُ ، ما مُنتصِر التافِه بجانب مهامّهِ ومسئولياتِه، لم يكُن يعنى أنْ يستقِلَّ بتجارتِه ولا إقامتهُ مقهى يُقدِّم فيها مشروبات معتادة لسكان الجبل الفُقراء، لم يستثيرُهُ عدم استئذانِه في كلّ ذلِك، ما يعنى عدمِ الاكتراث له وإعلان التمرُّد عليه، كان يكفى لتأديبِه أنْ يوعِز لبعض أهلِه ليقوموا بتقويمِهِ راضين مقتنِعين، ربما مدفوعين من مُنطلق الحرص على زجرِه قُبيل أن تمتدّ إليه يد الشيخ الثقيلة في الانتقام ممن عصاهُ، مع استياء كثيرين مِن تبجُّحِهِ وغرورِه وكأنَّهُ تخلَّص مِن كُلَّ كبير يرُدُّه لجادّة الصواب لو حاد عن الطريق بعد أنْ هجرَ بيت سعد، حتى رُهبان الكنيسة الذين صلُّوا مِن أجلِه رغم مهاجمتِهِ لهم وتنذُّرهُ عليهِم، فنفضوا أكُفَّهُم عنه، بعد أنْ أدخل منتصِر في مقهاهُ مشروبات روحية بيرةً وحشيش وبعضاً مِن نبات البانجو، وتفنَّن في تصنيع خمر زهيدة يجترّ بِها قروش الفُقراء مستغِلًّا ولعهُم بمُحفِّزات الباءة مِن مُنشِّطات وبعض المُسكِرات، فأنتج مِن خليط مختمِر التمر والزبيب والعيش المُتعفِّن -ما أسموه منقوع البراطيش-، الذي يُذهِب العقل بقروشٍ ضئيلة! ويكفُل لفاسِدي الجبل لذَّة السُكر والتيه، مع حبوب الفراولة والصليبة والأتيفان التي تُذهِب العقل والمروءة، وأتاح لهُم لعِب الكوتشينة والمقامرة بالنرد، التي دائِماً لم تكُن تنتهي بخير، فكثُرت حول مقهاه وبين روَّادِها المشاحنات والتعارُك، وكأنَّه أراد أنْ يُحقِّق الثراء من أقصر طريق، ويُثبِت لـ"سعد" وآلِه أنَّهُ قادرٌ على النجاح بدونِ عونِهم، وأنَّهُ يفوقهم حِنكة ودِراية بأمور التِجارة والاستثمار.

لم يكُن سيّد الجبل في معزل عما يدور، ربما شهِد الحاج "سُلطان" ماخورهُ في عتمة الليل وهو يدلف أرجاء القرية بينما يضُجُّ بالرواد فيتمادى المغرور في

تطاولِه بينما يقف بعضُهم ويتوارى آخرون احترامًا للحاج "سُلطان" ولد الشيخ "محمود" وخليفتهُ، بينما هو غير آبِه ولا مُلقٍ لهُ بالًا!

زاد حُنْق الشيخ "محمود" تمادي "مُنتصِر" في غيِّه وتطاولِهِ على مقامِه هو وآله مدفوعًا بكراهيةٍ عمياء ينتقِم بها لكرامتِهِ التي حسِبها مُهدرة، فردّدَ عِبارات تنُم عن عدم اكتراثِه بل وسُبابِهِ وأسرتِه وأنَّهُم لا يملِكون مِن أمرِهِ شيئاً وأنَّ أوانهُم قد تلاشى بعد أنْ تولَّى الشيخ "سُلطان" الطيب دائِم الابتسام كثيرًا مِن مهام أبيه.

تناسى أنَّ مندوبًا تافِهًا مِن أحدهما للمأمور كان يكفى لزجِّهِ في السجن بضع سنين، ربَّما لو لم ينل مِن كرامة الشيخين ويتندَّر لهما ويُسقِط هيبتهم في نفوس روّادِه السكارى التي تعبث المُسكِرات بعقولِهم فيتجرءون معه على الخوض في غيِّه! لم يستجِب "منتصر" لتوسّلات تريزا التي رجتْهُ باكية بِما لها عليهِ من قُربى أن يتراجع عن أفعالِه ويستسمِح الحاج "سُلطان" ويطلُب له عفو والِده وغُفرانهُ ولو غادر الجبل كُلّهُ، رجتهُ ألا يغترَّ بحِلم الظفَّاريين وسكوتِهم عنه، إن هي إلا وثبة كوثبةِ الأسد وينتهي كُلّ شيء، لم يستجِب "منتصِر" سوى لنزقِهِ الذي يدفعهُ لُحتفِهِ دفعًا، كانت طلقة خرطوش تائِهة في جوف الليل تبحثُ عن صدرِهِ المُنتفِخ كبرياءً وتحدِّيًا فتخترِق صديري جِلبابِه تكفيهِ لِتُسكِتهُ إلى الأبد وتقطع حبلَ غرورِهِ وتبجُّحِه اللذين استطالا، فتُرديهُ قتيلًا تسفحُ شُعيرات وجهِه وذقنهُ الرياح، والفاعلُ معلومٌ مجهول، ومَن ذا يومئ برأسِهِ أو يُشير بإصبعهِ وما مِن دليل وأعداؤهُ عدد الحصى مِن رفقاء السّوء وتُجَّار السّموم؟

مات "مُنتصِر" قتيلًا بعد أنْ توقَّع أصدِقائَهُ قبل أعدائِه له هذهِ النهاية المؤلِمة وحذَّروه مِنها، حين أورد نفسهُ موارِد الهلكة وسعى بقدميهِ لنهايتِه!

هل كانوا يستشعِرون أنَّهُ يستحِقّ ما نالهُ لذا صمتوا عن إدانة قاتليه؟ أم جبنوا أنْ يلقوا نفس مصرعه؟ أم أنَّهم أحسُّوا بفداحةِ جُرمِهِ حين أهان رجلاً يُسبغ عليهِم حمايتهُ دون أنْ ينلْ مِن قدرِهِم أو يتعمَّد يومًا إهانتهم، وفَّر لهم الأمان ومنع عنهم الأذى والتهديد، منذ أنْ سيطرت أُسرتُهُ على الجبل فتسمَّى باسمِهم، وسطعت شمسهم، ما عاد أحدٌ يوطأُ لهُ جناب أو تُهدرُ لهُ كرامة!

ارتاع كثيرون بعد مقتلِه وتملَّكهم الحنق والخوفُ معاً فلم يجرؤ أحدهُم أنْ ينبس ببنت شفه، بعد أن علموا أنَّ قبضة الظفَّاريين لا زالت قويةً باطِشة!

وارتاح آخرون بانتهاء جلسة الفجور العلنيّ، واندحر برحيلِه طبقة محترِفي المُسكِرات والجلسات الماجِنة!

حين التقى تهوُّر "منتصِر" وصمت الشيخ "محمود" الثاقِب! هل قهر صمت الشيخ صخب مُنتصِر وضجيجِه، ليصمُت بعدها مُنتصِر مُمَدَّدًا في صُندوقٍ في بهو الكنيسةِ قُبالة الصليب، أمام المذبح تحيطُه سحب البخور ونسائِم الصلوات والاستغفار، تغشاهُ الترانيم وتحفُّه الصلوات، بينما النحيب والنشيب ترنُ أصداؤهما في الرُدهة الفسيحة ذات الجدران العالية والسُقُف المرتفِعة!

أكان "منتصر" محقًّا ذا قضيّة مدافِعًا عن شرفٍ مات مِن أجلِهِ، بينما الشيخُ كان مُعتديًا ظالمًا؟ هل فعلها أحد أتباع الشّيخ أم أنَّهُ أوعزَ لأحد أعداء "منتصر" الكثيرين برفع يد حمايتِه عنه وكأنَّه أطلق الرصاصة من بندقيّة غيرِه فقتله أحد المتربصين بعد أنْ أمِن انتقام الشّيخ من التَّعدِّي في مملكته على أحد رعاياه؟ أم أنَّ منتصِر قُتِل غيلة قبل أنْ تصِل إليه يدُ الشيخ التي لم تُلوَّث بدمِه؟

أم أنَّهُ قتله بعد أنْ صار مُعتديًا ظالِمًا، فانتهك قانون الجبل وسلك مسلكًا وعِرًا في دروب التَّخبُّط، فترك للسانِه العنان يخوض في الشّيخ وآلِه؟

هل دفع التمرُّد "مُنتصِرًا" للتملُّص من إذلالٍ لوّثَ جبينهُ رضي به غيرهُ، فأبى أنْ يتغاضى عنهُ مثلهُم؟

وورى "منتصِر" غياهِب الثرى فاشتعلَ قلب "تريزا" كراهيةً وعنفوانًا وسُخطًا، فقررت الشَّقيقةُ الوادِعة أن تسلك مسلك "منتصِر" ممعنةً في الإصرار على الانتقام لدمِه المهدور وإن اقترفَ آلاف الذّنوب، حين أغفل الشّيخُ حقّها عليه في الصَّفح عن فلذة كبِدِها والإبقاءِ علي حياتِه لأجلِها، حذَّرها الجميع وأوَّلهم "سعد" من سلوك درب الهالِكين، وأنَّها قد تودي بأهلِها وأقربائِها مِن قاطني الحاجِر أجمعين، حين استحلفوها بنعمة الصبية الجميلة التي لم تكُن تردُّ لها طلبًا! يكفينا يا "تريزا" ما أريق من دمٍ لن ترتوي مِنهُ الأرض أبدًا، وكأنَّها ورِثت عن "منتصر" عِنادهُ وصلفهُ، راجعتها "رءوفة" ابنة خالتها فبكت بين يديها: أتُلقين نفسكِ عزلاء في قفصِ الأسد تبغين قتله انتقامًا لحبيبٍ مزَّقتهُ أنيابهُ آنِفًا في معركةٍ غير مُتكافِئة، همست في أُذنيها: أتظنين أنَّ الحُبّ القديم قد يمنعه من الفتك بك لو تماديتِ كأخيكِ!

فتجيبها "تريزا": اللعنة على الخطيئة التي ظننتها انقضت وهي مازالت كامِنة كجذع شجرةٍ تحت الأرض نبت مِن جديد، نباتٌ شيطانيّ أوّل من تجرَّع سُمَه "منتصِر" ولدي وأخي، ظلَّت تبكي حتَّى غدَت عيناها كأسين من جمرٍ مُتقِدّ وهي تستشعِرُ أنَّها وخطيئتها هما مَن أوديا بأخيها، فدفعَ المسكين عمرهُ القصير ثمنًا لهواها!

ظلَّت صورتهُ مضرَّجًا في دِمائِه تسفحهُ الرياح، لا تُبارحُ مخيلتِها، تؤجِّج مشاعِر الغضب والانتقام الذي كانت نارهُ تكوى جوانِحها وتشتعل في قلبٍ

كان مُفعمًا بالوجدِ والهوى؛ كيف تحوَّل الإعجاب لانبهارٍ يسلُبُ اللُّبّ ثم حبٌّ جارِف وعشقٌ وعطاءٌ بلا حدود يصمُّ أذنيه عن كل الموانِع والحواجِز، يجتازها ويتجاوزها متجاهِلًا وجودها غير آبِهٍ، يُسقِط كُلَّ التابوهات يقلبها رأساً على عقِب؟ حين يلتقى الأسود والأصفر، وجهُ الصحراء وأديم الأرض، ابن الصحراء وابنة أديم الأرضِ الطيبة، جذورٌ مُختلِفة وعقائِد مُتباينة، فيصيرا واحِدًا مختلِط الأنفاس والكِيان.

أينقلِبُ كلّ ذلك كراهيةً بِلا حُدود تسيل فيها الدماء ويحلُّ فيها الحنق الأسود مكان المحبة والوجد والحنين؟ فتتأجَّج نيرانٌ أُخرى، لهبٌ غير لواعِج الشوق واللهفة، نارًا مِن سعير تحرِقُ وتُدمِّر، تكتسِحُ في طريقها كلّ ذكرى طيبة، فأضحت نارًا تستعرُ في أضلاعِها كُلَّما رأتهُ يزدانُ فوق حِصانِهِ نهارًا أو مُمتطيًا صهوة بغلتِه البيضاء في الليل البهيم...

تناست كلَّ شيء حين قرَّرت الانتقام لم يرعها نظرة عينيه القاسيتين لها في تذلُّلٍ واستعطاف، أو نظرتهِ لنعمة في حنوٍ ودَعَة...

هذا الجلمود الذي لم تنطفئ جذوة عينيه يومًا أمام إنسان، قهرتْهُ عيونها البُنّية الناعِسة كأنَّها حضنٌ رحبٌ يفتح له ذراعيهِ أنْ هلُمَّ حين تُطْبِقُ جفنيها أو تُسبِلهُما، فتفيض منهما الأنوثة والفتنة، الواهِة في التطلُّع لهُ في غُدُّوهِ وإيابِه... أصبحت تقطُر حِقدًا وكراهيةً ونِقمة فيتطايرُ منهما الشررُ حين ترمقُ ظِلَّهُ.

كيف تقتل مَن غدا ابنًا لي حين رعيتهُ في كنفي، فنمى أمامَ ناظِرَيّ نبتةً ضئيلة ثُمَّ شجرةً باسِقةً تكتمِلُ أغصانها وتلتمع أوراقها كلَّما مرَّت الأيَّام؟

أوَتفعلها أنتَ وقد صرتَ مُختلِطًا بالرّوح والجسد؟ الرّوح التي تسللتَ إليها خِلسة والبدن الذي اقتحمتَ أبوابهُ الحصينة، وامتلكتَ مفاتِح مغاليقِهِ

التي لم أُسلِمها لأحدٍ سِواك! وأنا العفيفة المُغترَّة بعفَّتي وجمالي، لم يجترئ أحدٌ أنْ يقرَب حماي أو يُمنّى نفسهُ ببسمةٍ أونظرة، حين أُكشِّرُ عن أنيابي أو أُبدى بوادِر غضبتي وانفعالي؟

ما بالي أمامك فتحتُ كُلَّ حُصُوني في محبَّةٍ ورِضا، فما مِنْ غُرفةٍ إلاّ جستَها ووطأتها، وفتحتُ لك كُلَّ الأبواب تدخُلها بلا استِئذان.

أما مِنْ حِمىً لِمَنْ أسلمتْكَ قِيَادَها، وهي الأبيَّة الشمَّاء؟ حقاً أنتَ سيّد الجبل والرجُل المُهاب، لكنَّ أُخوَّةَ الدم المُهدَر أغلى مِنك، نعم أهان منتصِر الجميع وتخطَّى كلَّ حواجِز الأدب والتوقير ولكن! أكانَ يستوجِب الموت جزاءً وعقوبة؟ أما كان أولى بعفوك وتغاضيك عن زلاَّتِهِ إكرامًا لِما كان بيننا؟ هلا اكتفيت بزجرِهِ دون أنْ تحرِق عليه فؤادي؟

سأطأُ قلبي بقدمي لأنَّي امتهنتهُ في حبِّك المُحَرّم، حتى صبَغتَهُ بالسواد وزرعتَ فيهِ الأحزان، ودفع "منتصر" الثمن دوننا ساقتهُ غيرتُه ودِفاعه عن عرضِه حين لاكتهُ الألسِنةُ، وكأنَّهُ صار ضحيةً لكلينا، ودفعتهُ الرغبة في الثأر لكرامة أسرتِهِ المُهْدَرة، للتمرُّد والتطاول والعصيان في فورة هياجٍ لم يأبَه لِعواقِبه ولم يحسِب لهُ حسابًا، لم يُدرِك كُنههُ إلاّ من فطن لأصل الحقيقة وأساسها الذي يضرِب بجذورِهِ في ماضٍ مشوب بالخزى والعار، ما كان منتصِر في الواقِع غير بطلٍ شهمٍ أَبى على شرفِهِ الهوان حين ارتضيتُهُ وزوجي، لكنهُ عدِم الحيلةَ فتخبَّط في تيهٍ ونزق.

فكُنتُ السبب في مقتلِهِ والطلقة التي جاشت في صدرِهِ قبل أن تنطلِق مِنَ مكمنِها.

ويداك اللتان لم تتطهَّرا من دم "منتصِر" الذي لايزالُ يقطُرُ منهما وأنت في أوج هيبتك تُقَدِّم العزاء في قتيلك لم تطرُف عيناك أو يرتعِش لك جفْن،

فقط أشعتم أنَّ رُفقاء تجارتِه الخطرين في الحاضِرةِ تخلَّصوا مِنهُ حين اختلفوا على توزيع أنصبتهم في تجارتِهم المُحرَّمة، بعد أنْ تآمروا عليه وتيقنوا مِن استئثارِهِ بالنصيب الأكبر.

***

استأجرتْ "تريزا" بعض الأشقياء الخطِرين مِن خارِج المِنطقة ليُخلِّصوها من الشيخ "محمود" وعسفِه، أذعنوا بعد إلحاح، بعد أنْ أغرتهُم بعطاءٍ جزيل قد يفوقُ الخيال ويُعدُّ ثروةً لكلِّ طامح، أخبرتهم عن المواضِع التي يتفيئها كلَّ ليلة ويدلُج فيها وحيدًا دون ونيس، دلَّتهُم على أماكن يمكنهم فيها ترصُّدهُ بيُسرٍ دون أن يلمحهم إنسان، كانوا أقرب للمرَدةَ منهم للبشر قلوبهم قد اعتصرها الموات ، ونفوسهم جشِعة لا يعتريها شِبع، إسالة الدم عندهم أيسر مِن تقليم أظفارِهِم!

أوهموها بالموافقة بعد أنْ أسالت لُعابهم بمُقَدَّمٍ ضخم، وانتظرت النتائِج!

لم تتوهم لحظة أنَّ الجنوب على اتساعِه قد يصبِح حارةً ضيّقة تطوف بها الأساطير وأخبار الرجال وبطولاتِهم، وكأنَّها تُرجِّع أخبارهم وصدى ذِكرِهم، وكأنَّ النيل الذي يحيطون به بين جبلين يحمل بين أمواجِهِ الحكايات فيرتشِفها الجميع فيجعلُ الجنوب وحدةً واحِدة لا يُدفنَ فيه سرّ ولا يخفى فيه خبر!

كانوا قد سمِعوا عن بطش الظفَّاريين وسطوتِهم وهيبة رجالِهم، خشوا من غضبة الشيخ محمود، وارتاعوا من تخيُّل انتقام سُلطان، أو توحُّش سليم، أرهبتهم فكرة أنْ يهُبّ أبناء عمومتِهم وخئولتِهم المنشرين في المحافظةِ بأثرِها، أو تنتفِض قبيلة الشوابِرة عن بكرة أبيها تفتش عنهم الرمل والحصى، فأين المفرّ وبِماذا تنفعهم أموالٌ جنوها؟ وهل ينجحون فيما فشل فيه مطارِيد

الجبل وقطّاع دروبِه وأبناء الأخطار منهم حين باءوا بالعقاب القاسي والضّياع الأبدي؟!

***

في باحة القصر وقف "سيّد الدباح" و"حراجي الضّبيعي" طواعيةً بين يدي الشيخ "محمود" وولده الشيخ "سُلطان" يقدِّمان لهما فروض الطاعة والخُضوع والإذعان، وكذا ما منحته لهما تريزا من مال نظير تنفيذ خطة قتل الشيخ...

كان يكفيهما وهما القاسيان عاتيا الإجرام، من إقليم ناءٍ أن يقفا بين يدي الشّيخ وولدِه ليدرِكوا قوَّة وحجم الرَّجل الذي سمعا عنه وعن خليفتِهِ قبل أن يروهما.

كاد يصيبهما الغثيان حين حدَّق في وجهيهما بعينيهِ القاسيتين الحادَّتين ولحظه الرَّهيب النَّافِذ كأنَّهُ طلقات مِدْفَع، بينما أمر لهما الحاج "سُلطان" بواجب الضّيافة المُستفيض كرمًا، منحهما "سلطان" عطاء المرأة التي أكرمتهُم لقتل الشيخ وزادهُما عليه، وكأنَّهُ يعطي مِنْ معينٍ لا ينضب، عطاء مَن لا يخشى الإقلال أبدًا.

راعتهُما حِدَّة الشّيخ "محمود" وأَسَرَتْهُما شخصيَّتهُ الصَّامِتة الوقور المهابة، وأخذتْهُما قوَّة وجلال وعظمة الشّيخ "سلطان" وما حباهُ اللهُ بِه مِن محبَّة وجود وابتسامة تنتشر في أرجاء وجهه كأنَّها الشَّمس حين تُشرِق فتغمُرك بالضياء، وكأنّهما في تكامُلٍ دائِم لفصولٍ من العظمة والنفوذ والجود والأريحية، لكلٍ منهما كيانهُ العظيم الذي يفوق كلَّ تصوُّر حين يجتمِعا معًا كُلٌ بِسماتِه...

أقسم الدبَّاح والضبيعي أنْ يكونا رهنَ إشارتِها ولو أمروهما أن يعودا إليه برقبة تريزا لفعلا من فورِهما دون تردُّد، وأنَّ مَن رأى الشيخين ليس كَمَن سمِع عن سيرتِها التي تملأ البوادي والحواضِر، صرفهما "سلطان" بأمرِ أباهُ مُشَدِّداً عليهما العودة من حيثُ أتيا دون أن يصدُر عنهما خبر، أذعنا في طاعةٍ وتأدُّب وانصرفا .

في المحجر الشرقي المتاخم لقرية السيل جلس السيّدان يتباحثان الحدَث من أوجههِ المتعدِّدَة، بلغ الحُنق بـ"سلطان" أنْ يستأذِن والِدِه في ردع "تريزا" التي اشتطت في غيّها وصوّر لها شيطانها أنْ تُدبِّر لقتل الشيخ الكبير.

أجابهُ والِدَهُ وقد قطَّب جبينهُ: يكفيها قتْل أخيها الذي تعدَّى وظلم، فنال ما يستحق، ولربَّما بلغها خياب مسعاها فتئوب إلى صوابِها نادِمة.

يردّ سلطان وقد برقَت عيناهُ مِن الغيظ: أتظُنّ ذلك يا أبي؟ أم نُرسِل لزوجِها لتأديبِهِ وزجرِه فلا تضيع هيبتنا عِند الناس.

فيجيبُهُ الشيخ الكبير: لا تُبرِم شأنًا دون مشورتي، ثم يسترسِل: فلا يُشاع أنّ الشيخ وأولاده يقتلون من لاذوا بِجوارِهم، بعد أنْ أمنَّاهُم ورعينا مصالِحهم أو يُرهِبونهم ولو تجاوزوا حدود الأدب. يردّ "سلطان" في خضوع واستسلام الابن الطائِع الذي لا يُخالِف أمر أبيه بل يُجِلُّه ويوقِّره: أمرك يا أبي... ثم يستدعي ما سبق مِن أحداث وكأنَّهُ يُذكِّر أباه: كان لابُدّ مِن تأديبِ منتصِر حين خالف كل صوت للعقل وتمادى في غيِّه... لكنّها المرأة حين اجترأت، ثم يصمت في تردُّد يقطعُ حديثاً كاد ينزلِق لهُ لِسانَهُ دون قصد، وقف على شاطِئِه، منعهُ الاحترامُ والتوقير عن الخوض فيه، وهو لا يملِك كغيرِهِ حيال أبيه سوى الإذعان والخضوع، فهو لديهِ نموذج الكمال الذي لا

يقبل النقد ولا النقص، ولو صدر عنهُ ما يُتصوَّر فيهِ الزلل فلهُ ألف مُبرِّر، فيُعزى دومًا لغايةٍ أسمى ورؤيةٍ صواب لا يُمكِن ولا يستطيع أنْ يراها غيرُه.

ينهي الشيخ "محمود" جِلستَهُ مع سُلطان بقولِهِ: لا تقلق سأسوِّي هذا الأمر بنفسي.

حين تسلَّل حديثٌ داخِل نفس الشيخ أسلمهُ للصمت والتِجوال مُنفرِدًا عاقِدًا يديهِ خلف ظهره كعادتِهِ دائِمًا إذا أمعن التفكير في أمرٍ أهمَّهُ، فيترُك لساقيه العنان تقودانِه حيثُ تشاءان في باحة قصرِهِ أو موغِلًا نحو الجبل وطريقِه.

أثُراها كانت مدفوعة بغريزة الانتقام والحقد ترجو في قرارة نفسِها أنْ يخيب مسعى من أوعزت لهما بالمُهمة فتطيش رصاصاتهما، وينجو الشيخ حبيب الماضي وفارِسه، فيكون القاصِد هو مَن توانى وأخفق وتكون هي مَن حاولت وصمَّمَت، فيطمئِن قلبها وتهدأ لواعِجها، وتبرُد نارٌ استعرت داخِلها، حين يهدأ ضميرها المُصطلي بنار الانتقام، فترضى وترمي التبِعة على القدر الذي لم يوات والقضاء الذي لم يُنْجَزْ، لعلها أرادت ذلك حتى تتخلَّص من تبِعة الثأر وإرث الدم الذي ورَّطنا فيه "منتصِر" التافِه الأحمق... ليتهُ ارتدع حين هدَّدَهُ سُلطان بالسجن فأبدى اعتِذارًا وندمًا... ولم يتمادَ حتى أورد نفسهُ المهالِك، فذكرني وآلى بالسوء والفُحش وكأنَّ نفسهُ سوَّلت لهُ حتفها.

ويلك يا "تريزا" من نارٍ اشتعلت في قلبك الدَّافئ الحنون ونفسك الرقيقة التي كانت كأنفاس النسيم، ما بالها تبدَّلَت فتاقت للانتقام منّي؟ وكنتِ منّي كالروح والجسد، وكنتُ منكِ مِلء السمع والبصر... كيف أكرهك وأنت الشيء الوحيد الذي أحببتهُ بصدق، ولم أجد الحنان الذي أفلَ

مِن حياتي سِوى على أعتابِ دارِك؟ تستخرجين من قلبي المُتحجِّر القاسي بلحظكِ الناعِس النزَق والشباب؟

تملَّك قلبهُ الأسى لا الكراهية، لم يزل يحبها وقد هرِم وشابت، وإن سعت لإراقة دمِه، أوجد لها المُبرِّرات والأعذار وكأنّه في معرِض الدِفاع عنها لا الخصم الذي حاكت لهُ مؤامرة قتلِه.

ألم يكُنْ يخلعُ عِند أعتابِها همومَهُ؟ لايزال قلبهُ يفرقُ، حتى يكاد ينخلِع مِن صدرِه كُلَّما رآها جالِسة في صحن دارِها وبابها منفتِحٌ على الشارِع الرئيس، يذكُر أيامهُما الخوالي حين كانت تُعطيهِ وتمنحهُ بلا حساب.

هل عبث الهِرم برأسِه فجدَّد فيها ذكرى الماضي ومنَّاه بابتسامة مِن ثغرها الذي طالما التهمَه فيما سبق فتنطوى صفحات الدم والانتقام؟!

تحيَّن فُرصة وجودِها أمام دكان أقمِشةِ زوجِها وحيدة تجلِسُ على المصطبة المُلاصِقة لبيتها مكلَّلةً بالسواد يغمُرها كأَنَّهُ ليلٌ تسربَلَت بهِ فبدت مُنطليةٍ فيهِ، بهيَّة الحُسن رغم تقدُّم العمر وتولّى النَّضَارة، بَدَت كأنَّها ثمرةً شهية زادت الأيام مِن نُضجِها، لم تزدها مسْحَة الحُزنِ مع ردائِها الأسود إلاّ أَلَقاً وجاذبية .

سلَّم من على البُعد فلم ترُدّ لم يتحاشَ اللقاء بل ترصَّد لهُ، تقدَّم بخطىً حثيثة وكأَنَّهُ إنسانٌ آخر غيرُه، فما عُلِمَ عنهُ التردُّد أو التراخي أو هيبة إنسان.

لعلَّ عاطِفة أُخرى تتسلل لذاتِها تحلُّ محلَّ الكراهية والغضب، ولَّت وجهها شطر دكانِها، اقترب فعلِمت بقدومِهِ دون أنْ تلتفِت وكأنَّها اعتادت حفيف قدميه وخُطواتِه، ودُرّبت عليهم، حين أصبح قُبالتها صارت تنظُر إليه كأنَّهالا تراهُ، عاتبها بقولٍ ليِّنٍ، كأَنَّهُ الوثنيُّ على بوابةِ معبد إلهِه يتذلَّل طالِباً الغُفران، ولو تطَلَّب الأمر تقديم قُربانٍ واثنين في سبيل رِضاهُ.

ألم يكُن تغاضيهِ عن أمرٍ جللٍ تطيرُ فيه الرِقاب كمحاولةِ قتلِهِ قربانٌ كبير في محرابِ حُبِّها، واعتذارٌ عمَّا سلف، كانت تتحاشى الوقوع في براثِن عينيه الضيقتين الثاقبتين التي وقعت في أسرِهما سابقًا، كانت نظراتُه تخترقها فتفضحُ مكنون قلبها أمَّا اليوم وقد تبدَّلت الأحوال، فكأنَّ غِشاوة ثقيلة قد حالت دون تحقيق غايتِه أو كأنَّهما فقدا الوميض الذي كان يبرقُ منهما في لحظات الوِصال.

عيناه اللتان ازدادتا ضيقًا وعُمْقًا ووجههُ الذي زادت تجاعيده بعد أنْ أمعنت فيهِ ريشة الزمان خطوطها المتعرِّجة، بينما ازدادت عيناها اتساعًا وبريقاً وازداد جسدها البضّ شحمًا وطراوة، وكأنَّ توالى الأيام لم يزِدها إلَّا نضارة وسِمنة وهو جمالٌ آخر كان يروق للشيخ فيغمرهُ بفتنتِه، ربَّما صوَّر لهُ ولههُ السابِق بِها هذا الإحساس!

خشيت التحديق في عينيه العميقتين كبِئر، حتى لا تجذبها فيهما خيوط الذكريات للماضي وما حوى، وكأنَّها حدست ما يبدو فيهِما فتحاشتهُ، حتى لا تتخلّى عن ثأرِها وما جاش في صدرِها مِن حِقدٍ ورغبةٍ في الانتقام، فتجد نفسها منْقادةً رُغم إرادتِها لبحورٍ فسيحةٍ مِن العفو والغفران، حين يُطهِّرُ ماء الحُب النفوس مِن رائِحة الدم وثِقلِ كثافتِه التي تحجُب كُلَّ شعاعِ ضوءٍ ينفُذُ للقلبِ والشعور.

في تودُّدٍ مُستنكِرًا بينما تغمُر وجهَهُ ابتسامةٌ مِن الرِضا: هل كنتِ تودِّين قتلي، أوَمَا علِمتِ أنَّهُ لم ولن يجترئ على فِعلِها إنسان؟!

تردُّ بِغلظةٍ وهي تُحدِّق في وجههِ كطائِرٍ جريحٍ: احذرني فإنِّي سأُكرِّرها، ويلٌ للجُبناء الذين أخذوا عطيتي ووهبوك ولاءهم.

في هدوءٍ لم يُعهَد فيهِ، وقلَّما يُحافِظ مع غيرِها يستطرِد: لعلَّكِ تمنيتِ أنْ تفشلَ المُهِمَّة؟

في محاولةٍ يائِسةٍ للتمسُّكِ بحُنقِها الذي جاهَدَت ألا يخبو لهيبهُ بعد أنْ تسلَّلتَ إلى مشاعرها كلماتُهُ فهدْهَدت ما كمُن فيها وتراكمت فوقَهُ الأحقاد فغطَّتهُ:

لماذا تظُنُّ ذلك ألأنَّك الحاكِمُ هُنا ونحنُ التبعُ الخاضِعين، وكأنَّها تستنهِض عزيمتها البُركانية التي أوشكت أن تخمد...

يرُدُّ بوقارٍ مشوبٍ بأسف: لو كان كلُّ الخلقِ تابعين خاضِعين فأنتِ التي أسلمتها فؤادي، ثُمَّ يواصِلُ بينما يومئ برأسِهِ في أسى:

أخوك كان كُلُّ الناسِ أعداءه، مَن أدراكِ أنَّ قتَلتهُ ليسوا سوى زُمرة الشرّ الفاسدين الذين انتمى إليهِم بعد خروجِهِ عن طوْعي وطوْعُكِ، فتشاركَ معهُم في الغيّ والفساد حتى اختلفوا فاستباحوا دمَه...

تتنَدَّرُ مُستنكِرة استِنكار من لم يصل إليهِ شيء مِن الحديث وكأنَّها آثرَت التصامُم رفضاً لكُلِّ ما قيل: ألا تخشى أنْ يستمِع لِحديثِك أحدٌ أيُّها الشيخُ المُهاب؟ هل تُصَدِّق حديثك؟ اخفِض صوتك حتى لا يستمِع لمُبرِّراتك الواهيةِ مارّ فتفقِد جلالَك، مكانتى لديك ضائِعة كدم أخي المسفوح فوق التُراب...

يرُدُّ في نبرةٍ اكتسبت بعض الحِدَّة والضجر- فما مثلُه مَن يُطيل استِمالة إنسان ولو كان حبيبًا سابِقًا- :مُنتصِر هو من أورد نفسهُ المهالِك ..

مُشيرةً بسبابتِها في وجهِهِ وكأنَّها تُصوِّبهُ مِدفعًا ودَّت لو تندفِع مِن فوَّهتِهِ الطلقات تنوب عنها في ثأرِها الضَّائِع الذي لم يوافِقها عليهِ قريب حتى "سعد" نفسه:

وأنتَ الذي لم تُحِب إلا ذاتِك وهيبتك، لم يعُد بقلبِك مكانٌ لحبٍّ أحد سِوى جاهِك وسطوتِك، دَهَسْت في طريقِك كلَّ شيء صِرت كعِملاقٍ غرَّتهُ ضخامتهُ لم يعُد يُبصِرُ تحت قدميهِ، كُلَّما تعاظمت زادت خطاياك، أمَا وكنتُ إحداها برضا منِّي، حين آثرتُ حُبَّك عن رِضا الرَّبِّ فأذاقني المرارة والعلقم في الكأسِ نفسها التي شربتُ منها المحبَّة، لن أُسامِحك أو أغفِر لِذاتي أبدًا عن خطيئتي في حقّ نفسي زمنًا بين يديك، استحالت جُرمًا وجريمة قتلٍ انتقم الرَّبُّ بِها مِنِّي... بينما يطفرُ مِن عينيها دمعٌ غزيرٌ كأنَّ جرةَ الأحزانِ قد انكسرت في مُقلتيها فسال ماؤها.

علا صوتُها بينما تمادَت في التطاولِ عليه: منحتمونا الأمان ومنحناكُم السّيادة، لولاكُم ما كُنَّا آمِنين ولولانا مارفلتُم في العزِّ والسُلطان، وها هو أمانُكُم طغى كالسيل فأهدر دمائنا، كانت قد حضرت "نعمة" ابنتها، "رءوفة" و"مصري" جيرانها ودِميانة مِن حارة النصارى وجمعٌ مِن المارَّة مِن أهلِ الحاجِر حين اشتدَّ صراخها، بعد أنْ فقدت رُشدها فقد ذكَّرها وقوفُهُ أمامها بِعنفوانِهِ بدم "منتصر" المُلطّخة بِه يديه...

رفعت يدها في وجهِه فأمسكها في عُنفٍ وغيظ، لم يجرؤ أحدٌ قبلها وربما لن يجرؤ أحدٌ بعدها عن مُخاطبتِهِ بهذه اللهجة الوقِحة المُتبجِّحة، في دهشةٍ وكأنَّ نفسهُ تخاطبُ نفسهُ: أعماها الحِقد فتمادَت، أتُراها جُنَّت؟ وأفقدها الحزنُ صوابها! كانت تسقيني مِن الحُبِّ فنونًا ومِن المُتعِ ألوانًا، في نزقٍ وجنون، أتُراها اشتطت في عداوتِها كما اشتطَّت في حُبِّها وعطائِها سابِقًا؟!

حاولت بيدِها الأُخرى دفْعَهُ فطالت عمامتهُ وأسقطتها في التراب، وكأنَّها فقَدت السيطرة على شيطانِها الجامح الذي أشعل نار قلبها فلم تعُد تعي تصرُّفها، استبدَّ بِها الحقد والحنق معًا، فوطأت عمامتهُ التي انحلَّ عقدها

المُحكَم، داست فوق كرامة الشيخ وهيبتِه أمام مرأى الجميع، قطعت كُلَّ خطوط الرحمة والمودَّة السابِقة في لحظةٍ رُبَّما لم تأمَل أنْ تبلُغها بل دفعتها يدٌ شيطانيةٌ خبيثةٍ لولوج تلك المنطِقة المُحرَّمة...

مُجترِئة كحوّاء حين سوَّل لها إبليس الأكل مِن الشجرة فزيَّنت الخطيئة لآدم والبشرِ من بعدِه، كان الجميع يمنعونها، يُحاوِلون تكبيلها، بينما تلهج ألسِنتهم بالاعتذار للشيخ، هتفت "رءوفة": سامِحها ياسيدنا مجنونة لا تدرى ماتفعل أو تقول، بينما نِعمة التي لازالت تلهث بينما علا خفقان قلبها حين قدمت مُسرِعة على صوت أمها العالي، تستميتُ في تكبيلِها محتضِنةً لها بين ذراعيها اللتين بدتا أضعف مِن السيطرة على "تريزا" السمينة قويَّة البُنية التي توحَّشت كنمِرة شرِسة، بينما تهتِف: أُمَّاهُ ماذا ألَمَّ بِكِ؟ أنتِ ترتعِدين تهذين، ربَّاهُ ماذا تقولين، اسكتى باركِكِ الرَّبّ، فكلامُكِ لا تحمدُ عُقباه، تسترسِلُ مُتلاحِقة الأنفاس تطفرُ دموعُ عينيها: قضى خالي "مُنتصِر"- قدَّس اللهُ روحهُ - أتبغين أنْ تفجعيني بِكِ أيضًا؟

ما لكم تستعذِبون الانتِحار، وأتجرَّع وحدى مرارة فقدِكم واحِداً تِلوَ آخر، تحيل وجهها نحو الشيخ محمود الذي بدا واجِمًا لا يتكلَّم وكأنَّهُ حجرٌ أصمّ:

سامحها يا سيدنا هي تهذي لا تُدرِك ما تفعل، وأفلتت والدتها التي اجتمع حولها النِسوة، بينما انكبَّت على قدميهِ تُقبِّلهُما، لم يشعُر بِها أو يسمع لها أو لأحدٍ صوتًا... بعد أنْ سقطت عمامتهُ... أليست عمامتهُ كرأسِه واليد التي تمتدُّ مُشيحةً مُلوِّحة في وجهِه كزخَّات طلقاتٍ مُتتابِعة، قد اغتالت كرامته وكرامة الظفاريّين جميعًا، دون حياتِه، حين وطأتها بقدميها كانت كمن يكتُب نِهاية أحدُهُما لا محالة، نهايتها فِداءً لكرامتِه، أو نهايتهُ فلا معنىً لحياة منْ هو

مثلهُ مُذلاً مُهاناً من سيِّدة كانت لهُ ذات يوم عشيقة يتفيؤها بالحب والحماية... وكأنَّها وطأتْ قامتهُ، لم ترتدِع ولم تتراجَع أمام وجهه الغاضِب وعينيه التي بدا الشررُ يتطايرُ مِنهُما أمام مشهدٍ مِن الناس، وكأنَّه الشيطان أملى لها بعد أنْ تلبَّس بجسدِها، تداعَت كرامة الشيخ الذي انحنى ليلتقِط عمامتهُ التي قد تلوَّثَت، وتلطَّخت كشرفِه، الذي أُريق أمام دُكَّان "تريزا" وساحة دارها المكشوفة...

خيَّمَ الوجومُ على الحاضِرين، كأنَّ صاعِقةً ضربت فوق رءوسِهم، فحام فوقها الطير، أخذ الشيخُ عمامتهُ المُتَّسِخة وارتحل في ثباتٍ ووجوم، ونظرة ثابِتة ثاقِبةٍ لا تتبدَّل ، لم ينبس ببنت شفة، امتطى بغلتهُ بينما لايزالُ قابِضا على شاشِهِ الأبيض المُتَّسِخ فتبدَّل بياضُه وطَبع الطين والتراب عليهِ طابعَ الذُلّ والإهانة، فقط نظر إليها نظرةً ألجَمَتها، وأسكنت الخوف والهلعَ قلبَها الأحمق الطائِش، الذي تخلَّى عنهُ رُشدهُ...

نظرةً كأنَّهُ يودِّعها بها ألف معنى وكأنَّهُ يُخاطِبها: لماذا ألجأتِني لهذه الخاتِمة واضطررتِني لها، فاستبدلتِ مكان حُبك الوعيد والدم؟

كانت نظرتهُ الغضوبة نذير شؤمٍ كفيلة أنْ يُهرول مِنْ قسوتها الرِّجال الأشِدَّاء، لم تعُد تُفصِحُ عن شيءٍ سِوى قسوة الردِّ الحتميّ، لم ير "نِعمة" تكاد تتعلَّق بقدميه في سرجِ بغلتِهِ منتحِبةً باكيةً: سامِحها ياذا القلبِ الكبير، ولا التيه الذي بدا حائِراً في عيون من حضر وشاهد! لا يدرون ماذا يفعلون وكأنَّهم ودُّوا ألاّيشهدوا هذا الحدث المُفجِع فيتوقَّعوا نتيجتهُ التي لا يستطيعون لها دفعًا... ولا الرّعدة التي تسللت للمُتنمِّرة الشرِسة فأحالتها لِقِطَّة بائِسة بعد فوات الأوان...

انتابها بُكاءٌ هيستيريّ على غدٍ ربما سيحمِلُ لها الفزع والارتعاب، لم يُنصِفها كالماضي الذي ناء بِرِزء الدم الثقيل والحُب والأتراح، قطارٌ طائِش فقد سائِقهُ السيطرة علي قيادتِه وعجز عن كبحِ سُرعتِه وإيقافِه، فراح يقطعُ الأميال ويزرعُ القُضبان دون أنْ يدرى متى وأين المقرّ أو كيف تكون النِهاية...

تعلَّقت عيناها بالعمامة وكأنَّها تتوسَّلُ إليها أن امكُثي، فلا ترتحِل مع صاحِبها بحالتِها المُزرية المُهانة، ودَّت لو طهَّرتها بدموعِ عينيها، لعلّ جمرة غضبِه المكتوم تخبو أو ينطفئ بريقها لحين، ليتهُ تركها وارتحل ولم تُحمل معهُ مُذلَّة مُهانة ككرامتِه، ليتهُ انتقم وما كان أيسر الانتقام فيبطش بها بيدِه القويّة أو يدفعها عنه فيتوهُ حقُّه الصامِت الرابِض في زخَم التدافُع والتعارُك غير المُتكافئ، لعلَّه يلومُ نفسهُ بعدها، أو يستشعِر الحرج والحمق، حين انتقم لحظتها لكرامتِه ولم يخرُج من مشهدٍ لم يكتمِل مُنهزِماً مقهوراً وما جُرِّب عليهِ ذلِك قطّ...

أتُراهُ أبَت عليهِ شهامتهُ أنْ يمُدَّ يدهُ لامرأةٍ بالأذى وإنْ تجاسرت على وطأ محراب كرامتِه! ألم يمنحها الفُرصة سابِقاً لهذا الاجتراء باسم الحب، الذي أودِع قلبيهِما معاً خاضا في دركِه حتى أُذنيهِما لم يعبئا فيه بأعرافٍ أو تقاليدٍ أو دين!

لكنهُ كان خفية بمنأىً عنِ الأنظار أو الشاهِدين، حين كان يستبدُّ بهما التعابُث في مخدع الرذيلة والعشق المُحرَّم فتُجيلُ أناملها خلف أُذنيهِ وفي مفرقِه، دون أنْ يرُدّ عبثها أو يرفُضه ربَّما كان يستعذِبهُ مِن يدِها وكأنَّهُ يسألها التمادي حين يعجبُ لهُ.

***

دنيا الحاجِر شديدة الضيق حين تطوف فيها الأخبار بسُرعةِ البرق فيصبحُ من غاب كَمَن حضر قد ألمَّ بتفصيلاتٍ دقيقة وكأنَّهُ شاهِد عِيان، فما بقي إنسان لم يستشعِر دنوّ كارِثة قاربت أنْ تحِلّ بالجبل وآلِه، وكأنَّها نُذُرُ شؤمٍ قد تبدَّت في السماءِ غيومها... وصل الخبر كلَّ بيت فأصبح حديث الناس والساعة يتبادلونهُ همسًا وجهرًا... وصل دارهُ وجلس على المصطبة اللصيقة بجدارِها الخارجيّ في وهج شمس الظهيرة ولفح سمومِها الصارِم حين يلفح الوجوه في قسوةٍ مُفرِطة، لم يُلقِ الشيخ لزوجتهِ الحاجَّة سيِّدة بالاً ولم يُجِب لها سؤالًا، وكأنَّهُ لا يكترِثُ لها حين سألتهُ وهي تصك صدرها بكفّها: ما بالك يا سيدي، وما بال عمامتِك؟ أتُراك سقطت من فوق ركوبتك لا قدَّر الله؟ أم ترى مُترصِّدًا تجرأ على التربُّص لك بعد أنْ فقد جنانه، ممعناً في الصمت كأنَّهُ لا يراها أو يسمعها، كعادته إذا أهمَّهُ شأنٌ عظيم، فكانت تؤثِر لحظاتِها الابتعاد ريثما يهدأ البركان، لكنها حدست أنَّ ما هو آتٍ مدوٍّ ولا ريب، وأنَّ ثمة كارِثة هائِلة موشِكة الوقوع، لم لا وقد بدت نذُرها، مدَّت يدها لجلب العمامة المُتسِخة الموضوعة إلى جِوارِه فدفع يدها بعيدًا دون أنْ ينظُر ناحيتها، بينما قبض على نسيجها بقوة بقبضتهِ وكأنَّهُ يعتصِرُ ما ألمَّ بِها مِن خطب، يسترجِعهُ ويستعيدُه، في مشهدٍ لم يخطُر على بالِ أحد بعد أن عاد ممتطيًا ركوبتهُ في ثبات حاسِر الرأس إلا مِن طاقية تغطيها لم تسقُط في العِراك، لافِتًا أنظار الجميع لهيئةٍ لم يبدُ عليها مُطلقًا، لم يُلقِ على إنسانٍ تحية، وتوارت عن أُذنيهِ تحيَّة مَن قابلهُ كأنَّهُ لم يرهُ، مشدوهًا مُتعجِّبًا غاب ذهنهُ بعد موقفٍ كأنَّهُ زلزلة الساعة...

انخلعت القلوب وارتجفت في الصدور وكأنَّ نُذُر الخراب قد سطعت في السماء وأوشكت أمطار الرعب والوجل والدم على الهطول، كما روَّع الحاجة

"سيِّدة" هذا المشهد، ارتاع لهُ "سُليمان" الخادِم القابع أما بوابة السور الكبيرة فألجمته...

كانت الحاجَّة "سيدة" لا تصل كلماتها لمسامِعه وكأنَّ بينها وبينهُ حاجِزًا من صوَّان، صورٌ متتابِعة تقتحِم ذِهنه... لحظات مِن الحُبّ تتخلَّلها لحظات إهانة وفقد... نعمة وهي تنتحب باكية متوسِّلة، سكَّان درب النصارى وهم يشهدون الواقِعة واجمين في ذهول، يُقَلِّب الأمر على أوجههِ فلا يجدُ غير حل أوحد.

تخاطبه زوجتهُ بينما وجهها قد غمره الاكتئاب: هل أستدعي لك الطبيب؟ ثم أمرت "سليمان" أن يأتي بالحاج "سلطان" من فورِه قائِلة: ائتني بسيّدك "سُلطان" حالًا، ثمَّ توجّه بصرها نحو الشيخ قائلة: ألا أجهِّز لك قليلًا مِن الماء للاغتسال فتُفيق ريثما يقدُم "سلطان"؟ لا يغادِر الشّيخُ موضِعهُ تحت لهب الظهيرة الحارِق يحدِّق في الجبل النَّاتئة قمَّتهُ خلف حدود السّور العالية...

لم يكُن ما حدث وتردَّد على ألسِنة الجميع ليخفى على "سُلطان" والعائِلة الذين قدموا قبل استدعائِهم، أولهُم "سلطان" الذي قدم مِن قلب أحد محاجِره في الجبل وكأنَّهُ امتطى صهوة الريح لا صهوة حصانه الجامِح و"سليم"، تبعهم "عبد الماجِد" مع كثير مِن أبناء العمومة...

وقف أمام أبيه الذي لم يُكلِّمه ولم ينظُر قُبالتهُ، فقط أومأ برأسِه إلى عمامتِهِ المُلطَّخة بحذاء "تريزا"، إشارة كأنَّها رِسالة مُطوّلة، بليغة بثَّها الشيخُ لـ"سلطان" ولدهُ وخليفتهُ دون غيرِه، ردَّ "سُلطان" سنغسِلها الآن يا والِدي بالدَّم، والتقطها كصقرٍ جارِح يتوثَّب الانقضاض على فريستِه، فيعدو في هجير الظهيرة التي قاربَت أن تُولّي بعد أن يُقسِم على الجميع ألا يتبعهُ

أحد، تتقافزُ خطواتُه بعد أنْ توشَّح سلاحهُ الرشاش الآليّ على كتفهِ الأيسر، يقبضُ بيمناهُ على شاش العمامة، يُصرّ "سليم" و"عبد الماجِد" أن يتبعانِه فيُقسِم عليهِما أغلظ الأيمان أن يعودا فيفعلا... يتسلّل "سعيد" أصغر أبناء الشيخ في إثر أخيه يرقبهُ مُتلصِصًا خشية ثورة غضبه الجارِف الذي لم يعهدهُ عنهُ قبلها، فقد كان حكيمًا مُتَّزِنًا حتى في ثورتِه، عدا ذلك اليوم المشئوم الذي لم يُرَ فيهِ غاضِباً أكثرَ مِنْ غيرِه... قد اتبعَ سُنَّة أبيه عند الغضب فلم يُكلِّم إنسان أو يُبادِلهُ التحية...

كان الطريق شِبه خالٍ مِن المارّة على عادة أهلِ الحاجِر في مثل هذا التوقيت كُلَّ يوم، يعتصِمون مِن هجير الصحراء بسُقُف بيوتهم تقيهم الشمس المُتَّقِدة التي تكاد تقعُ فوق رءوسِهم أو تمسَّها، ربما بالغوا في اللواذ ببيوتِهم وبناياتِهم، استشعارًا بقُرب حلول عاصِفة تطيشُ بأمانٍ نعِموا فيهِ سنوات، فغُلِّقت أبواب الدور والدكاكين، وكأنَّ نُذُر حربٍ وشيكة قد حانت، خوفًا من رصاص طائِش، قد يُبدِّد أمنَ وسكون الجبل ويحصُد أرواح أبرياء لم يقترِفوا جريرة، كان الشرّ المُتطاير من عينيهِ كالشرر، وذريعة الانتقام داخِله، جعلاهُ يتحرك جهرةً دون تخفٍّ أو أخذ بالحيطة والحذر، لم يخشَ ما قد يحدُث بعدها أو يدرُس نتائِج فعلتهُ، يُتمّ ما استقرَّ في عزمِهِ وانعقدت عليهِ نواياه، لست الآن مِن رُسُل السلام، إنما أحمِل عزرائيل على كتِفي وأصطحِبهُ في رِحلتي انتقامًا لكرامة كبيرنا الذي أُهينت علنًا جهرًا على مرأى من الجميع... أفلا يكون الانتقام علانيةً كالإهانة دون تخفٍّ أو تخطيط، وبيد خليفة أبيه، لا بيد خادم أو أجير أو مُتطوِّع يُشير إليه الشيخ، فيُبادِر للفعل دون أنْ يظهروا في المشهدِ برُمَّتِه...

أليست إهانة رأسِ العائِلة يجِب أنْ تُردّ بيد كُبرائِها لا أحدٌ غيرهم، حتى يستطيع ملوك الجبل أن يقيموا عيونَهم في وجوهِ كلّ مَن تجرَّءُوا وسوَّلت لهم أنفسهم مجابهتهم...

لن يدفع عنهُم مغبَّة الإهانة إلا كفّ مُخضبة برائِحة الموت، ولن يُغسل شاش الشّيخ مِن قذارةٍ وطين وأثر دهس حِذاءٍ نسويّ وطِأهُ سوى بالدَّم يُبدِّد ما لحق بهِ مِن وسَخ، وبعدها يُغسَل أو يُحرق، فيُصبح إمَّا ذكرى لمجدٍ أو انتقام طُويَ في غياهِب الذّكريات.

أدرك "أحمد الزَّناتي" (الجبلى) كما اشتُهِر عنه مقصِد الحاج "سلطان" بفطنته، حين رآهُ في عرض الطريق يتقاذفُ الشررُ مِن عينيهِ كأنَّ شيطانًا يُطِلُّ مِنهما، تزفرُ أنفاسُه، متوشِّحًا سلاحه لا يلوى على شيء ولا يُبادِر أحداً بتحيّة مُتَّجِهاً نحو دُكّان سعد وبيتِه، في مشهدٍ لم يُعهد عنهُ، وكان ذا صلة لصيقةٍ بِهم يتودَّدُ إليهِم ويُجالِس بعضهم، رُغم كونِه لا ينتمي لقبيلة الشوابرة التي تفخر مُعظم بيوت الإقليم بانتسابِها لها، فهو من بنى زار وهم أبناء عمومة للشوابرة وإن كانوا يستشعِرون الدونية والاحتِقار منهم، والتضاؤل في حضرتِهم...

صدق حدس الجبليّ فأراد أنْ يستبين وِجهتهُ ويُثنيهِ عن شرٍّ انتواه فبدا في وجهِهِ جليّاً فناداهُ: إلى أين يا شيخنا وابن كبيرنا في هذا الهجير؟!!

لم يرُدّ "سُلطان"، كأنَّهُ لم يسمعهُ أو يأبَه لِحديثِه، كان الجبليّ قد درى بما وقعَ شأنُهُ شأن كُلّ أهل الجبل شرقاً وغرباً، لم يُعِرهُ سُلطان انتِباهاً كأنَّ إبليس دسَّ أنامِلهُ في أُذنيه، وضرب على عقلِهِ وتفكيرِهِ الحُجُب، فتملكت الجبليّ فورة شجاعة وأريحية مَن يَشُمّ رائِحة الدَّم عن كثَب، ويسمعُ دويّ الطلَقات قُبيل أنْ تشُقَّ الصُدور! فحاجزَهُ بكلتا يديه يُناشِدهُ الرحمةَ والأيمان أن يعود، وكأنَّهُ يُغلِق في وجهِهِ الطريق الذي أوشك على الانتهاء، أزاحَهُ سُلطان بيديه

ودفعهُ عن طريقِه، دفع من لا يُقيم للمودَّة حساباً أو يحفظ لغيرِهِ كرامة ومن عزم أمرهُ عزمًا أكيدًا لن يُثنيهِ عنهُ شيء، ولم يكُن هذا شأنُهُ قبلها أبدًا...

فتعلَّق بهِ الجبليّ تعلُّق من أمِل أنْ يُثنى الأقدارَ عن محتومِ قضائِها قائِلاً :

أُقسِم عليك بالله أنْ ترجِع يا شيخ، أستحلِفك بالله وبرأس الشيخ محمود وبحياة "جاسِر" أنْ تتمهَّل وتُعيد التفكير بِهدوء... لم يبرّ سُلطان لهُ قسماً، ويواصِل السير مُتملِّصاً مِن "أحمد" الذي تعلَّق بلِباسِه، لا ييأس مِن ملاحقَتِهِ لِمنعِهِ، ويحاوِل جذبَهُ مِن جديد مِن الخلف بِقوةٍ وعزم بما لهُ عليهِ مِن عشم وهو يصرُخ: بِالله يا شيخ لا تفعل لاُتضيِّع نفسك وآلك وتغضِب ربَّك...

ردَّهُ "سُلطان" بقوَّة حين وكَزَهُ بمِرفقِه، فقد الجبليّ توازُنهُ وترنَّح ثم سقطَ على الأرض، ثُمَّ ضربهُ بمؤخِّرة سِلاحهُ ضربةً قويَّةً كسرت ساقَهُ إمعانًا في منعِهِ، مُقسِمًا أغلظَ الأيمان وبالطلاق ثلاثاً ليقتُلنَّ "تريزا" الآن في عُقرِ دارِها، ويقتُل كُلّ مَن حاول منعهُ، تراجع أحمد الذي لم تُلهِه إصابتهُ عن مُتابعة الحدث الذي ودَّ لو تمكَّن مِن منعِه، متوكِّزاً مُتحامِلاً على ساقِه المكسورة التي لم يشعُر بآلام الكسر الرهيبة بها إلا بعد تمام المأساة، كان يتبع خُطى سُلطان نحو الدم بترقُّبٍ وألَم.

***

في منزِل "سعد" أعياهُم التخبُّط مع الذُّهول، كانوا يُلملِمونَ ما يقدِرونَ على جمعِه منتوين الرَّحيل الآنيّ كخلية نحلٍ هاجمتها الزنابير، خوفًا مِن بطش الشيخ وغضب عائِلتِه، لم يتوقَّعوا أنْ يكون الردّ بمثلِ تلك السُرعة، أوَلا ينتظرون العتمة ويضعون الخُطَّة ويتحينون الفُرصة؟ أم يكون وصول الشيخ

لمسكنِهِ نذيرٌ طارت بعدهُ بوم الخراب تنعق فوق بيوتِهم، ودقَّاً لنواقيس خطرٍ داهِمٍ...

ربما أمِلَت "تريزا" في عفوٍ غير مرجوّ مِن قلب الشيخ القاسي الصارِم، الذي لم يعرِف آنِفاً غير حُبِّها، ولم يهُن إلاّ أمامها، وإلاَّ فلماذا لم ينتقم منِّي لنفسِه حينها؟ أكان يُضيرُه أنْ يقولوا قتل امرأة؟ أم أنَّهُ خشيَ العيب والمعرَّة أبَدَ الدَّهر حين يسفح دمها بيده، أو يبطِش بها؟!

ولكن أيلقى مثلهُ الإهانة ويبتلِعها في جوفِهِ فتقْتُلهُ مرارتها؟! لن يبتلِعها لن يبتلِعها... أم تُراهُ يغلِبُ الحُب القديم قلبَهُ المُنتَقِم الحاقِد، فيتغافلُ عن هذهِ الزَلّة، فيضرِبُ مثلاً سياديًّا في العفو والتسامُح وتأليف القلوب مِن حولِه، كما ألَّفها سابِقًا بمنعهِ وحمايتِه، فتصير القضية قضيّة كبيرٍ يصفح لا جبَّارٍ ينتقِم...

واهِمةٌ أنا؟ أم ضائِعةٌ تائِهة، وصلَت بى الطرُق إلى مُنتهاها، وصِرتُ على حافَّة الجبل ومِن ورائي ذِئبٌ شرِس رُبَّما ذِئاب تنشُد افتراسي، هل أقفِزُ فأموت؟ أم أنتظِر أنيابهُم القاهِرة تجتثُّ مِنْ روحي الحياة، وتمزِّق ما اجتمعَ مِنْ جسدي في نهمٍ وتوحُّش!

لعلَّهُم يُدبِّرون الآن للثأر مِن فعلتي التي تُعَدّ جريمة في حقَّ الجبل وسيِّده لا مُجرَّد إهانة، الموت يُحاوِطني أنَّى ذهبت فأين المفرّ؟

كانوا يُلملِمون متاعهم، يتخبَطُهُم الفزع، قد غلَّقوا دُكَّانهم واستدعوا الزوج الغائِب مُختارًا رفضًا لصنيع "تريزا" وتوغُّلها في عداوة الشيخ، بينما انفضَّ عنها أقرب الأقربين خوفاً مِن التلطُّخ ببراثِنِ الدَّم!

هل كانت دار "سعد" مفتَّحة الأبواب حين انشغلوا بلملمة متاعِهم وما قدروا على حمِلِه بسرعة فتناسوا تغليقها؟ أم كان موصَداً بكلِّ حاجِز؟

أم أنَّ الغضب الغاشِم الذي استبدَّ بنفسِ الشيخِ وذاتِه قد منحهُ قوة هائِلة وعنفواناً فوق قوّتِه، يكفي لِقهرِ المزاليج واقتِحام أبواب موصوفةٌ بالبأسِ والمنعة؟

أم أنَّ تداعيهُم في عجلةٍ جعل إغلاقهُم الأبواب دون التغليق المُطلَق الكافي لِدرءِ مَن يدفعُه أو ردّ باغٍ، ما جعلهُ لا يستعصي على طالِبٍ حين يدفُعُهُ في عُنفٍ !

كان صوت اقتِحام البابِ بِقوَّةٍ مُحدِثاً ضجَّة عاتية، ذكَّرتها بليلةِ السيل، حين اقتحم الأبواب وأهالَ الجُدران وقوّض الدور، بيد أنَّ السيل قدِم مُتسلِّلاً في بداياتِه، ثم اهتاج فاجتاح القرية كُلَّها فحوَّلها لأكوام خراب بعد أنْ اكتسحَ في غضبتهُ كُلَّ شيء...

لكِنَّ هذا المُقتَحِم لم يكُن في توارى السيلِ وخُبثِه، بل جاءَ يدفعهُ الانتقام دون تروٍّ أو تؤَدةٍ أو تفكير، لِتحطيم كُلّ ما يعترِض طريقهُ فأشبه السيل مِن هذهِ الوِجهةَ فقط وإن اختلف عنهُ في طريقة الاقتحام والوصول، فبدا أشدَّ غِلظة مِن عزرائيل - ملاك الموت - الذي يقدُم متوارياً مُتخفِّياً...

ضجيج اقتحام البابِ عُنوة أصاب القلوب بوهَن الطلَبِ فما حرَّكوا ساكِناً فجبُن المطلوبُ ورِفاقُه عن الحركةِ وكأنَّهم قُيِّدوا دون قيد، وكأنّها سجينٌ لم يسوقوهُ مُكبَّلًا إلى مشنقتِهِ بل شقيٌّ أقعدهُ الوَجَل فانتظر مِشنقتهُ أنْ تقدُم إليه دون أن يحاوِل الفرارَ رغمَ فكِّ أسارِه! وكأنَّها كانت تنتظِرُ في عذاب فصل الخِتام في مسرحِ أجلِها؛ تتداعى الصور جميعها أمامهُ في ألَقٍ وسُرعة، تبرُقُ في مُخيّلتهِ الذكريات مُتعجِّلة، يعي فيها كُلَّ ماكان وكأنَّهُ يهرُب مِن القادِم الحتميّ ....

مشدوهةً في صحنِ دارِها وجدت نفسها في مواجهتِه، مَنْ كان البلسم الذي يُلطِّف قسوة أبيه، وإن لم يكن لأبيهِ معها دون غيرِها سوى التلطُّف والمودَّة! عدا ما استُحدث في الآونةِ الأخيرة فأدَّى لِتلك النِهاية الوشيكة.

أشدُّ مِن الموت لحظاتُ انتِظارِه! أتُراهُ شديدَ الإيلام حين تخترِقُ الحشا نيرانٌ تزخر؟ أم أنَّها لحظاتٌ وشيكةٌ ثُمَّ تُحلِّق الروح لا تلوي على شيءٍ في الدنيا ولا فنائها المُعذّب؟

لم يكُن يراها وكأنَّ الغضبَ أعماهُ أنْ يُبصِرَ هلَعَها وضعفها، هي في النهاية امرأةٌ أهون مِن أنْ تُصَوَّب إليها تِلك الفوّهة العمياء، أما كان يكفيهِ لطمها في ثورة غضبِهِ تِلك حتى يُنهي حياتها، لعلَّهُ لو غادَرَ ساعتها وتركها ثابِتةً واجِمةً على حالِها مِن الهلعِ والإرتِعاب لسقطت وحدها جُثَّة هامِدةً!

ما أقساكِ يالَحظات الانتقام حين تُصبحين بِلا قلب، عمياء صمَّاء، عاجِزة عن التراجُعِ والتريُّث، حين يتحجَّر العقل عن التبصُّرِ والرُشد! وكأنّ المُنتقِم أصمٌّ لا تصِل إليه توسُّلات الأملِ والرجاء، وإن لم ينبس بها يكفيهُ حالُهُ ومآلُه فاستسلامهُ وضعفهُ أمضى مِن أي كلمات...

لم تكُن الدار خاويةٌ كانت بِها "نِعمة" و"رءوفة" ابنة خالة "تريزا" وزوجة "ناجِح" اللواتي حلَّقن حولها يُشكِّلنَ حولها دِرعًا حصينةً، تأنُّ مِنهُنّ توسُّلاتٍ بطلبِ الصفحُ لم ترقَ لدرجة الصُراخ...

كانت بطلة المشهد نِعمة التي ألقَت بجسدِها مُستميتةً على والِدتِها التي لم تهرُب ولم تزِح حدقتها عن عين السِلاح الموجَّه لِصدْرِها وكأنَّها تُناشِدُ فوهتهُ ألاّ تُخرِجَ مقذوفها أبدًا أو ينطلِق بسُرعةٍ تُنهي عذابات لحظات الانتظار الأشدُّ إيلامًا مِنَ الموتِ نفسه! فما أطولها لو قيست بمِقياسِ دقَّاتِ قلبِ

القاتِل والمقتول ووجلِهما معًا، وما أقصرها حين تُصبِح آخِر ما تبقّى في حياةِ إنسان، يعقُبُها الإرتِحال إلى عالمٍ مُغيَّب...

ما أهونهم جميعاً أمام يدِهِ الباطِشةِ التي رُبَّما مُنِحَت قوَّةً خفيّةً فأزاحتهُم جميعاً عنها، أو رُبَّما نحَّتهُم نظراتُهُ المُصِرَّة العازِمة، بينما بقيت تريزا وحيدة واجِمة في مرمى غضبهُ تنتظِرُ الافتِراس!

هل وعى أنَّهُ بقتلِها إنَّما يقتلُ مُجرّد امرأة ضعيفةٍ تدفعُ مِن دمِها ثمن تبجُّحِها؟

حين أفرغ خزينة رشَّاشهِ في جوفِها، لم يُثنيهِ سقوطُها ولا صرخاتُها ولا سيلُ الدم الذي ارتوت منهُ تربةُ دارِها، لم ينتهِ حتى كفَّ سِلاحَهُ عنِ القتل حين نفذت آخِرُ طلقاتِه!

لعلَّها سقطت ميّتةً قبل أن تصلها طلقاتُه، فسقطت في بِركة دمائِها حين رأت الموت في عينيه، برز الصراخُ بين ضجيج انطلاق دفعات الرشاش وبعد انتِهائِهِ بدا واضِحًا صاخِبًا جليًّا، لم يعُد يطغى عليهِ صوتٌ اشتعل العويل مُمزِّقاً صمتَ سكون الموتى، كطيورٍ هربَت مِن مُستقرِّها أعلى شجرة عقِب انطِلاق خرطوش الصيّاد، بدويّها المُخيف، فطارت في اضطرابٍ ولغَط، بعد أنْ أمضى القدرُ فيها سهمهُ فسقطَ مَنْ سقط .

مسكينةٌ يانعمة ما أشقاكِ حين رأيتِ أمَّك الثكلى وقد ثكلتِها، ما اشدَّ حُزنكِ ونحيبكِ وأقسى صُراخكِ وجنونكِ، وأنتِ تتوثّبين قاتِلها، بينما يُكبِّلُكِ أهلُك خشية انزِلاقكِ في بئرِها السحيق!

تصرُخين: يا مُجرمون يا قتلة يا سفّاحون حتّى انبحّ صوتُك وفقدتِ وعيكِ، تركَكِ الرِّجالُ وحيدةً حين خشوا أن يُصيبَهُم لهيب الانتقام، ظنُّوا أنَّ عقل القاتِل حين يفكِّر قد يأبى إلا أنْ يأخُذ ثأره مِن الرِّجالِ دون النِّساء، ولو

كُنَّ مُتلبِّساتٍ بألف ذنْب، ولكنَّهُ لم يكُنْ كذلِك، فلم يستسلِم لقوانين الثأرِ وأعرافهُ العتيقة وحاد عنها! أفاقت فازداد عويلها وهياجُها وانكبَّت على جُثمانِ أمَّها السَّابِح في دِمائِه، حين لطَّخ سُلطان شاشَ أبيهِ بالدمّ غير مُكترِث لكُلّ ما حولهُ ، زفراتٌ ناريَّة تنطلِقُ مِن صدرِه، زأر زئيرًا شيطانيًّا وهو يصرُخ أنْ لا يحمِلنَّها اليوم إنسان حتى يأذنَ الشيخُ إمعانًا في إذلالِها حيَّةً وميِّتةً، حتى تغدو عِبرةً وأمثولةً، وكأنَّ قتلها فقط لم يشفِ غليلهِ فأمعنَ في صلبِها في موضِعِ قتلها مُهدرةً على الأرضِ في باحة الدَّار، فبقيت "تريزا" التي كانت تضُجُّ حيويَّةً وغرورًا، عنفوانًا وجمالًا، مُضرجةً في دِماها، مُحرَّمٌ على إنسانٍ أنْ يمُدَّ لها يدًا أو يستُر لها جُثمان! ولكِن ماذا تفعل المسكينة وقد عدم الجبلُ رِجالهُ وشهامتهُم؟

***

يُفيق الشيخ "سُلطان" مِنْ أحلامِه التي أرَّقَت مضجَعَهُ وذكرياته التي تخاطفتهُ خارِج القُضبان: آآه ليتنى رققتُ لنحيبِك يا نِعمة، حين زلزلَ القلوبَ إلا قلبي حينَ أُوصِدَتْ دونَهُ المغاليق، وأنتِ تنتحبينَ لا على قتل أُمُّكِ أمام عينيكِ فقط بل حين منعتكِ مواراتَها أو حمل جثمانِها من موضِعِ قتلِه إمعانًا في إذلالِها، فامتثلَوا جميعًا حين استبدَّ بِهِم الهلَع مِن هولِ ماشهِدوا لجبروتى وتعسُّفى في انتقامي!

لازالَ يذكُرُ حين عاد لأبيهِ بِشاشِهِ المُخضَّب بالدمّ، مُمسِكًا بِسلاحِه الذي نضبت ذخيرتُه مِن عُنُقِهِ، يلهجُ في الحديث، وكأنَّهُ المقتول قد امتقعَ لونُه، وابيضَّت شفتاهُ وكأنَّهُ الذي نزفَ دمهُ لا القتيلة! كانت جذوةُ نارهُ المُشتعِلة تخبو رويدًا رويدًا حتى أوشكت على الأُفُول، كُلَّما ابتعد بقدميهِ عن موضِع الجريمة واقترابِهِ مِنْ حرمِ أبيهِ الذي لازالَ قابَعًا في مكانِهِ لم يبرحهُ، رغم

سماعِهِ دويّ الطلقَات المُتتابِعة كزخَّاتٍ يقضُّ الفضاء هزيعها الرهيب، ينظُرُ للجبلِ واجِمًا لا يعبأُ للشمسِ التي أضحت تسيلُ على جسدِه وجبهتِه!

استبدل الوجوم الحُزن الدفين المبعوث مِن قبرِهِ فأطلَّ مِن عينيهِ وبدا أثرَهُ باديًا عليهِ بعد أنْ استقرَّ في أعماقِهِ...

منح "سُلطان" شاش أبيه لأمِّهِ لِتغسِلهُ، التي لم تدري هل تضحك أم تبكي، طغى الصمتُ على الجميع وكأنّهُم أدركوا أنَّ تِلك اللحظات فارِقة في حياتهم جميعًا وفي حياة الجبلِ وآلِه.

قام الشيخ "محمود" مِن مجلِسِهِ مُتّكِئًا على ساعِدِ "سُلطان" وكأنَّهُ يُنصِّبهُ مملكتهُ اليوم، فأدخلهُ الدار، وكأنَّ ما أصابهُ أثقلهُ وأهرمهُ أعوامًا وأعوامًا في بِضعِ دقائِق!

تسربل في حُزنٍ خاصّ حُرِّم عليه البوح بهِ، فغدا الآمِر بلا كلام الحزين بِلا آهةٍ أو دمع، القاتِل والثاكِل في آنٍ واحِد...

هرع "سُلطان" لدفنِ سِلاح جريمتِهِ في حظيرة البهائِم الخلفيّة بمعاونةِ "سليم" في حضورِ "عبد الماجِد"، وعاد للاغتِسال والرَّاحة التي لم يهنأ بِها!

حينَ توثَّبَ ضميرهُ فجأةً بعد أنِ انقشعَت عنْ عقلِهِ غُيوم الغضب وانجلى ضباب الحميَّة الحمقاء، حين خَلَدَ لمخدَعِه دون أنْ يلتفِت لزوجتِهِ التي غلبتها الدموع وولدِه "جاسِر":

ربَّاهُ ماذا جنيت حين أطاعت يدايَ شيطانِي، ولم تتمهَّل داخلي صرخاتُه المشئومة، لماذا لا يأتيني النوم رُغمَ ما حلَّ بي مِن تعبٍ وإجهادٍ؟

أتيقظتَ الآن أيُّها الضمير؟ يبدو أنَّ النوم الهانئ لن يطرُق جفنيَّ بعدها أبدًا، أين كُنتَ وثورة الانتقام تسوقُني فلا أسمعُ دويّ الرصاص يُمزِّقُ أحشاء امرأةٍ أخطأت... لكِن! ما كان يجِب لي أنْ أتمادى في كيلِ العذاب!

أوَما كانت هُناك حُلولٌ أُخرى؟ أوَما كنتُ أنتظِرُ حتى المساء ريثما تهدأُ الأفكار ويتريَّثُ الغضب، فيعودُ إليَّ جناني فأُبدي رأيًا آخرَ فيما جرى...

لا وألف لا... إنَّها كرامةُ الشيخِ وكرامتنا أجمعين... يُغمِض عينيهِ لكِنَّهُ لا ينام، تضطرِب في ذاتِه الأفكارُ والآلام...

كانت نعمة تتمزَّق بين نارين قتل أمّها وجُثمانها المُمّدَّد دون أنْ يوارى الثرى وكأنَّهُ مهدورٌ مُراق في مهانةٍ لا يجرؤ على التدخُّل لدفعِها عنهُ كائِن...

جبُن الكُلُّ حتى المروءة توارتْ واستباحت لنفسِها اختِلاق المعاذير! خوفًا مِن بطش الظفَّاريين واستِجابةً لتحذيرِهِم، الكُلّ يخشى ويُحاذِر السقوط في أتون الانتقام الذي لم يرحم امرأةً ضعيفةً فأودى بِها في قعرِ دارِها في مُنتصف النهار على مرأى ومسمَعٍ مِن الناس...

رقَّ لِنعمة رجُلٌ أسودٌ فاره الطول بدينٌ كأنَّهُ ماردٌ، كان يقطُن الجبل الغربيّ شمال الأقصُر يجاوِر ديرًا يعتلي جبلاً تقبعُ دارهُ أدناهُ، كانت تربِطهُ برُهبانِهِ مودَّة وجيرة، يتبادلون الأطعِمة والهدايا ويأمنون بتجاورِهِم، كان شيبة الحمدِ يمتِلكُ عربةً نِصف نقل وتِجارة رائِجة يحمل بضائِعهُ بين الجبل وقُراهُ والأقصُر وقِنا، تصادف مروره بجبل "أبو ظفَّار" حين رأى نِعمة تجاوِرُ جُثمان والِدتها المُسجَّى على الأرض يكادُ قلبها ينفطِرُ مِن الصُراخ، فامتدَّ إليها بيدِ الرأفةِ، استدعى الإسعاف وحملها للمُستشفى بعد مُعاينة النيابةِ، غير آبِه بالظفاريين ووعيدِهم، وكان قبلاً مُجِلاً لهم مُعظِّماً.

حين قدمت الشُرطة والمُحقِّقون الذين ذرعوا الجبل طولًا وعرضًا بحثًا عن شاهِدِ واحد حتى أعياهُم البحث، رغم ما تنامى لأسماعِهم مِن مُقتطفاتٍ موجزة لا تقود لِدليل ولا تُشير بإصبع اتهامٍ لِجهةٍ.

مَنْ يستطيع أن يُدلي في أقوالِهِ بشيءٍ غير لا أعلم ولم أرَ؟! مَنْ ذا الذي يشي بمعلومةٍ؟ حتى الجبليّ نفسهُ الذي كُسِرت ساقهُ وهو يُحاجِزُ سُلطان لِمنعِهِ، لم يقُل سِوى أنَّ قدمهُ كُسِرَت حين انزلق مِن فوقِ حِمارِه فسقطَ فانشغل بقدمِهِ وبقدومِ المجبَّراتي عن الحادِثةِ الأليمة التي سمِع بِها سمعًا.

صمتَ الجميع، ومن نطقَ ادّعى أنَّ مَن داهموا بيتها حِفنة من مطاريدٍ مُلثَّمين بُغيةَ السَرِقة، قتلوها حين قاومتهُم.

لم تتكلَّم "نعمة" ولا أهلها، خوفًا مِن بطشٍ مُحقَّق قد ينالُهم أجمعين، واستِجابة لوعيدٍ لم يبلُغهُم لكنَّهُ واقِعٌ أكيد...

نُقِل جُثمان "تريزا" للكنيسة في تابوتٍ حملتهُ عربة (شيبة الحمد)، الذي حضر القُدّاس الجنائِزيّ ثم نقلها لمثواها الأخير، وعاونَ "سعدًا" و"نعمة" على لملمة ما تبقى لهُم مِن متاع، في شهامةٍ نادِرةٍ لم تصدُر عن سِواه.

***

هل تدخَّلَت الكنيسة الكُبرى حين تواصَلَتْ ضُغوط مِن جهاتٍ سياديَّةٍ بِالعاصِمة الكبيرة تتوعد بفتنةٍ طائِفيةٍ تذهبُ بِالأمان، وتُنذِرُ بوقوعِ أزمةٍ وشيكةٍ إن لم يُبتّ في تِلك القضيَّة؟ ملف اضطِهادِ الأقباط... قتل المسيحيين في الصعيد والتستُّر على المُجرِم... كاد يُفتَح كقبرِ "تريزا"، لكنَّ قبر تريزا أُغلِق ولن يُفتح أبداً!

لكنَّ فتح هذا الباب قد يمُدّ جِسرًا لِجهنَّم لا ينقطِع! عن قتلِ الأقباط في وضَح النهار جهارًا نهارًا دون تدخُّلٍ مِن الأمن، أو حِماية أو ردع؟

أُعيدَ التحقيق في الواقِعة التي شغَلَت الرأى العامّ، واستُأنِف التحقيق تحت رقابةٍ عُليا، وتمَّ نقل جميع ضُبَّاط الشُرطة والمباحِث واستِبدالِهم بآخرين مِن القاهِرة وقِنا، في عملٍ دءوب وإصرارٍ على الإيقاع بالجاني...

استطاعوا جمع كلِماتٍ متناثِرةٍ كقُصاصاتِ ورقٍ لملموها مِن فمِ هذا وذاك، فبدت الصورة أكثرُ اتضاحاً، أسلَمتْهُم طرف خيطٍ يقودُهُم للقصر الظفاريّ الكبير!

ما إنْ هدأَت نفس "نعمة" التي عانت لحظات انهيارٍ عصبيةٍ في قسم الأمراض النفسيَّة بالمستشفى العام، حتَّى باحت بالسرِّ كلِّه، وتفصيلاتِ الحادِثةِ المروِّعة في ظُهرِ يومٍ قائِظ.

اهتدوا إلى بقعة الوهنِ الكُبرى في قصرِ "أبو ظفَّار"، ذلِك الجِدار المائِل الذي يرتكِزُ عليهِ البِناء وينهارُ حين يبدأُ الحفرُ بِجِوارِهِ - عبد الماجِد - البكريّ موغَر الصَّدر، بادي الحُنق، الذي استبدَّ بِهِ حسدُ أخيه "سُلطان"، حين فاقهُ منزِلةً ونُفُوذًا، وقُربًا مِن الشيخِ وإعدادهِ لِخلافتِهِ مِن بعدِهِ بل في حياتِهِ...

ألَم يعهد إليهِ دون سِواهُ دفعُ الأذى عن شرفِ العائِلة، وأوكلهُ الأمرَ والنهيَ في مجلِسِهِ، وأمام ناظِريهِ، مع ما حباهُ بِهِ القَدَر مِن جيناتِ أبيهِ وصِفاتِهِ ومروءتِهِ وشهامتِه.

منّاهُ رِجال المباحِثِ بمشيخةِ البلدِ وخِلافةِ أبيهِ... فمَن لها بعد أنْ يُسجنَ "سُلطان" غيره؟ أوهموهُ أنَّ حبس أخيهِ الذي غابَ عن وجهِهِ الابتِسام واقِعٌ لا محالة فما الضّير أنْ ينتهِزَ الفُرصة ويتقرَّب للسُّلطة، ولاسيَّما بعد حبس "سُلطان"، فذلك لن يستغرِق سِوى بضعِ سنوات يخرُجُ بعدها، وقد استعادَ الميزان نِصابهُ واستبدَّ لعبد الماجِد الأمر، وطابت علاقتهُ بأبيهِ واستردَّ ثِقتهُ في أكبر أولادِهِ!

ولاسيَّما بعد أن قبع الشّيخُ في دارِهِ عقِب الحادِثةِ وأوكلَ لـ"سُلطان" الأمر برُمَّتِهِ، مِن إدارةِ أعمال العائِلة ومشروعاتِها، والبتّ في مُعضِلاتِ الجبل ومُشكِلاتِ أهلِه!

مَنْ يعلمُ موضِع السِلاحِ غيرهُما؟ أتُراهُم يشكُّون فيّ؟ أم يطيشُ الشكِّ ويتطايرُ كالشّررِ فلا يُصيبُ أحدًا؟

ويبقى المجدُ والعُنفوان... لعلَّها الفُرصة التعويضيِّة الأخيرة عن سنواتِ الدِراسة الفاشِلةِ والحياة الأكثرُ فشلًا... حين حظي "سُلطان" (ولد سيّدة) بالمجدِ دوني.

دفع طمع "عبد الماجِد" وصدرهُ الموغَر على أخيهِ "سُلطان" أنْ يشي بهِ، بعد أنْ أوعزوا لهُ أنَّ شهادَتهُ سرٌ في مكْتَم، وأنَّهُ سيكونُ رجُلهُم مِنَ الآن، يُعضِّدونَ ساعِدهُ ويقفون بِجوارِهِ فيعينونهُ شيخًا للبلد خليفةً لأبيهِ.

اكتملت أركان الجريمة حين استخرجوا سِلاح الجريمة مِن حظيرة الماشية _زريبة الجِمال_ واقْتيدَ "سُلطان" في مشهدٍ مهيبٍ للسجنِ والمُحاكمة...

سُرعان ما اكتشف الشيخُ "محمود" غدرَ ولدِهِ، حين نظرَ بعينهِ الثاقِبة في عينيهِ الجاحِظتين ليُتأْتِأَ ويسغب فيزدرِد ريقهُ ويُقِرّ ويعترِف.

أصدَرَ الشيخ أمَرا بِطردِهِ من مسكنهِ في الطابَق الذي يعلو مسكنَ سُلطان في القصر، أمَرهُ أنْ يرحل مِنْ فورِهِ، وأنْ يتَّخِذَ دارًا بعيدةً، لا تقَع عيناه عليهِ إلا بأمرِهِ، ازدادَ إقصائهُ وتجاهُلَهُ، رُبَّما احتِقارهُ! وسرعان ما طاشت أمانيهِ في خِلافةِ المملكةِ الجبليَّة، يكفي أنَّهُ لمْ يقْتُلْهُ حين وشى بِأخيهِ وزجَّ بهِ في غياهِب السجون : أيُقالُ أنَّ أبو ظفَّار يقتُلُ بنيهِ؟ كفانا دِماءً ووحلًا، ولو أنَّ هذا

الجبان كان يستأهِل القتل ألف مرَّة، بذرةٌ فاسِدة معوجَّة نبتت في حديقة الظفَّاريين.

بدأ بعدها الوهنُ يتسرَّب إلى عزمِ الشيخ الصلد وكأنَّ الشيبَ اقتحمهُ فجأةً، أوهنهُ مشهدُ اقتياد سُلطان المهيب مِن تحت جناحِهِ، يُساقُ بعدها إلى قفص المُجرِمين...

لن يعدم الحيَل لخلاصِهِ ولن يألوا جهدًا ولا مالًا ولو أنفق أموالهُ جميعًا في سبيل ذلِك، بيد أنّ القضيَّة قد حيكَت لهُ بحرَفيَّة شديدة فأحكمت حولهُ شِباكَها، ما جعل عشرةً من كِبار محاميي القاهِرةِ والإسكندريَّة بينهُم مستشارٌ سابِق، يعجَزون عن استصدارِ حُكمٍ بالإفراج على ذِمَّة القضيَّة، أو يوهِنوا إثباتاتِ النيابة.

أُسبِلَت للقضيّة الأيَّام التي استطالت لتغدو شهورًا، وكأنَّها تُرخي سُدُلها وتمطُّ جِلدها فتتعاظَم لِتتلبَّس كِيانًا ضخمًا بِحجمِ الكارِثة!

لم يكُنْ استطالة أمَد البتّ في القضيّة نذيرَ خيرٍ أبدًا، حين هُيِّج الرأيُ العام، فطرأتْ ضغوطٌ خارجيَّة، هيَّجتْها أفكارُ الطائِفيّة واضطهاد الأقباط، وتعالَت الأصوات المُطالِبة بأقصى الحزم مِن داخِلِ البِلادِ وخارِجها، لعِبَ فيها أقباط المهجرِ دورًا محوريًّا للوصول بالعقوبةِ الموقعة على "سُلطان" بسببِ جريمتهِ النكْراءِ إلى أقصاها، أضحتْ قضيَّة رأي عام تداخلَت فيها الصَّحافة والإعلام، وانتشرَت شائِعات توحي بِأنَّ أقباط الصعيدِ يُقْتلونَ في وضَحِ النَّهار، تحتَ سمْع وبصَر الجميعِ وتقاعُسِهِم، ليتوالى تأجيل المُحاكمةِ التي ذاع صيتُها، فأصبحت كمارِدٍ ضخمٍ يملأُ مابينَ السماءِ والأرض، يرهبهُ الجميعُ ويُفزعهُم صليلُه، لِتزدادَ الضُغوط وتُأَجَّل القضيّة أيّامًا وشهورًا،

يشيخُ فيها الشيخُ كأنَّها أعوام، ويضطرِبَ جسد "سُلْطان" الفارِع بِأمراضِ الهِرمِ قبل الأوان.

فِي جلسةِ النُطقِ بِالحُكمِ، بينما قاعة المحكمةِ مُكتظَّةٌ عن آخِرِها، تفوحُ مِنها رائِحةُ العرقِ والضجَرِ والخوف!

تكادُ الأجسادُ المُتراصَّة على المقاعِدِ تتلاحمُ مِنْ فرطِ التزاحُمِ والالتِصاق، جماعةُ حُقوق الأقباط تضطفُ في الجهةِ اليُسرى مِنَ القاعةِ قُبالة المنصَّة، تجلِسُ نِعمة وأبوها وبعضُ أقربائِها في الصف الذي يليه، ترتدي جِلبابًا أسودَ سميكًا مِن قطيفة مخمليّةٍ يبدو أنَّهُ كانَ لأمِّها في السابِق، تُغلِّف رأسَها بِالحُزن وتغطّيهِ بعباءةٍ سوداء غليظة يسمونها الجبَّة على عادة الجبليين حين يرتدون مُسوح الأحزان، تطيشُ عيناها يُمنةً ويُسرةً بين الجهةِ التي تضمّهم والجهة اليمنى بجِوارِ قفصِ الاتهام، وتضُمّ الظفَّاريين جميعًا عدا عبد الماجِد الذي غابَ عن الحضور منبوذاً مطروداً مِن كنفِ الأُسرةِ ووُدَّها بعد أنْ أورَدَ أخيهِ موارِدَ الهلكة، فوشى بِهِ عامِدًا أو مخدوعًا، كما تواجدَ كِبار المُحامين الذين شكَّلوا جبهة دِفاعٍ صلدة لتفنيد إدعاءات النيابة، جلس الشيخ "محمود" بوجهٍ آخر عابِسٍ تلبَّستهُ الظنون يقرعُ الأرضَ بقدمِهِ اليُمنى وكأنَّهُ ينتظِرُ الحُكمَ عليهِ لا على سلطان، يحدُج المنصَّة بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ كأنَّهُ يُناجيها، يتحاشى النظَر ناحية نِعمة التي كان يبثُّها عاطِفةً خاصَّةً جِداً ويُضفى عليها مِن حُنوِّه الشحيح، وكأنَّهُ يخشى على قلبِهِ الصلد أنْ يلين أو تُداخِلهُ الرأفة حين يتطلَّع في وجْهِها الصَبوح، بينما هي تختلسُ النظرات بين وجهِهِ ووجه سُلطان مشدوهةً يائِسةً...

كان سُلطان في قفصِ الاتهام كأنَّهُ سبعٌ أسير يُحملِقُ الجميعُ فيهُ، ثابِتَ الجِنان رابِطَ الجأش، ثبَات منْ لم يُسِل دماً أو يُزهِق روحاً وكأنَّهُ بطلٌ مِن

أبطالِ الأساطير! يرتدى رِداء الحبس الاحتياطيّ الأبيض وغِطاء رأس مِن اللون نفسه.

كانت تُشيحُ عينيها كُلَّما قاربَت أنْ تصطدِم بِنظراتِهِ المُتحدِّيةِ الوثَّابة، التي لم يوهِنها مآلهُ، حين صار مأسوراً مُكبَّلاً ، تُجيلُ بصرها في القاعةُ ، ثُمّ تئوب بعينيها للميزان المنقوش بِبروز على الحائِط الخلفى لمَنصَّة القُضاة، وكأنَّها تتعلَّقُ بحِبال العدالة، ترجوها أن تُضمِد جِراحَها، وتُضفى بلسمها على شقائِها علَّها تستريح .

شقَّ صوتُ الحاجِب اللغطُ والضجيج الذي هيمن على القاعة التي أضحت أشبهَ بِسوقٍ صغير بجلبتِهِ وطنينِهِ... هاتِفاً محكمة... فاستنهض الجميع مِن همهمتِهم وصخبهُم ليُلبُّوا النِداءِ، ويُخيّم صمتٌ يُغلِّفُ القاعة، الكُلُّ مُتَرقِّبٌ ينتظِر ماستُسفِرُ عنهُ أحداثُ المُحاكمة الشهيرة...

دَلَفَ مُمثِّل الادّعاءِ (وكيل النائِب العام) متوشِّحًا وِشاحهُ الأخضر الذي يُحيطُ كتِفَهُ الأيمن وصدرهُ، فوقف خلف منصَّةٍ صغيرةٍ على يمين منَصَّة القُضاة في مواجهة الجالِسين، تلاهُ القاضي ومُستشارَيهِ، تعلوهم الهيبةُ والجلال، لم تعُد هيبةُ الشيخِ وابنهُ في القفص تُبْدى توهُّجاً، وإنْ بدا الشيخُ محمود في جِلستِهِ الحزينةِ في ألقٍ مُميَّز، جعلهُ ظاهِر الوقارِ بين الحاضرين، لا تُخْطِأهُ عين، بين أبنائِهِ وعائِلتِهِ وحلفائِه، فبدا كبيرهُم دونَ أن يُفصِح أحدٌ عن ذلِك.

غابت عن الجلسة نِسوةُ العائِلة كُلَّهُنَّ، لم يكُنَّ يُسمح لهُنَّ بالخروج لمجالسِ العامَّة، مهما كانتِ الأسباب، وجاسِر الذي كان أصغرَ مِن أن يتحمَّلَ موقِفاً كهذا أو يفقههُ، فلرُبَّما اصطرخَ باكياً فزلزلَ ثبات الواجِمين وانهار تماسُك الرِجال وخارت عزيمةُ أبيه.

الجميعُ مُتلهِّفون... كان الشيخ "محمود" رابِط الجأش كأنَّهُ بحرٌ زاخِرٌ لا يُبدى سطحُهُ ما اعتملَ في أعماقِهِ مِن أسرار، تتسارعُ دقَّاتُ قلبِهِ المُتلاحِقةِ، وكأنَّها أعلى مِن طرقات القاضي بمطرقتِهِ الخشبية لإضفاءِ السكون على المكان ودعوة الحُضور لِلإنصاتِ والهدوء...

توالت النيابةُ في سردِ تفصيلاتِ الواقِعةِ وإضفاءِ صِفات الجُرمِ والوحشيّة عليها، كان وكيل النيابة الشاب النحيف المُتأنِّق في بذَّتِهِ يعلو صوتهُ ويخبو في غضبٍ واضِحٍ، وكأنَّ بينهِ وبينَ سُلطان ثآراتٍ قديمةٍ قائِلا: لم يكتفِ بقتلِها جِهاراً نهاراً في تحدٍّ سافرٍ للرحمةِ والقانون بل بالغَ في امتهانِها حين منعَ نقلَها وتركها مُهدرةً مهُانةً وكأنَّهُ يقتُلها مرَّةً تِلو أُخرى.

بينما القاضي في هُدوءٍ مُستفيض يُنصِتُ لهُ وللشهود، تلاها مُرافعةُ الدِفاع الذين جاهدوا في تمكُّنٍ وحِرفيَّةٍ لسوق القضيّة خارِج دائِرة الفتنة الطائِفية والاضطهاد، صدروا دِفاعهُم بأنَّ المُتَّهم ووالِدهُ من حُماةِ الجبلِ الذي شهِدَ لهُ فيهِ النصارى قبل المسلمين بِالعدل وإسباغ الأمان على الجميع، وأيَّد كلامهم شهودٌ مِن الطرفين...

في أوديةٍ شتَّى ارتحل المُحامون والنيابَة، عدا مِنطقةٍ مُحرَّمةٍ كان الجميع يتحاشى الانزلاق إليها، علاقة الشيخ القديمة بـ"تريزا" وثمَرتها، لم يطرُقها طارِقٌ أو ينطِق بِها لِسان، لعلَّها كانت مكبوتةً في صدور الناس يخشى أحدٌ أنْ يتوغَّلَ أو يخوضَ فيها؛

يسيطِرُ على "نعمة" طوال المُحاكمةِ حُزنٌ ونِقمةٌ على الجبلِ وآلِه... تقتحِمها صورةُ أمِّها في صحنِ الدارِ مُلقاةٌ على الأرضِ كالخرقةِ البالية سابِحة في دِمائِها وما مِنْ مُجير.

انطلقَ صوتُ القاضي الأجشّ في هَيبةٍ: الحُكمُ آخِر الجلسةِ بعد المُداولة...

ساعةٌ كأنَّها الدهرُ على سُلطان وعائِلتهِ ونِعمة وعشيرتِها مالبِثت أنْ انتهت بدخولِ القُضاةِ القاعة مرَّةً أُخرى عقِب مُداولاتٍ خضعت لضُغوطٍ هائِلةٍ...

الحُكم على سُلطان بِالإعدام شنقًا، زلزلت أركان القاعة، وكأنَّ عاصِفةً عصَفت بالحاضرين، لم ينبس أحدٌ بِكلِمة سِوى الجماعات الحقوقيّة ووفد أقباط المهجَرِ، التي ظلَّت تهتِفُ وتُصفِّق في هرج، حتى آل القتيلةِ لم يُحِركوا ساكِناً وكأنَّ النُطقَ بإعدامِ القاتِلِ صدمهم جميعاً، أحسَّت نِعمة أنَّ شيئًا مهمًّا يخُصّها أوشك أن ينتهى نهايةً حزينةً مؤلِمة كأُمِّها وكأنَّ بعضَها يُفنى بعضا، أمَّا أهلُ الجبلِ مِن عائِلةِ الشيخِ فقد غلبَهُم الوجومُ والصمت الحزين، وتملَّك الخوف الباقين مِن أهلِها خشية بطش الشيخ وعائِلتِه وانتقامهُ لابنِهِ مِنهم، وكأنَّ الفصل في القضية حُكمٌ قد اغتال أحلام الفريقين وأمانهُم فودُّا لو انتهت القضيَّة بِلا حُكم، أو ظلَّت بِلا نِهاية، وعادوا جميعاً لُحضن الجبلِ كما كانوا لا لهُم ولا عليهم، يكفيهِم انتِقاماً ماعاينوه مِن الحالة المُزرية التي أصبح فيها "سُلطان" في القفص والهمَّ الذي فاض كيلُهُ في قلوب الظفَّاريين جميعًا...

نهض الشيخُ مِن جِلستِهِ واتَّجَهَ صوب "سُلطان"، في نظرةٍ صامِتةٍ تنطِقُ بِلا حروف تعِدُهُ ألا ينتهي هذهِ النِهايةِ ولو أفنى الجبل بِما حوى.

كانت القُضبان الحديد تتخلَّلها شبَكَةً مِنهُ تفصِلُ بينهُما في تحدٍّ سافِرٍ مِن نوعٍ جديدٍ لم يألفاهُ، صرخ "سُلطان" في يأسٍ: "جاسِر" يا أبي فقط "جاسِر" ووجيدة...

يرُدُّ الشيخُ "محمود": لن يُربِّيهِ غيرَك ولن يعنى بِهِما سِواك اطمئِن يا ليث بيت أبو ظفَّار...

فيُجيبُهُ "سُلطان": لله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعد، وكأنَّ موتَهُ صار أمرًا حتميًّا لا أمل في ردِّه.

***

جابَ الشّيخ "محمود" ليلتها بيوت أقرِباءِ تريزا بيتًا بيتًا، حُلفاء الأمسِ القريب، يدقُّ بكفِّه الضخمةِ أبوابها، فترتجُّ الأبوابُ، كأنَّها ترزحُ تحت قذف منجنيقٍ، يتوعَّدهُم الخرابَ والفناء، إذا صاروا سببًا في نِهايةِ ولدهِ وصفيِّهِ سُلطان...

فبثَّ في قلوبِهِم رُعبًا ارتجفوا لهُ وداخَلَ نفوسَهُم في وَجَل، لا يدرون أين المفرّ؟

استماتت محاميو الشيخ في الاستئنافِ آملين تخفيفَ العقوبة مِنَ الإعدام للحبس أيًّا كانت مُدَّتُهُ، جُلُّ أملِهِم إزاحةُ شبحِ الموتِ عنهُ، بعد أنْ صارَ حبلُ المشنقةِ الأقربُ إلى عُنُقِهِ...

كانت ليلةُ الحُكمِ النهائِيّ أشدُّ وقعا، ففيها الخلاصُ أو النِهاية التي ليس بعدها مناص، وكأنَّ الجبلَ بِمن فيهِ يتلو صلاةً واحِدةٍ لربٍّ واحد أنْ يُنجي سُلطان مِنْ شبحِ الموت المُحقَّق، رُبَّما صلَّى ليلتها الأقباط في توسُّلٍ وضراعةٍ أنْ تُوهَبَ الحياةُ لِسُلطان، لا حُبًّا فيهِ بل ليحيَوا معهُ ويُوهَبوا بِنَجاتِهِ حياتَهُم المُهدَّدة، كُلَّما تذكَّروا نبرةَ الوعيد في صوتِ الشيخِ الأَجَشّ، التي هيَ حقيقةٌ أكيدةٌ لا تقبلُ الشكَّ في عزمِهِ على المُضيّ في تنفيذِهِ، كانوا يُدرِكون ذلِك تمامَ الإدراك، فما علِموهُ هازِئاً أو مُتوانِيًا أَبَدًا...

في محكمةِ النقض خُفِّفَ الحُكمُ على "سُلطان" مِن الإعدام للمؤَبدْ، لم يكُن أهونَ كثيرًا مِنْ إعدامِهِ، لكنَّ بقاءَهُ على قيدِ الحياةِ كفيلٌ أنْ يُضمِّدَ بعضًا مِنَ الجِراح، فهوَ وإنْ أُقصي بعيدًا في غياهِبِ سِجْنِهِ إلا أنَّهُ لن يزَلْ حيًّا،

يُمكِنهُم زيارتهُ ومُبادلتهُ الحديث، التطلُّع في وجهِهِ والإنصات لِكلِماتِه، ومَنْ يدري؟ ماذا في الغد؟

فهوَ وإنْ كانَ جزءًا مِنَ الفَقْد بيدَ أنَّهُ أحظى مِنَ الفقْدِ كُلِّه، حين يترنَّحُ جُثمانَهُ مُعلَّقاً في حبلٍ غليظ، فيحظى بنهايةٍ مؤلِمةٍ مأساويّةٍ كالّتي حاكَها لتريزا...

فقط يبقى الليثُ ليثًا وإنْ باتَ في قفصٍ ولكِن! أيَقْضي عُمرهُ الباقي كُلّهُ مُهملًا بين غياهِبِ جُدران؟ ويتخلَّى مُرغمًا عن طُموحِ حُلمٍ قد أُعِدَ لهُ، بعد أنْ كان أقدَرَ أبناءِ الظفاريين على ملءِ فراغِه!

أمَرَ الشيخُ "محمود" بِطردِ أُسرةِ القتيلة ومنع عودتَهُم للجبلِ مُطْلَقًا؛ لِذا عزَمَ "سعد" على مُبارحة الجبلِ بابنتِهِ بِلا رجعةٍ، فقد كانوا على رأسِ المطرودين أليس زوج "تريزا"، و"نعمة" وحيدتها؟ الضحيَّة التي تدفعُ ضريبةَ جُرمٍ قديمٍ لَهُما لم تشهدهُ، وجُرمٍ آنِيٍّ لم تكُنْ شريكةً فيه، حين تحوَّل قلبُ الشيخِ لِصخرةٍ لا تلين، بعد فقدِهِ صفوة أبنائِهِ وأعلاهُم قدْرًا ومهابةً، وأقْدرهُم على خِلافتِه، ليَطيشَ الحُلم الأكيد، حين يغدو مجدهُ مُجَرَّدَ رقم مطبوع على قميصِه في سِجلات السُجون.

وآل "تريزا" أكان يمكِنهم المُكث في دارٍ تلطَّختْ جدرانُها بالدمّ وتركت الطلقات المُنهمِرة الطائِشة بصماتِها فوق الجُدرانِ، تُبرِزُ ألف معنى، حين أزالت طِلاءهُ وأودَعَتْ فيهِ ثُقُوباً ضيِّقةً بِحجمِها، لاتزالُ آثارُ بركةِ دِماءِ تريزا باقيةً وإن غمروها بِالتُراب وكأنَّ روحها تُحلِّق باكيةً حولها، حين تدفَّقَ مِن جسدِها الدمُ كصُنبورٍ لم يفتُرْ حتَّى جفَّ نبعُهُ، ونضَبَ معينُهُ، وكأنّ جسدَها جزيرةً أحاطتها المياه، لكنَّها حمراءٌ قانيةٌ بِلونِ القسوةِ والموت، فخلا وجهها

مِن دِماهُ كأنَّهُ خِرقةٌ باليةٌ وقِطعةَ نسيجٍ صفراء باهِته، بعد أنْ سكَنتْ رصاصَاتهُ جسدها الرخو.

لم يستثن الشّيخ "محمود" مِن الطَّردِ مِن كنفِهِ سِوى بعض البيوتِ التي تدينُ لهُ بِالوَلاءِ المُطْلَق، مأسورة بِفضلِ جميلِهِ في حِمايتِهم، والوقوفِ بِجوارِهِم في محِنة السّيلِ والخَسَارة، فغادر بيت "سعد" وإخوته وآل "تريزا" وأبناءهُم، بعد أنْ أمهلوا فترةً وجيزةً، لا يأمنون بعدها انتقامَ الظّفَّاريين.

باعوا في عجَلةٍ كُلَّ أملاكِهم بثمنٍ قد لا يكونُ بخسًا، لكِنَّهُ لا يربو على جبرِ خسارتِهم، التي لن تُعوَّض، حينَ غادروا بيوتَ عِزِّهِم وحوانيتِهم تعصِفُها الرِّياح، وتِجارتهُم التي لم يُسمح لأحدٍ باستكمالِها، وبقيت دارُ "تريزا" الكبيرة المُطِلَّة على الشَّارِع الأوحد الكبير الذي يخترِق القرية وتتألّف مِن عددٍ مِن المباني والدكاكين في مواجهةِ درب النَّصارى مهجورة خاوية تُصفِّقُ فيها رياحُ القهرِ والخسفِ والظُلم، غاضت جُدرانها حين علا الطَّريق بفعلِ تتابُعِ الأيَّام، فصارت نوافِذها قريبةً مِن الأرض، قد أصابَها البِلى وتساقطَ طِلاؤها، بعضُها مُغلّقٌ وبعضُها أوهنته الأيَّام، تصطكّهُ الرِّياح وتأكُلهُ الشَّمس، حين يُطِلّ مِنها المارّ لا يرى سوى الظلام والخراب، وتترست أبوابها، حين حاوطها رُكام التُّرابِ وأكوامُ القِمامةِ فلم تعُدْ تُفتحُ أو تُغلق... أصبحت كالأثَر عِبرةً وتشفّيًا، هل رفض الشيخُ أن يُفتحَ لها باب مرَّةً أُخرى فتتجدَّد الذِّكرى والأحزان، في بيتٍ ولجَ فيهِ العِشق والدمّ، وانهارَ فيهِ حُلم آل "ظفَّار" ومجدها في لحظةِ طيشٍ وانتِقامٍ غيرِ مُبَرَّر! فأضحَت مُغلَّقةً خاويةً تحكي قصة الحُبِّ ورائِحةِ الموت، وتشهدُ عليهِما بعد أنْ تحوَّل الحُبُّ لِثأرٍ لعين.

تنصَّلت كثيرٌ مِن عائِلاتِ نصارى الجبلِ مِن تريزا وآلِها، لينعموا بالأمان والمُكثِ في بيوتِهم وأراضيهِم، ولو على سبيل المواراةِ والمُداهنة، فينجوا مِن بطشِ الظفَّاريين، مِنهُم آل "غطَّاس" الذين تربِطُهُم صِلة قرابة بـ"تريزا" من جهة الأجداد، وآل "بشندي" الدَّجَّال، حتَّى رءوفة ابنة خالة تريزا ورفيقة عُمرِها وزوجها "مصري"، توسَّلا للشيخ محمود أنْ يدَعهُم آمِنين، فذرفَت "رءُوفة" أدمُعًا في حضرتِه وهي تقول: ليس لي ولِزوجي وابنتايَ مِن مأوى، ولا نملك مالًا سوى دُكَّان البِقالة الفقير هذا فارحم فقرنا ولا تؤاخذنا بجريرةِ غيرِنا!

والغريب أنَّ الشيخ استثناها مِن الطَرد رُغم صداقتِها المتينةِ مع "تريزا" ابنةِ خالتِها وجِوارهما اللصيق خصوصًا في اللحظات الأخيرة في حياتِها!

الحناء

صبيحة يوم الحِنَّاء مرقَ "جاسِر" كالسَّهمِ في البكور تجاهِ دارِ صديقِهِ وصفيِّهِ "مُرتجى" ولد "بشندي" في حارة النَّصارى التي تُشبِهُ الأُخدود في التَّعرُّجِ والضّيقِ، يتلفَّتُ في سيرِهِ خشيةَ أن يراهُ أحدٌ، لم تكُن خشيتهُ نابِعةً مِنْ طرقِهِ محلَّة النَّصارى فهو دائِم التَّردُّد عليها لزيارةِ صديقِهِ مُرتجى، وإنَّما خشية أن يفطُنَ أحدهُم إلى مُرادِهِ في لِقاء "بشندي" والِد صديقِهِ في هذا الموقِفِ والتَّوقيت!!!

اجتازَ "جاسِر" الدَّربَ مُسرِعًا كأنَّهُ البرقُ، وحقَّقَت لهُ المقاديرُ ما تمناهُ حين وجد العجوزَ جالِسًا القُرفصاء في مدخلِ دارِهِ، بينما بابهُ مفتوحًا على مِصراعيهِ قابِضًا على مِعصمه الأيسر بِكفِّه الأيمن حول ساقيهِ اللتين يلفّهما بذراعيهِ أسفلَ رُكبتيه المُنثنيتين، مُدليًا ذقنهُ بين رُكبتيهِ، فبدت ساقاه مع ذراعيهِ وحدةً واحِدةً فانفرجت أساريرهُ، وبدا لهُ أنَّ أمرهُ مقضيٌّ ميسورٌ، أقبلَ عليهِم فحيَّاهُم بِهدوء، كانت زوجتهُ العجوز دميانة، تُعِدّ لهُ وجبةَ إفطارِهِ وهي امرأة بيضاء وجهها ناحل مشوبٌ بقسَماتٍ هادِئةٍ تتسربلُ في جِلبابٍ أسودٍ يضيقُ أعلى بطنها، بينما بدا شعرها الأشيب تحت غِطاءِ رأسِها، ودودة كأنَّها أمٌّ لكُلّ الشَّباب، حنونةٌ كأنَّها أطلقت الجميعَ مِنْ رحِمِها!!! فهشَّت لجاسِر وقبَّلت جبينهُ وقالت: ألف بركةٍ يا عريس، أتمَّ لكَ الرَّبُّ على خيرٍ وسعادة.

بينما أجلسهُ بشندي على أريكةٍ في مدخلِ البيت وأبى عليهِ أنْ يجلِس على الأرضِ بِجوارِه، قدمت والدة مُرتجى تحمِلُ صينيَّة الطَّعام، جَلَبَتْ فوقها جُبنًا مُملَّحًا قديمًا قدِ اصفرَّ لونهُ مِنْ جرَّاء تخزينِهِ وعسلًا وقشْدةً ورغيف خُبزٍ

شمسيّ سميك كأنَّهُ كعكةٌ مُستديرةٌ أو كأنَّهُ الشَّمس ذاتها تبرُزُ مِنهُ بروزاتٌ أربعةٌ، وهي زوائِد مقصودة تُعْنَى بصُنعِها نِسوة القِبط في خُبزِهِنَّ فيجعلنهُ يُماثِلُ الصَّليب ويومئ إليهِ، في إشارةٍ واضِحةٍ إلى تديُّنِهِنَّ، وتبرُّكًا بهِ، وفي لمحةٍ فطِنةٍ قامت دِميانة بقطعِ الزَّوائِد الصَّليبيَّة في خُبزها، بينما وضعت الصّينيَّة قُبالتهُ، فكّ "بشندي" يديه المعقودتين ونهضَ مُستنِدًا على الأريكة، وجلسَ في مواجهة "جاسِر"، حاثًّا إيَّاهُ على الإفطارِ معهُ قائِلًا: مُدَّ يدكَ وافطر معنا، لن يُصيبك مكروهٌ بمشيئةِ الرَّبِّ، وكأنَّهُ حَدَس بِحِنكة السِّرّ في زيارةِ "جاسِر" صبيحة يوم حِنَّائه، في البكور، وقت غياب رفيقِهِ الأثير "مُرتجى" عن المنزِل، أحجم "جاسِر" عن الإفطارِ معهم مُتعلِّلًا بتناولِه قُبيل خروجِهِ، بينما ألحت عليهِ الأُمّ دميانة لتناول بعض الفايشِ مع الشَّاي ريثما يفرُغُ بشندي مِن أكلِهِ، وهي ترمُقهُ بنظراتِ حنوٍّ بالِغ، داعيةً لهُ بالهناءِ والبنين، فقلبها لم يعرِف يومًا الكراهية أو الحِقد، ولولا ذلِك أكانت تُطيقُ عِشرة "بشندي" بِشطَطِهِ ودجلِهِ دون تبرُّم أو شكوى؟

اتجهَ "بشندي" متوكِّئًا على ساعِدِ "جاسِر" تجاه حُجرةِ الأعمال في البيتِ اللصيق الخرِب، بعد أنْ طلَبَ "جاسِر" مِن العمِّ "بشندي" رغبتهُ أنْ يبُثَّهُ أمرًا خاصًّا، جلسَ "جاسِر" قُبالتهُ مُطرِقًا محنيَّ الرَّأس، فاجأهُ بشندي بِفطنتِهِ فاستنتجَ ما أحجمَ "جاسِر" عن قولِهِ: ارفع رأسكَ يا ولدي، أتُراكَ تخشَى الرَّبطَ ليلة زِفافِك؟

فيُجيبُهُ "جاسِر" في أسىً: لي أضدادٌ قد يحيكونَ لي عملًا يجعلني أبوء بِالفشل!

يرُدُّ "بشندي" في ثِقةٍ مُفرِطة: لا تخشَ شيئًا وعمّك بشندي موجود!

ربَّما خشيَ "جاسر" "مايسة" البدويَّة التي كان يسترِق زيارتها بين الفينة والأُخرى، والتي لم تكُن تفتر لهُ ثائِرة إلَّا بين فخذيها، كانت تهيمُ بِهِ حُبًّا رغم أنّ سِنَّها يُقارِبُ ضِعف عُمرِهِ، فأرتهُ العِشقَ والهوى أفانين، لعلَّها حنقَتْ عليهِ حين علِمت بِزفافِهِ بعد أنْ أوعزَ لها في آخِرِ لِقاءٍ أنَّهُ قد يكونُ آخِر عهدِها بهِ وعهدِهِ بحياةِ العبثِ والمُجون، فلم تُبدِ ضجرًا رغمَ اشتِعالِ قلبها وشعورها بِالذِّلَّةِ والمهانة، وأنَّها مُجرَّد وسيلةٍ لإفراغ شهوةٍ حانَ وقتُ قضائِها، حتَّى كسَدت تِجارتها بعد أنْ نهلَ مِن جُعبتِها بِنَهم كيفَ شاء، فأضحت بضاعتها رخيصةً مطروحةً، مُتاحةً في كُلِّ أوانٍ دون ردّ!!!

رُبَّما صمَّمتْ في مرارةٍ وحُنقٍ على إيذائِهِ والنّيلِ مِنهُ بِعملٍ سُفليٍّ تُمعِنُ في طلسمتِهِ وعقدِه، ومَن لهُ غيرُ بشندي ساحِرِ القِبطِ والعرب، الذي لا يخيبُ لهُ مكرٌ؟؟؟ التقطَ بشندي ورقةً بيضاء مِنْ كوَّةٍ في الحائِط خلفهُ وأحضرَ دواةً وقلمًا من البوص، وهي عُقلة مِن بوصٍ قد شُذِّبَ طرفُها، حتَّى أصبح كسِنِّ قلم الحِبرِ، وغمسها في محبرتِهِ وبدأ يكتُبُ على الورقةِ بِخطوطٍ عرضيَّةٍ كأنَّها نقشٌ سرياليّ غير مُنتظِم أقرب ما يكونُ للرَّسمِ مِنهُ للكتابةِ، وكأنَّها أحرُفٌ صينيَّة بِلُغةٍ غير مقروءةٍ، عني بتطبيق الورقة بإحكام بطريقةٍ فريدةٍ وبِخفَّةِ يدٍ لا تُبارى، وجلب خيطًا مِن بكرة صوفٍ ولف الورقةَ بِها بعد أنْ غلَّفَها بورقةٍ أُخرى مُفضَّضةً، أمعَنَ في تغطيةِ الورقةَ بِالصّوف الذي لفَّهُ بِإحكام دون أنْ تُخطئهُ يداهُ، بطريقةٍ جعلت الحِجاب ورقةً مطويَّةً مُثلَّثةً صغيرةً، أعطاهُ "جاسِر" الذي بدا ذاهِلًا مِن قُدرة العجوز على إتقانِ هذا العمل في ثوانٍ دون أنْ تُخطئ أصابِعهُ، قال "بشندي" وهو يبتسِم:

اجعلهُ أسفل ملابِسكَ في جيبٍ داخليٍّ لا يُفارقكَ حين تأتي عروسك واقلِب ملابسك اللصيقة بِجِلدِك، وبلِّل ما جفَّ عِند ولوجكَ بريقِك وبعدها تخترِقُ الحديد!

شكرهُ "جاسِر" مُمتنًّا، وأكَّدَ عليهِ حضور حفل الزِّفاف، بعد أنْ رفضَ عرضَ "جاسِر" بدفعِ مُقابِل ثمن الحِجاب بإصرارٍ، باسمًا، وهو يقولُ: هذا أقلُّ شيءٍ نُقدِّمهُ لحفيدِ كبيرنا الشّيخ محمود والصَّديق الأقرب لوحيدي "مُرتجى"...

غادرَ "جاسِر" مُمتنًّا بعد أنْ كرَّرَ عليهِ الدَّعوةَ وحضور الوليمة مع "مُرتجى"، ردَّ "بشندي": كما ترى يا ولدي لم تعُد بي طاقة للسَّير ولا قُدرة على السَّهر...

فيرُدُّ "جاسِر" في مزاحٍ اشتُهِرَ بِهِ: لابُدَّ مِن حضورِك حتَّى إذا فسد الحِجابُ راجعناك لِتُصلِحهُ، ضحِك الرَّجلُ مُقهقِهًا وهو يقول: اطمئِن يا ولدي فأحجِبةُ عمِّك بشندي تُقيمُ المرخيَّ والمُعوج، نافِذة لا تخيب، ووعدهُ بالحضور مع ولدِهِ.

***

العرس

نُضِّدت الموائِد للعُرسِ الكبير، وأُقيمتْ للعروسينِ كوشةٌ خاصَّةٌ في رُكنٍ قصيّ مِنَ الحديقةِ الشَّاسِعة، ناحية الجبَل، بعيدًا عن أعيُن الرِّجال، فقد خُصِّصَت للنّسوة دونهم، فلا تبدو زينتهُنَّ لمُتطلِّعٍ غريبٍ، وقد أعِدَّ مسرحٌ في السّرادق الكبير على يمينِ الدَّاخِلِ ممَّا يلي القصر، الذي خُصِّص طابقهُ الأوَّل لوليمةِ العُرس...

جلبوا فيهِ قارئًا شهيرًا مِنَ القاهِرة يعمل بالإذاعة، وينتمي لِنجعٍ مِن نجوع الحاضِرة المُجاوِرة، تنحدِرُ مِنها أصولُه...

على عاداتِهم في الأفراحِ اصطفَّ "سليم" و"عبدِ الماجِد" و"سعيد" لاستِقبالِ المدعوّين، الذين يقدُمونَ أفواجًا مُتَتابِعة، بينما تولَّى نصر وأبناء عمومتِهِ، اصطِحابَ الأضيافِ إلى بهوِ القصرِ، حيثُ الموائِد المُمْتدَّة العامِرة بأشهى الأصناف، التي أعدَّها طبَّاخون مهرة جلَبَهُم سليم من فندق (الوِنتر بالاس) بالأقصُر...

يقوم على خدمتهِم الجيل الثَّالث في العائِلة الظّفَّاريَّة مِن أبنائها الذّكور، وعلى رأسِهم "عُمر" ولد "عبد الماجِد"، وبعد الانتِهاء مِن عشائهم يقدُمُونَ للسرادق يستمعون فيهِ للمُقرئ، وهو يتلو آيات الذِّكرِ الحكيم، وهي عادةٌ متأصِّلةٌ عِندهُم في الأفراح والمعازي، يتبرَّكون بالقُرآن، فيُصبِح عِندهُم رفيق السَّعادةِ والحُزن، ثمَّة اختِلافٍ طفيفٍ بينَ صوان العُرسِ وصوان العزاء الذي تغلِبُ على فِراشتِهِ الألوان القاتِمة الكئيبة، ويخلو من الأضواء المُبهِرة الزَّاهيَة الوضَّاءَة، حين تغلِبُ مظاهِرُ الحُزنِ عليهِ، وكأنَّ

القُرآن الكريم يبدو سعيدًا لِمن ابتغى السَّعادةَ ومواسيًا مُعزِّيًا لِمن أرادَ السَّلوى والطُّمأنينة...

يجلِسُ الشّيخُ "محمود" في مدخلِ الصُّوان على مقعدِه يرافِقهُ بعضٌ مِن أبناء عمومته، يستقبِل المدعوِّين جالِسًا، فيقدُمونَ إليه في تبجيل واحترام كبيرين، يُقَبِّلونَ يدهُ بينما بعضُهُم يلثُمُ جبينهُ، وقد بدأَ العروسانِ طقوسَ حفلِهما بتقبيل يدِ جدِّهما وطلب مُباركتِهِ، ثُمَّ انطلقا لكوشتِهما الخاصَّة قُبيل قدوم المُهنِّئين، فانبريا هُناك وسط جموع العمَّاتِ والخالاتِ والجدَّات وجمع غفير مِن نِسوةِ العائِلة والجيران، وكأنَّها حرمٌ حصينٌ امتنعَ على الأغرابِ مِن الرِّجال ولوجهُ، فمُعظمُهُنَّ سافِراتٌ مُبديات زينتهُنَّ وحُليهِنَّ، وارتدَت نادية ذات القوامِ الممشوق اللدِن الذي بدا اليوم في طراوتهِ وليونتهِ واتِّساقِ عودِهِ فُستانًا أبيض عاريَ الصَّدرِ والكتِفينِ، اشتراهُ لها العريس مِن القاهِرة، وقامت على زينتها (كوافيرة) استقدموها مِن الفُندُقِ ذاتِهِ، قدِمت خصِّيصًا لتزيين العروس وتصفيفِ شعرها الأسود الفاحِم، فغدت العروس أُنثى شهيَّة مُتفتِّحةِ الأوراق، وكأنَّها أميرةُ الأحلامِ في القصرِ الكبير، أو سندريللا التي خطفت قلب الأمير، الذي غداهُ "جاسِر" في بدلته الحريريَّةِ السَّوداءِ وبابيونِهِ المُتأنِّق (رابطة تُطوِّق عُنقهُ)، بينما صفَّفَ شعرهُ الأحمر وشاربهُ الصَّغير، وبدا وجههُ الأبيض المُشرَّب بِحُمرةِ الخجلِ والحيويَّة والمُكلَّلِ بالنَّمشِ، كفتى الأحلامِ الذي لا تُخطِئهُ عينٌ عِند نادية وكُلِّ فتاةٍ...

كان الجبلُ بِكُلِّ سُكَّانِهِ في شرفِ الإعداد لهذهِ الزّيجة، الكُلّ مُسخَّرٌ في تجهيزِها، نسوةُ العَائِلةِ وأُخريات يُشرِفن على طبخِ طعامِ الوليمةِ، وعهِدنَ لسيادة ونوبيَّة وسُليمان أنْ يكونوا رَهنَ أمرِ الطَّبَّاخين وإشارتهم، كانت

طلباتُهم لا تنتهي وكأنَّهُم قدِموا لإطعامِ جيشٍ كامِلٍ لا مدعوِّي زفافٍ في قصرِ الشّيخ!!!

وكأنَّهُ زِفافٌ أُسطوريّ على الطَّريقة الجنوبيَّة الظّفّاريّة، لم تهدأ سماء الجبلِ عن الاهتزاز والتَّضوّي تحت جلَبة وصخَب إطلاق النِّيران ابتِهاجًا وتعبيرًا عنِ التِّحيّة في مُجاملاتٍ واجِبة إظهارًا للقوَّةِ والسّيطرة، وانطلقت الألعاب النَّاريّة تملأ سماء حاجِرِ أبو ظفَّار ألوانًا وبهجة تخلِبُ اللُّبَّ... تُرى هل تعرِفُ السَّعادة طريقًا لِقلوبِهم الحزينة كما ذاقتهُ أروِقةُ القصرِ وباحتُه وحُجراتُه؟

كان حُضور الشّيخ "محمود" في صوانِ الرِّجالِ طاغيًا يُضفي مسحةً مِن هيبةٍ ووقارٍ على الحفلِ والحضور، في ثباتِهِ وتلقِّيهِ التَّهاني بِوجهٍ هادِئ القسمات خالٍ مِنَ التَّعبير، فكانَ الجميعُ يجلِسُ في رزانةٍ وثبات لا يتناسَبان مع طبيعة جوّ الأفراح الصَّاخِب المُنفَرِج، حضر كِبارُ رِجالاتِ العائِلة وكِبار أسَرِ المركز، ومُعظمِ سُكَّانِ الحاجِرِ، كما قدِم بشندي وولده مُرتجى، لم يُبدِّل بشندي ثيابَهُ الرَّثَّة (شيءٌ خفيّ ليس لهُ مُبَرِّر يدفعهُ لهذا المَسْلَك) بينما "مُرتجى" في بدلتِهِ البيضاء وشارِبهُ الكَثّ تحت أنفِهِ المعْقوفِ كأنَّهُ عريسٌ آخَر، وقدِم "غطَّاس" يُجرجِرُ قدميه يصطحِبُهُ ولدا أخيه الرَّاحل نعيم "روماني" و"روميل"، اللّذَيْنِ كانا في شُغلٍ تامٍّ طيلةَ نهارِهما واضعَين سيَّارتهما في خدمةِ "جاسِر" وتلبية احتياجاتِ العُرسِ مِن البندر، وقدِم "مصريّ" وزوجتهُ "رءوفة" التي اتجهت مُباشرةً نحو صُوان النِّساء مِن ممرٍّ خلفيّ قادها إليهِ أصواتُ صخبهنَّ وزغاريدهنَّ، بينما جلسَ "مصريّ" في مُقدِّمة الصّوان في سكونٍ تامٍّ يُنصِتُ فيهِ لِقراءةِ المُقرئ دون أدنى تبرُّم انصياعًا للعادة التي جُبِلوا عليها وتقاليد الأفراحِ في الجبلِ عِندَ جيرانِهم المُسلِمين، كان أحمد الجبليّ يُجاهِدُ المسيرَ متوكِّئًا على عصاهُ التي دسَّها تحت إبطِه بعد أن جعَلَ في

أعلاها مسندًا مِن قماشٍ وقُطنٍ، تُقلِّلُ مِنْ مشقَّة استِنادِها عليها، عِوضًا عن ساقِهِ التي أعجزتها إصابةُ دبشَكِ سلاحِ سُلطان سابِقًا، وقد عوَّضهُ الشّيخُ الكبيرُ عن إصابتِهِ تِلك مالًا وأرضًا يؤَجِّرها تُدرُّ عليهِ دخلًا ثابتًا، نظير جرأته وبسالته، لم يكُن في صدرِ أحمد مِن سُلطان ولا الظفَّاريين جميعًا أدنى ضغينة، وكأنَّ سماحتهُ كنزٌ مخبوءٌ تحتَ قدميهِ يقتطِعُ مِنهُ متى يُريد، فكانَ يعتبِر عجزهُ أمارة بطولة وكأنَّها شهادةُ تقدير عن إصابةٍ لحِقَت بِهِ في جِهاد، وإنفاذًا لِنُبُوءةِ شيخِهِ الطَّاهِر، قبَّلَ أحمد يد الشّيخ محمود في توقيرٍ وإجلال، بعد أنْ أجلَسَهُ بِجِوارِه فمالَ في مشقَّةٍ وعناءٍ وإصرار على كفِّ الشّيخ محمود يلثمها في سعادة، بينما رَبَتَ الشّيخُ على كتِفهِ، وكأنَّهُ يمنحهُ عِنايةً خاصَّة وشُكرًا خفيًّا، أحسَّهُ الجبليّ فازدادت سعادتهُ باهتمام الشّيخِ بشأنِهِ...

حينَ سألهُ: ألا زال بساقِك ألمٌ حين تطأُ بِها الأرض... فيرُدُّ الجبليّ: الآن أفضل بكثير عمَّا سبق أو يبدو أنَّني اعتدتُ الألم، نحمِدهُ على كُلِّ حالٍ يا سيدنا...

يُجيبُهُ الشّيخ بمودَّة: لو أردتَ الطَّبيب أو احتجتَ لِحاجةٍ، فلا تتردَّد في طلَبِها منِّي أنا شخصيًّا، وداوِم على زيارتِنا، كما تحرِص على زيارةِ الشّيخِ الطَّاهِر وحضرَتِه، فيُجيبهُ أحمد في أسى مَن منعهُ عجزهُ عن إنفاذ ما يشتهي:

كُنتُ أقطعُ الصَّحراءَ في الليل، أجتازُ بِقدميّ هاتين الرِّمالَ، لا أعبأُ بعوائِق تمنعني مِن الوصول إليه، والتَّزوُّدِ مِن جُعبتِهِ والتَّملّي في بهاهُ، حين تُعجزني وسائِلُ المواصلات، ويبلُغُ بيَ الشّوقُ مبلغهُ في عتمة الليل فلا أجِدُ ما يُقلّني سوى ساقيّ، فأمتطيهما في عتمةِ الجبلِ ووحشتِه، حتَّى أسماني الشّيخُ الطاهر بأحمد الجبليّ... يستطرِدُ أحمد: ما عُدتُ أستطيعُ الزِّيارة إلَّا بسيَّارةٍ تُقِلُّني للبوَّابةِ الكبيرة، وسيَّارة أُجرةٍ أُخرى يعهد إليها الشّيخُ بإعادتي لِبابِ

داري، ثُمَّ يبتسِم ابتِسامة فاتِرةٍ وهو يقول: أصبحتُ يا سيِّدي أحمد الأعرج لا الجبليّ الذي كان يحثو الطَّريقَ حثوًا... يُحدِّقُ فيهِ الشّيخُ محمود في صمتٍ ويومئ بِرأسِهِ إيماءةً مفادها: أنْ لا عليك... يرضى بِها أحمد ويلوذا بِصمتٍ عميق!!!

عقِب فراغِ المُقرئ مِن تِلاوتِهِ، اشتعلت موسيقى صاخِبة من (د.ج) لأغانٍ شبابيّة تضجُّ بالصَّخَب والبهجة وسط فرقعة زغاريد النِّسوة في الرُّكن القصيّ الذي أُعِدَّتْ فيهِ الكُوشه، بينما تنساب دموعٌ خاصَّة من عيني وجيدة أمّ جاسِر، الذي لم يبرح اللِباسُ الأسود جسدها منذُ ارتحلَ سُلطان عن بيتِهِ مُرغَمًا بِلا رَجْعة، كأنَّها استِحضارٌ لشخصِهِ الذي ما كان لهُ أنْ يغيبَ عنْ المشهَدِ الذي ينتظِرهُ كُلُّ أب، ونغَّصَ عليها فرحتها بوحِيدِها، فبدت منقوصةً غيرَ مُكتَمِلة، بينما الحاجَّة سيّدة الجَدّة الكُبرى وبنات الشّيخ محمود اللواتي صِرنَ جدَّات مع حفيداتِهِنَّ ونِسوة العائِلة في سعادةٍ غامِرة، يوارين بها حُزنًا دفينًا قد استبدَّ بِهِنَّ لأعوام، يُجاهِدْنَ دفعَهُ، وإيقاظ جذوة سعادة غابَت عنِ القلوبِ، بينما كانت زوجةُ سليم تضجُّ فرحتها في ردائِها فجّ الألوان، وتلتمِعُ طرحتها الفِضّيَّة مع أضواءِ المكان، فَتُطلِقُ الزَّغاريد في سعادة ووقعٍ جليّ، بينما تتماوجُ بطنُها المُكوَّرة مع إيقاع الأغاني الحديثة، رُبّما تملَّكتها مشاعر أُخرى خفيَّة غير مشاعِرِ الفَرَح والزِّفاف، فبَدَت أكثرَ سعادةً بالتَّخلُّصِ مِن نادية ابنةِ زوجِها وصفاءِ دارِها لها ولأولادِها دون غيرِهِم.

أو كانت تحتَ تأثير نشوةِ الأفراح وما يعتري النِّسوة مِن فُقدانِ المقْدِرةِ على التَّحكُّم في أجسادِهِنَّ بِفعلِ الجوِّ الرَّاقِص الصَّاخِب الذي يُستباحُ فيهِ ما لا يُستباحُ في غيرِهِ مِنَ الأوقات، تحت وقْع الضَّجيج والنَّغَم فتهتزُّ الأردافُ

المُكتنِزة وتتمايلُ ثنياتِ الخصور، ويُعالِجنَ المَشَقَّة في مُغالبة الرَّغبة الأكيدة في التَّثنّي والرَّقص...

كان الشّيخ محمود قد انسحَبَ مِنَ الصُّوان الكبير، مُتَّكِئًا على عصاهُ في تؤدةٍ بالِغةٍ، حيَّا الضيوفَ بعدَ أنْ حانَ أوانُ نومِه، فلمْ تعُدْ حالتُهُ الصِّحيَّة تتحمَّل السَّهر، فهبُّوا مِنْ مجالِسِهم لردِّ التَّحيَّة للشّيخ الذي غادَرَ، رُبَّما ليترُكَ للمدعوّينَ فُسحةً مِنَ الوقتِ للهو المُباح، في مِثلِ تِلك الليالي، أعقبهُ تطايُرِ سحائِب الدُّخانِ المُضَمَّخ بِروائِح شتَّى لا تُخطِئَها أنفٌ مِنَ الصّوان!!! وكأنَّهُ يوشِكُ على الاحتِراق...

غادرَ في عقِبِهِ عبد الماجِد وزوجهُ، بينما استبقى عُمر ولدهُ الأكبر ضمانةً عائِليَّة لتمثيلِهِ في هذا المحفَل، الذي غادرهُ مُسرِعًا وكأنَّهُ أدَّى دَورًا قدِ انتهى، ولم يعُدْ لِبقائِهِ داعٍ في تمثيليَّةٍ سخيفةٍ لا طائِل مِنها!!!

قُدِّمت النَّرجيلة لمحبّيها، بينما تعاقبَت شتَّى أنواع السَّجائِر على الشِّفاهِ تجترُّ مُرَّ تبغِها، فلم يكُن بوسعِ أحدٍ إشعالَها في حضرتِهِ احترامًا وتوقيرًا!!!

أصبحتْ تطوفُ عليهِم أفخرُ أنواعَها كرزاز مطرٍ تقذِفهُ الرِّيح، بينما انتفخت خدودٌ كأنَّها حُبلى في أحدِ جوانِبِها، ويوالي أصحابها البَصْقَ بين فينةٍ وأُخرى، كانوا يحشونَ أشداقهُم مِن الفم بالمضغةِ وهيَ أوراقُ تبغٍ يدُسّونها دَسًّا، يمضغونها ويجترّون مِنها ويلفِظون ما ينجُم عن التَّمضُّغِ مِن بذورٍ وألياف بصقًا، وهي عادةٌ قديمةٌ اعتادها سفلةُ القومِ، وأدْمَنها بعضُ ميسوري الحال، حين وجَدوا فيها مِزاجًا مُميّزًا!!!

وتسرَّبَت بعضُ أدخِنةِ البانجو والحشيش، في آخِرِ الليلِ حين انفضَّ عنِ الحفلِ كُبارُ المدعوِّينَ ورءوس العائِلاتِ والقبائِلِ مع النِّسوة، وخلِيَتْ السَّاحةُ لِلشَّباب ورعونتِهِم التي أتاحت لهُم كُلَّ ممنوعٍ، فبرزَت بعضُ

الزُّجاجات الخضراء والبيضاء خِلسة بينَ مجموعاتٍ بِعينِها مِن مُحترِفي التَّرَنُّح والسُّكْر، كان على رأسِهِم مُرتجى ونصر وعُمر وروميل...

لم تخلُ جُعبة العريس مِنْ أشرِطةٍ زرقاء وحمراء وبيضاء، وكأنَّ جيبَ سُترتِهِ صارَ مُستودعًا لأفخر المُحفِّزات الجنسيَّة والمقويَّات، لزوم دُخلةِ العُرسِ، دَسَّها لهُ المُهنِّئون، بعد أنْ أودعوهُ نصائِحَهُم الغالية!!!

كان "جاسِر" يخشى الإخفاقَ، استبدَّ بداخِلِهِ شعورٌ بِالخُمُود غيرَ مُتَّقِد الجذوة على غيرِ ما اعتادهُ مع رفيقاتِ السّوءِ، فأضحى كمَنِ اعتادَ الولوغَ مُتسلِّلًا في أواني غيرِه، وعجزَ عن الارتشاف مِن كأسٍ نظيفةٍ خُصَّ بِها وحدهُ.

لم يكُن الشّيخُ "محمود" ليسمَحَ بِتِلك المَساخِر ولا يُحِبّها، لكِنَّها عادةُ الأفراحِ التي تُبيحُ كُلَّ ما هو ممنوع، وتفتحُ مغاليق لولا طقُوسها لظلَّت مُصفَّدة، فما يتِمُّ تجوُّزَهُ فيها يُعَدُّ مِنْ قبيلِ إكرامِ الأضيافِ والمدعوّين وتقديم ما يحلو لهم مِن أشرِبة ولو كانت مُحرَّمة، وتركهم في صَخَبِهِم وترنّحهم، ساهرين حول منزِل العريسِ وأسفل نافِذتِه، بينما ينتظِرُ الأقربون خروجهُ مزهوًّا بِفحولتِهِ، في فخرِ الظّفرِ بعروسٍ عفيفةٍ شريفةٍ، ذات خِدرٍ وحِجاب...

وما كانوا يقدِرونَ رغمَ كونِهِ مُباحًا غيرَ مُستغرَبٍ ولا معيب في مِثلِ هذهِ الأجواء على الارتواءِ مِن هذهِ المُتعِ في حضرتِه وتحت سمعِهِ وبصرِهِ، رغم تصنُّعِهِ التَّغافُل وعدمِ الاكتِراث... ألمْ يجعلوا مِنْ بنائِهِم مِطفأةً لسجائِرِهِم كبيرهم قبل صغيرِهِم حين ولجَ عليهِم المضْيَفة ذاتَ مساء مع ضيفٍ كريمٍ وجَدَ نفسهُ يُدَخِّن وحيدًا في حضرةِ الشّيخِ الذي قدم للتَّرحيبِ به، بينما اختفت السَّجائِر مع دُخانِها في ثوانٍ حين ولجَت قدميّ الشّيخ حجرتهُم، فتساءَل الضّيف بعدَ خُروجِ الشّيخِ عن هذا المشهَد المُثير للدَّهشة، فأجابُوهُ

بأنَّ كُلًّا مِنهُم حرِص على ألَّا يراهُ الشّيخُ يعاقِر سيجارتهُ، فمنهم مَنْ قبضَ على سيجارتِهِ المُشتعِلة في كفِّه، ومنهُم مَن اعتصرها بين أصابعِهِ كأنَّهُ يخنقها فلا يبوحُ دُخانها بِسِرِّه، وكأنَّ احتراقَ أكُفِّهم، أهوَن كثيرًا مِن التَّدخين في حضرتِه، مهما بلغوا مِنَ العُمرِ والنّفوذ.

مُنِحَ المدعوين فُرصتهُم للنَّزقِ واللهو، فتعالت الأصوات تصخبُ في الحديقةِ الفسيحةِ في هزيعِ الليلِ وأمام مدخلِ القصر، بينما تلاعبت سُحُبِ الدُّخانِ المُغمَّسِ والزُّجاجاتِ الملوّنةِ متفاوِتة الأحجامِ والأشكالِ، ويسمُّونها ماءً، وهي أبعد ما تكونُ عنهُ (ذلِك الطَّاهِر راوي الغُلَّة بالرُّءوس) فما تحويه مِن كحولٍ وشعيرٍ مُختمِرٍ كفيل أنْ يذهبَ بجنانِ شارِبهِ وثَباتِه، فيُبدِّل حالهُ ويطغى على تصوُّرِهِ خيالات وأوهام، وينسَكِبُ مِن فيهِ ما يأبى أنْ يبوح بِهِ لو ثابَ إلى رُشدِهِ.

قال "مُرتجى" لـ"نصر" و"روماني" بينما يتناوبون الأنفاس المُأرجحة للعقول:

لعلَّ "جاسِرًا" يودّ اليومَ لو صار كـ"إسحاق أبو شفيق"... ثُمَّ يُقهقِهون في مجونِ المُزاح، فهُم يُدرِكونَ ما يرمي إليهِ "مُرتجى" في خُبثٍ أشعلَ وهْجَهُ الدُّخان.

كان "إسحاق" هذا طويل الأير عظيم الذَّكَر، يكادُ يبلغُ رُكبتيهِ مُنتَصِبًا مِنْ فرطِ طولِه، رأسُهُ كبيرٌ كعصا الطَّبلة، يشُدُّهُ على فخذِهِ بِرباطٍ حتَّى يتمكَّنَ مِنَ السَّير والعمل، كاد يقتُلُ زوجتهُ ليلة زِفافِه، حين أصابها بتهتُّكٍ شديدٍ، كاد نزيفُهُ يودِي بِها، وقضَت في المُستشفى أسابيع عديدةً بعد أنْ أصلحَ لها الطَّبيب المُختصّ جِراحها في عمليّةٍ طويلةٍ، وحدَّدَ لـ"إسحاق" علاماتٍ على قضيبِهِ لا يتجاوزها، ويا ياتٍ تمنعهُ مِن توغّلِهِ القاتِل، شاكسهُ سائِقٌ مرَّة

فوضعَ لهُ ذكَرهُ على تابلوه سيَّارتِهِ إمعانًا في مُغايظتِهِ، وهو رغْمَ فقرِهِ لم يقبل عرض أحد السَّائِحين، وكان يعملُ مُخرِجًا، بطولة أحد الأفلام الجنسيَّة بعد أنْ قدِمَ خصِّيصًا لِلِقائِهِ مِن الأقصُر بعد أنْ سمِعَ عنهُ.

يرُدّ روميل وهوَ يسعل مِن الدُّخانِ: يا سلام رجُلٌ شريفٌ حقًّا... ثمَّ بالغوا في ضحِكاتِهم التي تطايرت مع دُخانِهم بين نسيم السَّحَر.

انقضَت الليلة وانفضَّ العُرسُ بعد أنْ أسلمَ العروسينِ لمنزِلهما وهي شقَّةٌ فارِهة تعلو شقتي عميهِما سعيد ونصر، تحُفّهما الدَّعواتُ الصَّالِحاتِ بالبركةِ والذُّريَّة الصَّالِحة، ذُريَّة ظفَّاريّة أصيلة، يتوحَّد فيها نسلُ خيرةِ بنيّ الشّيخ...

في حنايا حُجرةِ النّومِ الوثيرة، ذات الطَّابع الكلاسيكيّ، جلسَت نادية على حافَّة السّرير المَلكيّ الذي يعلوه تاج، مُطرِقة في صمتٍ ينتابها خجلٌ جعلَ وجنتيها يكادُ الدَّمُ يتدفَّق مِنهُما، بينما تمعِن النَّظرَ في السِّجَّادة الأعجميَّة ذات الوبرة الكثيفة، كأنّها نجيلة خضراء تغطِّي وجه التُّربةِ في بهاءٍ ورونقٍ، وكأنَّها عرَّافةٌ تقتفي أثرَ مُستقبلِها في طيّات حُجرة نومِها الجديدة، وتقرأُ فيهِ طالِعها، تواري خشيةً اعترتها حين أوصدت دونهما الأبواب، في ليلةٍ رقيقةِ النّسماتِ مِن ليالِ الصّيفِ الجافّةِ، هو ابنُ عمِّها وزوجها الآن لاريب، لكنَّ جسورَ الخجل والانكِسارِ والخشيةِ التي شُيِّدَت حجرًا فوقَ حجر يومًا عقِبَ يوم، جعلتها تستشعِرُ هولًا غامِضًا تُقْدِمُ عليهِ، وكأنَّ صخرةً جثومًا ربضَت فوقَ صدرِها منعَت قلبها مِن السَّعادةِ في ليلةِ مسرَّةٍ واحِدة في العُمرِ لنْ تتكرَّر، لم يكُن "جاسِر" المُحنَّك أكثرَ جرأَةً مِنها، وكأنَّهُ حبيس كُلِّ تجارُب الماضي التي أحاطتهُ بقفصٍ حديديٍّ حالَ دونَ اقترابِهِ مِن حبيبتِهِ التي رآها مُنزَّهةً عن كُلِّ ما يُشين، حين تصوّرها مُجرَّدةً بينَ يديهِ كغيرِها مِنَ النِّسوةِ اللواتي عرفهُنَّ قبلها، وهُنَّ يغنجْنَ ويزفرنَ مُتَأوِّهاتٍ أسفل مِنهُ في شهوةٍ واشتياقٍ وشبَق...

وكأنَّ محبّته لها أحاطتها بهالةٍ مِن قُدُسيّةٍ، جعلتهُ يتهيَّبُ الاقترابَ مِنها بعد أنْ صارت طوعَ بنانِهِ، بعدَ طولِ انتِظار، وكأنَّهُ أوّل لِقاء! جلسَ يجتذِب مِن فيها أحرُفَ الكلِمات كطِفلة تتعلَّمُ نُطقَ الأحرُفِ لِأوَّلِ مرَّة، لم يمُدَّ يدًا إليها وكأنّهُ يخشى مُلامستها كحرمٍ آمِنٍ يتهيَّبُ طرقهُ!

فقال: لعلّ فرحتكِ لم تكتمل الليلة، حينَ غابَت عنها أُمّك، وكأنَّك كُنت تودِّين لو رُدَّت للحياة لتشهَدَكِ عروسًا بهيّةً في الفُستان الأبيض؟

أوَلَمْ يجعلنا القَدَر قِسمةً مُشترَكةً حين جمعَ بيني وقد غدا أبي في محبسِهِ كالميِّت، وبينكِ أنتِ يتيمة الأُمّ؟ فأرادَ أنْ يجبُر بعضنا كسرَ بعض، فأعوضَكِ حنانَ أمّك وتمنحينني عنايةَ أبي، فيُكمِل زواجنا ما انتقصتهُ الأيّام مِن وِجداننا...

تبدَّلت نظرتها المُطرقة في صمتٍ مِن الخجلِ للانكِسار والحُزن، لم ترفع ناظِريها قُبالةَ وجهِه المُتودِّد الباسِم، ولم تبرح مجلِسها حتَّى نهَضَ مُغادِرًا الحُجرة، وكأنَّه خرجَ يستجمِعُ شجاعةً خانتهُ وجرأةً غابت عنه، ويمنحها فُرصة تبديلِ ثوبِ عُرسِها والتَّحلّلِ مِنْ إسارِه، فنفضتهُ عنها واستبدلتهُ بقميص نومٍ أبيض رقراقٍ شفيفٍ ولفت كُلّ ذلِك بروب دي شامبر أحمر قانٍ، بينما أطلقَت لشعرِها الأسود الفاحِم العنان وحرَّرتهُ مِن الطَّرحةِ والكثير مِنَ البِنس والتّوك التي ثبتت التَّصفيفة الرَّائِعة التي كان عليها طيلة الحفلِ، وارتدى في الرُّدهة الخارجيَّة بيجامة مِن حريرٍ أبيض...

كان مِن عاداتِ أهلِ الجبلِ الأزليّة أنْ يُطِلّ عليهِم الزّوجُ مِن الشُّرفة بشاشٍ أبيض مُلطَّخ بالدَّمِ النَّاتِج عن عمليَّة الفضّ، لم يتَّبِع "جاسِر" هذِه العادة وأبى أنْ يُنفِّذها، حِرصًا على كرامةِ ابنة عمِّه، كأنَّها أُختهُ لا زوجه، فقط خرج لِطمأنةِ الجمعِ الذي لم يتبقَّ مِنهُ سِوى أفرادٌ مِن الأُسرة، ويصرِفهُم في

هدوء، يتقدّمهُم سليم وامرأتهُ وأخوال نادية وخالاتها، الذين درَجتْ في كنَفِهِم وأمّ "جاسِر" وجدَّتُه، فحيَّاهُم وأومأَ إليهِم أنْ انصرِفوا راشدين، باسِمًا ابتسامةَ مَنْ وُفِّقَ مسعاهُ، لكِنَّهُ لم يُقدِّم لهُم الدَّليلَ المُنتَظَر، فاستجابوا عدا سليم الذي زمجرَ في ضيقٍ، وكأنَّه لم يُرِد الرَّحيل إلَّا بعد الاطمِئنان على ابنتِه!!! رغمَ أنَّهُ لا يُنكِرُ فيها الطُّهر ولم يتسرَّب إليه في عفَّتِها لحظة شكٍّ واحِدة، لكنَّها العادة حين تطغى على الثَّوابِت فتُقحِم نفسَها فيها، لم ينصرِف إلَّا حين خرج الشّيخُ "محمود" مِن دارِهِ بعد أنْ جافاهُ الرُّقادُ طيلةَ ليلتِه واستبدَّ بهِ الأرَق، رُبَّما الذِّكريات التي أرَّقَت مضجعهُ مع ضجيج الحفلِ وصَخَب روّادِه هاتِفًا لِجاسِر بصوتٍ أجش قد زادَ مِنْ غِلظتِهِ السُّهدُ والإجهاد: ادخل يا بُنيّ لِعروسِك هنأَكُما اللهُ، ثمَّ اتجهَ بحديثِهِ لسليم: الولد ولدنا والبنت بنتنا، لا تشغِل نفسَك بتُرّهاتٍ وأوهام... وليذهب كُلٌّ لِخدَعِه، وليأوى سليم وآله الليلة للمبيت في الطَّابق العلويّ مِن القصرِ، لا يسمعنَّ صوتُ جلبتِكُم إنسان...

وكأنَّ أمرًا أزليًّا بالسُّكونِ قدْ صدَر، استجابَ لهُ الجميعُ مِنْ فورِهِم وغادروا مُسرِعين...

لم يتِمّ الأمرُ لـ"جاسِر" إلَّا في الصَّباحِ قُبيل الظَّهيرة، حين أُزيلت بينهُما الحُجُب وتهدَّمَت بينهُما أسوارٌ عاتيةٌ، وتكاشفا بعد ليلةٍ جافيةٍ، وبعد أنْ أفرغ "جاسِر" ما في جُعبتِهِ مِنْ أقراصٍ بيضاء وزرقاء في جوفِهِ علَّها تمنحهُ جرأة غابت عنهُ.

لم تكُن "نادية" ككُلِّ النِّساء، كانت كثمرةٍ ناضِجةٍ شهيّةٍ تُبلِّلها قطراتُ النَّدى لم تسقُط بعدُ مِن غُصنِها، وكأنَّها مُتفرِّدةٌ بالدَّلالِ والطُّهرِ والإثارةِ في

بوتَقةٍ واحِدة، نهلَ مِنها "جاسِر" مرَّاتٍ ومرّاتٍ دونَ أنْ يرتوي حين استمتعَ بِأُنوثةٍ بهيّةٍ لم يخترِق حُجُبها إنسان...

بينما "نادية" التي منحتهُ بِلا حدود في خَفَرٍ ظاهِرٍ، سرعانَ ما انقشعَ غيمُه وانجلى شبَقُه، كان عودُها الأهيَف المشدودُ كسُنبُلةِ قمحٍ، مُتناسِق القوامِ تبرُزُ معالِمِ فتنتِهِ، فتلاشت فيهِما الجِراح وصار جسدُ كُلٍّ مِنهُما تِرياقًا لجسدِ حبيبِه، فانصهرا كجسدٍ واحِدٍ يُعانِقُ بعضُهُ بعضًا، في ملكوتِهما الخاصّ المُفعم بالحُبِّ واليُتم ونهَم الارتواء، أزيلَت عُذريَّتها وأُضيفت لِجاسِر براءة خاصَّة، وكأنَّه يتوبُ على أعتابِها، مُعلِنًا النَّدم عنِ العِصيان وما اقترفهُ مِنْ رذائِل، والتّوبة عمَّا سبقَ وضيَّع عائِلتهم بِأسرِها، ويطلُب الصَّفحَ والغُفران كُلَّما غمرهُ بحرُ العسلِ لأُذُنيه...

الختان

دُعِيَ الطَّبيب صبيحة اليومِ التَّالي للزِّفافِ لختانِ اثنينِ مِن الحَفدة الظَّفاريين حامِد ولد نصر وحُسين حفيد كامِلة كُبرى بنات الشّيخ، فمِن عاداتِهم إجراء عمليَّة خِتانِ الأطفالِ في صباحيّة الزِّفاف ويشهدهُ العروسان أو قُبيل انتِصاف الشَّهر العربيّ أو قُبيل نهايتِه، حتَّى لا يُشَهَّر المختون أو يُصاب بِأذىً ويكونُ حلول الهلال على المختون علامة خيرٍ وبركةٍ وتيمُّنًا لهُ بالسَّلامةِ وطول العُمر، يلبِسونهُ جِلبابًا أبيض، ويُحاطُ عُنُقهُ بِعِقدٍ مِن الفولِ النَّابت، وكذا مِعصمهُ بِعِقدٍ مِن ذُرة، أو بخيطٍ دقيق، استلقى حامِد في غُرفةٍ مُعدَّةٍ لِلضيوف على أريكةٍ مُستطيلةٍ في شقَّةِ عمِّه "سعيد"، قامَ سعيد ونصر بتثبيت قدميّ حامِد بعد أنْ باعدوا بين فخذيهِ، جلسا بِجوارِهِ على طرفي الأريكة، بينما الطَّبيبُ يُجري مِبضعهُ على قُلفة الجِلدِ الزَّائِدة بِحذَر، بعد أنْ جذبها بجفتين رفيعين مُدبَّبين يُسميان جفتي الذُّبابة، وأطبقَ على القلفة الزَّائِدة بجفتٍ كبير كأنَّهُ فكّ سمكةٍ كبيرةٍ تزِنُ رطلًا فما أكثر!!!

بينما "حامِد" يستغيثُ في صُراخِهُ مُتوسِّلًا لوالِدِهِ أنْ يُخلِّصهُ مِن براثِن عمِّه والرَّجُل القاسى الغريب الذي لا يكُفُّ عن إحداثِ الألم في هدوءٍ ورزانةٍ ويدعونهُ دكتورًا.

كان الخوف أكثرَ هيمنةً على التَّألُّم الجسديّ عقِب أنْ نفثَ الطَّبيب على الجِلد المُشذَّب بخَّاخةً مِن مُخدِّرٍ موضِعيٍّ، واستُدعيَ "جاسِر" و"نادية" ليشهدا هذا الطَّقسُ ولاسيَّما أنَّهُما أحد أعمِدتِهِ الرَّئيسيَّة، فهبطا مِن الطَّابَق الثَّالِث مُسرِعَين قُبيل جريانِ المِضَع فوقَ الجفت الكبير الذي يخنق القلفة بين دفَّتيهِ ويُسمُّونهُ الكلَّابَة، وفور وصولِهما أجرى الطَّبيبُ مشرطَهُ مُلامِسًا

ومُحاذيًا لِظهرِ الجِفت، كان "جاسِر" يرتدي جِلبابًا أبيض، بينما التفَّت العروس بروبٍ رماديٍّ فضفاض تتناثرُ في ساحتِهِ ورداتٌ حمراء، وغطَّت شعرها بحِجابٍ أصفر شُغِلتْ حوافّهُ بِقِطع معدنيَّة ذهبيَّة تُشبِهُ القُروش الصَّغيرة، بيد أنَّها رقيقة تلتمِع وتبرِقُ في الضّوء!!!

وقفا مُتجاوِرينِ يشهدانِ خِتانِ الطِّفلين حامِد أوَّلًا، ثُمَّ تلاهُ حُسين، يُغطِّي صراخهُما صياح الموجودين: ما شاء الله والله أكبر... عريس عريس... عرييييييس...

تفاؤلًا بنجاةِ المختونِ وبلوغِهِ عُرسه مُستقبلًا...

بينما قبَضَت نادية بودرةَ حِنَّاءٍ جافَّة مِن صينيَّةٍ فسيحةٍ بِها شموع، وغمَرت بِهِ صدر وبطن المختون فوق جِلبابِهِ الأبيض!!!

ثُمَّ زغردت داعيةً لهُما بالبركة والسَّلامة، ثمَّ غادَرَت مع زوجِها وسط زغاريد أمّي الصَّبيين وبكائهما، وتعالت الزَّغاريد فرحًا بِقدومِ الجدِّ الذي نفحَ حِجريّ الصَّبيين حِفنةً مِن الأوراقِ الماليَّة ورَبتَ على رأسيهِما، غادر بعدها الطَّبيب الذي دُعيَ للإفطارِ مع الشّيخِ الذي أجزلَ عطاءهُ...

لاتزالُ مظاهِر البهجة تتردَّد في أروِقة القصرِ والدَّارِ الكبيرة والعمارة ذات الطَّوابِق، فالزّينات لازالت تتأرجح مُدلَّاة مِن علٍ، ولم يزل الصّوانُ قائِمًا!!!

كان الأمرُ أشبهَ بِخريفٍ اخترَقَ الأشجار المورِقة الوارِفة، فاستحالت ذابِلةً بائِسةً، جافة الأوراقِ المُتداعية، هكذا بدا الصّوان وآلَ لِحالٍ مُتأهِّبة للإزالة...

بينما عاد الشّيخُ لِدارِه القصيّة في خُطواتٍ مُتثاقِلة ليجلِسَ على مصطبتِهِ ويتناول الشَّاي مع الفايش في مشهدٍ يوميّ مُتكرِّر، كما عادَ كُلُّ شيءٍ لطبيعتِه وسابِق عهدِه!!!

حمْلَقَ في نخلةٍ أصابَها الجفاف وكأنَّها هرِمت فطرقَها العجز، وعدم الاعتِناء، أصبحت هيكلًا مجوفًا خاويًا مِن داخِلِهِ، ليسَ لها جريدٌ ولا طلْع بعد أنْ كفَّت عن النّموِّ، فغَدَتْ قشرةً بِلا لُبٍّ، حينَ تآكَلَ مُحتواها بعد أنْ شاخَت وأُهمِلتْ، صامِدةً ثابِتة تُقاوِم البِلى الذي أنهَكَها، فحوَّلها لإهابٍ ليسَ تحتهُ شحم، قد جاسَ في جوفِها البوص واخترقها مِن أسفلها لأعلاها بقامته الهشَّة المُخضرَّة المُتمايلة وتخلَّل فراغها الدَّاخليّ ، فغدَا جوفها مرتعًا للنَّباتاتِ المُتسلِّقة والحشائِش الكثيفة التي غدت كالأحراش في جوفِها المريض، ومرتعًا للهوامِ ومأويً للأفاعي...

وكأنَّه تجسيدٌ واقعيٌّ لسنواتِ عُمرهِ، تُحاكي بدايتهُ وتشهدُ عليها وهجهُ وتألُقهُ حين رتعَ حولها صغيرًا، بلحها المُكتنِز بالشَّحمِ ومذاقهُ شديد الحلاوة، ومآل كليهِما، بعد أنْ عصفت الليالي بمجدِهِ وصحّتِه، فقدَّم ولدهُ قُربانًا لِشرفِهِ الشَّخصيّ، وجعلَ مِنهُ أداة انتِقامِهِ لكرامتِهِ التي انتُهِكَت، وكأنَّهُ هيكلٌ مُجوَّفٌ لِبقايا إنسانٍ مُحطَّم تخترِقُهُ الأحزان، كما اخترقَ البوص والحشائِش نخلتهُ العالية المُسِنَّة البائِسة!

استبدَّ بِهِ همٌّ جارِف غمرهُ حين بلغَهُ نبأ مرض سُلطان في محبسِه وفُقدانهِ على أثرِهِ كثيرًا مِنْ وزنِه، بعد أنْ أسرَّ لهُ سعيد بتفاصيلِ آخِر زيارة...

تداعت إلى ذاكِرتِهِ أحداثُ عام السّيل حين بدأتْ مأساتهُ، رُبَّما مأساة الجبلِ كُلِّه، الحُبّ الذي ما خطرَ لهُ يومًا على بال، بل كان يعُدُّه عبثًا لا يليق ودربًا مِن اللهوِ لا ينبغي أن يتسرَّبَ وهنهُ لِعزائِمِ الرِّجال، فالمرأةُ لديهِ ما كانت سوى وسيلة للمُتعةِ وإفراغِ شُحنة داخليَّة مِن الرَّغبةِ، أداة طيّعة يطلُبها متى يرغب، ويُسكِتها بِأمرِه حين ينفرِد بأفكارِهِ في شئونٍ تُهمّه... كان ساعتها أهنأُ بالًا لا تجيشُ في صدرِهِ زفراتُهُ! هل كانَ يُدرِكُ أنَّهُ يُذيبُ كُلَّ الفروق

ويتخطَّى كُلّ الحواجِز ويجمعُ الشّتات، حين يؤلِفُ بينَ القلوب بِرباطٍ غايةٍ في الخصوصيّة كخيطٍ حريريٍّ شديد الدِّقَّة لا يُرى؟

تريزا بعينيها العسليَّة الفسيحة في صفاء العسل الأسود إذا راقَ مِن الكَدَر فالتمعَ.

وجهها الأبيض البضّ المُستدير كأنَّهُ البَدْر رغمَ ما اعتوره مِنْ صُفرةٍ كسائِرِ أهلِها! شعرها البُنيّ الذي يبدو تماوجهُ مُنسرِحًا أسفلَ غِطاءِ رأسِها حين ينزلِقُ للخلفِ، قدّها الفارِع وجسدها حلو التَّقاسيم في ليونة وطراوةٍ كأنَّهُ العجينُ المُتَرجْرِجُ في ماجورِه بين كفَّي خبَّازِه الواهِنتين! فيتماوجُ في انسيابيَّةٍ أخَّاذةٍ حين تغدو وتروح... لَكنَتها حين تتخذُ لهجةً جبليّة جنوبيَّةً صارِمةً حين تغضب فتُبالِغُ في تعطيش الجيم المُشدَّدَة وفتح الباءِ، ابتسامة التّدلُّلِ والخفَر التي تكشِفُ عن جوهرٍ مكنونٍ مِن لؤلُؤٍ مُتراصٍّ لأسنانٍ ناصعة البياض عدا أحد قواطِعَها العُلويَّة الذي كستهُ بغُلافٍ مِنَ الذَّهَب على عادةِ النِّسوةِ حين ينعمْنَ بِالتَّرَف، فيضوي سناهُ بين ثناياها كما يبرُقُ قِرطها الذَّهبيّ الكبير المُدلَّى مِنْ أُذُنيها.

تفاصيل دقيقة لم يكُن يعبأ بِها أو يهتمّ لها في تريزا التي تنحدرُ مِن سلالةٍ مسيحيَّةٍ ميسورة تقطُن الجبَلَ وترتعُ فيهِ تحت حِماية الظفَّاريين ورِجالاتِهم، كذا كان زوجها وابنُ عمِّها سعد التَّاجِر الثَريّ الذي ورِثَ عن أبيهِ وعمِّه الذي لم يُنجِب أفدِنةً وزِراعات...

لم يكُن الشّيخُ محمود يلحظُ جمالها، فلم تكُنْ مِنْ عادتِهِ أنْ يُحملِقَ في وجوهِ النِّساء ولو كُنَّ سافِراتٍ، تأبى عليهِ شهامتهُ أنْ يتطلَّعَ لامرأةٍ في كنَفِهِ وما كُنَّ يسفرنَ في حضرتِه، رُبَّما استترت السَّافِرات مِنهُنَّ أوان مرورِه بِدورِهِنَّ، مُتطيًا صهوةَ بغلتِه!!!

هل ساقَت لهُ الأقدارُ عينيها توعِز لهُ بالتَّدلُّهِ فيهِما؟ أمْ ساقتهُ رغبةٌ لعينةٌ نفخَ الشَّيطانُ في رمادها السَّاخِن فأضرمَ فيهِ النِّيران الخامِدة مِن جديد؟

وكأنَّ ترتيبَ القَدَر حقَّقَ لهُ هذهِ المُصادفة ليراها كما لم يرها مِن قبل!!!

حين هطَلَ السّيل مِن أعلى الجبلِ كأنَّها غضبتَهُ في ليالي الشّتاء، بينما الماء المُتدفِّق في صولةٍ وقوَّةٍ يكتسِحُ في طريقه كُلّ شيءٍ كأنَّهُ مارِدٌ مُستَفزٌّ جبَّار...

بينما الشَّباب قد شمَّروا عن سواعِد الجِدِّ، خلعَ بعضهُم جِلبابَهُ فبدا بصديريه على اللحم وسِرواله الدَّاخِليّ الفضفاض المشدود على الخصْرِ بِتكَّةٍ طويلةٍ مُدلَّاة، قد تلَطَّخَت أجسادهُم ووجوههُم بطينٍ ووَسَخ ممَّا جرَفَهُ السّيلُ معهُ في طوافِهِ بِالقريةِ وبيوتها، غمَرَ الماءُ بعضَهُم حتَّى بطنه، يُجاهِدونَ السّيرَ في لجةِ الماء ولجةِ الليلِ وعتمتِهِ، يتصبَّبُ العرقُ مِنَ الوجوهِ السَّمراء المتَّسِخةِ الكالحة، بينما عقَدَ آخرون ذيولَ جلابيبِهم حول خواصِرِهِم، وشمَّروا أكمامها عاليةً حتَّى الأكتاف، يلهجونَ في تخبُّطٍ وذُعرٍ وبسالةٍ، يُلملِمونَ ما وسِعَهُم الجِدّ ما قدروا على إنقاذِهُ مِنْ العجَزةِ والنِّسوةِ والصِّغار، رُبَّما الحُليُّ والمتاع والفُرُشْ، يحمِلُ كُلّ ما يستطيعُ ثُمَّ يُجاهِدُ الخوضَ بها في المياهِ للوصولِ إلى ربوةٍ آمِنةٍ عاليةٍ، لا يبلُغها السّيلُ وجرْفُه في العراء، فلا أرض حانية تؤوِيهِم ولا سماء رحيمة تُظِلّهم، يرتعِدون فتصطكّ أسنانهُم ويمتزِج في صفحةِ خدودِهِم الطّينُ مع الدّموع!!!

تصطخِبُ في ضجيج أصواتٌ شتَّى يغمُرها الفزَع تشُقُّ سِتارَ الليلِ والظُّلمة في توسُّلٍ أو نحيبٍ واستِغاثةٍ، تختلِطُ فيها أصواتُ رجالٍ ونِساءٍ وأطفالٍ وحيوان، وكأنَّ كُل فصيلٍ يُجاهِدُ أنْ يتواصَلَ مع مَنْ يُهِمُّه أنْ يبلغهُ نداءهُ، تحمِلُ رِسالةَ استِغاثةٍ أو طمأنةٍ، بينما البُكاء والنَّحيب والعويل

والصّراخ، نغماتٌ حزينةٌ سائِدةٌ تخترِق الآذان، كأنَّهُم جُمِعوا في هزيعِ الليل وقسوةِ السّيلِ ليومِ المحشرِ العظيم!

بينما تصرخُ امرأةٌ في نجع التَّرامِسة (وهو دربٌ ضيِّقٌ مُتعرِّجٌ طويل لبيوتٍ مُتراصَّة، بعضُها عالٍ، وبعضُها مُنخفِضٌ يكادُ يطغى بعضُها على بعض لا تبلُغُه الشَّمسُ مِن فرطِ ضيقِه، يتوسَّط قرية الجبلِ، تقطُنُهُ أُسرٌ مِنْ نسلِ عائِلةٍ واحِدةٍ، فرَّت قديمًا مِن قريةٍ مُتاخِمةٍ لمدينة قِنا هربًا مِن دمٍ يطلُبُهُم وثأرٍ يسعى وراءهُم، فالتجئوا لقريةِ الجبلِ النَّائِيةِ بزوجاتِهم وذراريهِم، واستوطنوا هذا النَّجع جيلًا بعدَ جيلٍ، في كنفِ الظَّفَّاريين الكِبار)، هرَع الرِّجالُ نحو الصّوت ولوجًا في دروبٍ مِن المياه، كادت المرأة تغرق فجبذها أحدُهم من شعرها الذي طفا وتهوَّشَ فوق الماءِ، فأخرجها مِن لجةٍ عميقةٍ انزلقت إليها، وهي تبحثُ عن صغيرةٍ لها في ذلك الدَّرب الضَّيِّق المُظلِم الطَّويل، بينما تلطُمُ أُخرى خديها اللذين كادا يتصدَّعان مع رأسِها وهيَ تولوِلُ: غرقت بهائِمنا، ضاعَ كُلّ ما نملِك، ارحم يا رحيم...

لم يُرَ فقدًا وغمًّا في يومٍ مِثل هذا اليوم، الكُلّ ثكلى حتَّى مَن نجا مِن السَّيلِ بأهلِهِ ومالِه، جمعت المُصيبةُ سُكَّان الجبلِ فتكاتَفت أياديهِم، انصهرَ الكُلُّ في واحِدٍ، فلم يُعرف ساعتها الحاجّ مِن المُقدِّس ولا المرأة مِن الرَّجُل، والتجأ مَن التجأ للمسجِد والكنيسةِ طلبًا للأمان الذي فتحَ للبائِسين ذراعيه دون أنْ يسألَ عن هوياتِهم أو دينِهم!!!

الجميعُ يعملُ لاستنقاذ الأرواحِ وإخراج المُحاصَرين بالسّيلِ من دورِهِم... في يومٍ كيومِ الحشْرِ تختلِط فيهِ الخلائِق ويعلو صراخُهُم، بينما يُهرولون في تخبُّطٍ وصخبٍ منْ دون اتِّزان، ينشُدُونَ النَّجاة، فلا يُعنى أحدٌ بمظهرٍ يبدو فيهِ مُستغْربًا، أو على أيّ حالٍ يكون، خرجت فيهِ النِّساء

سافِراتٍ يبغينَ النَّجاةَ على حالِهِنَّ في خدورِهِنَّ وقتَ اقتِحام السّيل بيوتهنَّ، لم يدعْ هولهُ لُهُنَّ جَنَان يعبأْنَ معهُ بتحشّمٍ ولا استِتار، شُغِلنَ عنْ كُلِّ ذلكَ بخَطبٍ أفدح ألهاهُنَّ عن أمورٍ أصبحت تافِهةً هيّنَةً!

فحين يُمهِلك القدرُ لحظات تختار فيها بينَ حياتِك وحيائِك، يُصبِح شأنَ الحياءِ غيرَ ذي قيمةٍ، والاكتراثُ لهُ دربٌ مِنَ العبَث، حين تنتظِرك النِّهايةُ على بابِك أو حول دارِك أو يُداهِمكَ الموتُ في عُقْرِها، لن تهتمَّ إلَّا بدفعِهِ أو الفِرار مِن زحفِهِ ولو كُنتَ عاريًا!!! حين يُصبِحُ الاحتِشام والسّترُ ترَفًا ليس هذا وقتُهُ، ورفاهية تودي بحياة صاحِبها المُغَيَّب!!!

ومَن لا تهتمُّ بشأنِ وليدٍ لها وتُقدِّم نجاتهُ على نجاتِها؟ فتنتحِب حين يخفي عنها مصيرهُ في وسط رُكام الخرائِب والدّورِ المُتهدِّمة، فتستصرِخُ نجاتهُ هاتِفة باسمِه تناديهِ صارِخةً في وَجَلٍ يقطعُ نياطَ القُلوب، حاسِرة الرَّأسِ مهوشة الشَّعْرِ، تهيمُ شرقًا وغربًا في ضلالٍ وتيهٍ أعماها أنْ تستشعِرَ البَرْد النَّافِذَ لجسدٍ لم يستترِ إلَّا بغلالةٍ رقراقة!!!

ومَنْ يُعنى بالتَّمعُّنِ في ذواتِ الخدورِ بعد فِرارِهِنَّ مِنها، ولو كان بلا أدنى وازِعٍ مِن شهامةٍ أو ضميرٍ وسط هذا الكرب وشبح الموت يطوفُ فوقَ رأسِه؟

وقد ألهتهُ اللواهي وشغلتهُ النَّوائِب، وهو يرى ويُعاين الموت والخراب في كُلِّ خُطوةٍ يخطوها!!! فمَن لم يكترِث لبقائِهِ شغلَهُ التَّفكير في حياةِ ذويه مِن أهلٍ وولدٍ ومالٍ، فهرولَ ناحيتهم في جزع وخوف، وكأنَّ رهبةَ الموت تبُثّ في القلوبِ ذُعرًا لا يدع داخِلها موضِعًا لشيءٍ غيرِه!!!

بينما تصطخِبُ أصواتٌ مُتداخِلة تعلو وتخبو مِن بعيد وسط ظلامٍ مُطبِقٍ مُخيف... يا جرجس... يا حراجي... أنقذني يا عبد الله... أينَ أنتَ يا

بيشوي... يا عذراء... يا يسوع... أغثني يا رب يا رحمن... خذ بيدي يا رحيم!!!!!!!!!

رُبَّما في غير هذه المخاضة حينَ يُحلِّق شبح الموت الرَّهيب فوق كُلِّ دار باسِطًا جناحيهِ مِنَ الظُّلمة والرُّعب، كان يُمكِنُ أنْ يُمعِنَ أحدَهُم النَّظر في ثديٍّ بضٍّ أو عجيزةٍ مدوَّرةٍ لحسناء ألصق الماءُ رِداءها الشَّفيف بِجسدِها فتراءت لهُ أشهى ما تكون، أو نفذ بعينيهِ في ذراعين وكتفين مُمتلِئين في استِدارةٍ ونعومة، خلال رِداءٍ حاسرٍ عنهُما، وقد كان يوجَد مَنْ يتمنَّى النَّظرَ لقُلامةِ ظفر أُنثى فتخترِق عينهُ الحواجِزَ والجُدران ليرى تِلال السَّواد مِنَ النِّسوةِ المُحتشِمات وقدِ انهارت جميعهنَّ، فتراءينَ لهُ في حُسنهنّ منكشِفات، حاسِرات الشَّعر والأجساد، ولكن مَنْ يعبأُ الليلة بأيٍّ مِنْ ذلك وإنْ تردَّى في غِمار شهوتِه، كيوم الحشرِ ﴿لكُلِّ امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾ بيد أنَّ هول ليلةِ السّيل وإن عظُم لا يدنو مِن هولِ الحشرِ حين يروم كُلّ مخلوق النَّجاة بِنفسِه دونَ غيرِه، أمَّا ليلةُ السّيل فنرى مَن يقتحِمُ الموتَ ويُلقي بنفسِهِ في المهالِك افتِداءً لعزيزٍ عليهِ أو استنقاذًا لنفيسٍ يملِكهُ، فأين هذا مِنْ يوم الموقِف العظيم وإنْ تشابها في التَّضاغُن والتَّخبُّط والهلع!!!

مَنْ ذا يتصوَّر أنْ يتحوَّلَ الماءُ الرّقراق الذي يُطفئ غلَّة الحرِّ ونار العطشِ لوحشٍ مُهاب يقتُلُ ويُغرِقُ، يهدِم دورَ الآمِنينَ ويُشرِّدهُم، حينَ يجرِفُ السّيل في طريقِهِ كُلَّ شيءٍ، ويقتحِم البيوت مُتسلِّلًا بين الدّروبِ، يجتاحُ المكامِن الوادِعة، حامِلًا معهُ كُلَّ طافٍ، غامِرًا في طريقِهِ كُلَّ نفيسٍ ذي كثافةٍ؟!!

كان الجدُّ سمعان القعيد يصرخُ ويولوِلُ بعد أنْ اقتحمَ السّيلُ دارهُ وجرفَ تيّارهُ ما علقَ أعلاهُ في طريقِهِ، وقبعَ في صحنِها كأنَّهُ بِئرٌ مِن الماءِ العطِن، فقد كانت دارهُ العتيقة في حيّ النَّصارى أقرب ما تكونُ للخندقِ

السّفليّ مِن عُمقِ انخِفاضِها عن غيرِها، مِنْ أقدمِ بناءاتِ الحاجِرِ مؤلَّفةً مِن الطوبِ اللبِن، جُدرانها مطليَّة بالطّين والتِّبن، كأنَّها قبوٌ مُظلِمٌ كئيبٌ، حُجراتُهُ ممرَّاتٌ ضيِّقةٌ خانِقةٌ تستجلِبُ الضّوء عبرَ كوّاتٍ صغيرةٍ قُرب السّقفِ، تنتهي بحظيرةٍ غيرِ مسقوفةٍ، ينبعِثُ مِنها العفَنُ ومُخلَّفات الدّجاج وروث البهائِم، يقبعُ العجوز سمعان الذي جاوَزَ نيِّفًا وثمانينَ عامًا قضاها في فقرٍ مُدقعٍ وعوَزٍ وشُحٍّ شديدين على مصطبةٍ طينيَّةٍ في صحن الدَّارِ مُلتصِقةً بالجِدار الذي يُفضي إلى بابِهِ الكبير، يفترِشها مفرشٌ مُضلَّعٌ سميكٌ قدِ اهترأ (كلِيم) والتَصق به وسَخٌ أخفى لونَهُ القديم، يتوسَّد مخدَّةً وحيدةً محشوَّة ليفًا وخِرَقًا باليةً لا تختلِف كثيرًا عن فرشتِهِ اتِّساخًا وقذارةً حتَّى لا يبدو لون قماشِها مما غلَّفها مِن عرقٍ وطين، فهيَ لا تُبارِحهُ ليلًا حين يتوسَّدها ونهارًا حين يتَّخِذُ مِنها مُتَّكَئًا، وكأنَّها رفيقة رأسِهِ السَّمراء التي دقَّها المشيب فنثرَ حولَ صلعَته شعراتُ عجْزِهِ البيضاء، فبَدَت رأسُهُ كأنَّها قُبَّةٌ سوداء ينبُتُ حولها العُشب الأبيض، أمَّا جسدهُ فمُتَثاقِلٌ بدينٌ مِن طول قُبُوعِهِ جرَّاء العجزِ الطَّويل، وبَدَتْ بطنُهُ عظيمةً مُتَرهِّلةً كأنَّها بالون مِنطادٍ قد ثُقِبَ فأخذ في الانكِماش فاقِدًا استِدارتهُ وتدويرهُ... لم يكترِث العجوز لأمرٍ سِوى وسادتِهِ التي جرفَها السّيل، لم يأبَه لمصيرِ زوجِهِ وأبنائِه وحفدتِه، حين ظلَّ يصطرِخُ ويولوِل كامرأةٍ ثكلى: ائتوني بوسادتي... أنقذوا حياتي وأنقذوها!!! كأنَّها حبيبة عُمرِهِ التي أهمَّتهُ، لم يُبكِيهِ مشهد دارِه التي ليَّنَها السّيلُ كَقِطعةِ طينٍ، ولا مواشيهِ النَّافِقةِ، لم يُعنَ بشيءٍ مِنْ ذلِك، فقط استبدَّ بِه صراخٌ هيستيريٌّ لا ينقَطِع، طالِبًا وسادتهُ في توسُّلٍ ورجاءٍ، لم يصرُخ لنجدتِهِ وإنقاذ روحِه، وصرخ لِنجدَتِها، وكأنَّها أغلى عِندَهُ مِن حياتِهِ!!! حتَّى ظنَّ الجميعُ أنَّ

مسًّا مِن جنونٍ أصابَهُ فانتابهُ الخَرَف مِن هولِ صدمةِ تدفُّق السّيلِ لِدارِهِ ليلًا بينما يغطُّونَ في سُباتٍ عميقٍ...

عاشَ عُمرهُ على الفُتات، عارٍ تكتنِفهُ أرديَة مُهتَرِئة يصبغها الوَسَخ، كأنَّها الذّلّ يغسِلهُ ليرتديه مِنْ جديد!!!

لم يهدأ سمعان رغْمَ نجاةِ أهلِ بيتِهِ جميعًا، ولم يلتفِت لمحاولاتِ طمأنَتِهِم لهُ ولا تهدِئَتِهِم لِروعِهِ، يُصِرُّ على طَلَبِهِ الغريب، بينما الجميعُ معنيٌّ بإنقاذِ الأرواحِ، لا يلتفِتونَ لعويلِهِ في هذا الخِضمِّ الهائِل الذي تفوح فيهِ رائِحة الموت والخراب!!!

وجدُوها مُصادفةً طافِيةً في دِهليز الدَّرب الضَّيِّق، حينها فقط فطنَ النَّاسُ لِسرِّهِ حينَ أنقذوها قُبيل أنْ توشِكَ على الغَرَقِ في المياهِ الطِّينيَّةِ مِن فرطِ ابتلالِها!

حينَ مزَّقَها بِسرعةٍ، ليُدرِكَ الجميع أنَّ وسادتهُ محشوَّة ورقًا نقديًّا في كيسٍ أسودٍ كبيرٍ، كأنَّها حُبلى بثروةٍ جعلتْها توشِكُ على الانفِجار، رغمَ تجشّمِهِ شظفَ الفَاقةِ والعوز، وتحمُّل أهله معهُ شظف عيشٍ ومذلَّةٍ، وقضائهم أغلى سِنين عُمرِهِم في هَوَانِ الفَقْرِ والحاجةِ، يحيون على المعونات والهِباتِ التي كان يكْنِزها! لم يكُنْ سمعان سِوى ثريٍّ مُقتر، أرادَ اللهُ للسّيلِ أنْ يكشِفَ سِرَّهُ المخبوء في باطِنِ وسادتِه!!!

تسلَّل الماءُ خِلسةً مِنْ أعتاب باب الدَّارِ الكبير الذي يعلوهُ نقشٌ بارزٌ لصليبٍ مِنَ الحجَر البارِز، كان البابُ مِن خشبٍ قويّ غليظ تترَّسَتْ بِهِ الدَّار، كأنَّها مُحصَّنةٌ وراءَهُ، بينما أخذَ الماء يرتفِع دونما صَخَب أو جلَبة رويدًا رويدًا كأنَّهُ لصٌّ مُحترِفٌ يُجيدُ التَّسلُّل دون لفتٍ لِلانتباهِ، حتَّى كادَ يغمُرُ قاطِنيها وهُم يعتلونَ صهوة أسِرَّتهم، يغُطُّونَ في سُباتٍ عميقٍ!!!

كانت تريزا ترتدي غُلَّةً رقيقةً تكادُ تستُرها تُبدي ذراعين كأنَّهُما قُدَّا مِن عاجٍ أو كأنَّ جفنتي لبنٍ أبيض قد صُبَّا في قالبها الانسيابيّ الشَّفيف، بينما الشَّعْر البُنيّ المهوش مُنسَرِحٌ وكأنَّهُ يُمضي وقت راحتِهِ في دياجير المساء، ينعم بخصوصيّة المخدع دونما قيدٍ أو غِطاءٍ يكبحُ جِماحهُ وتطايُرهُ، بعد طول أسرٍ في النَّهار وقيده في جدائِل، وتطويقِهِ في مِنديلٍ تغمُرهُ جُبَّة سميكة سوداء!!! وكأنَّهُ أسيرٌ انطلقَ لِتوِّهِ مِن محبسهِ فراحَ يهيمُ في كُلِّ طريقٍ ينهلُ مِن حُرِّيتِه كيفما حلا لهُ دون رقيب...

في رِداءِ نومٍ كأنَّهُ لا شيء، فلا يكادُ يسترُ لجسدِها البضِّ عُريًا، ولا يُخفي ما بدا وراءهُ، وهيَ المُحتشِمة المُتعفِّفة في غيرِ هذا الموضِع وهذا التَّوقيت!!! إلَّا أنَّ سُخونة الدَّار وصهد جُدرانِها وأمْنها في مُستقرّها دفعها للتَّرفُّعِ عن الاحتشام وإطلاقِ العنانِ لجمالِها المُكبَّل، وتحرير جسدها العاجيّ البضّ المُمتلئ في ليونةٍ وطراوةٍ، وكأنَّهُ موجٌ ليليّ يغدو ويروح، مِن إسارِ الثِّيابِ الصَّمَّاء الكثيفة التي تكتنِف أجسادَ نِسوةِ الجبلِ والجنوب شِتاءً وصيفًا كالهمّ الثَّقيل الذي لا مناصَ مِنْ حملِهِ ولا سبيل للتَّخلُّصِ مِنهُ، إذا سُمِح لإحداهُنَّ بمُبارحةِ مسكنها!!!

لِردائِها الليليّ المُثير فتحة صدرٍ فسيحة تُبدي الأُخدود المُتوغِّل بينَ ربوتين عاليتين لِنهدٍ رخوٍ مُتَراقِصٍ يترجرجُ كالماءِ في القِنِّينة، كأنَّهُ زبرجدٌ مرمريّ يضوي في الليلةِ الظّلماء، تبرُز أسفل رقيقِ ثوبِها حلمتانِ بُنيّتانِ تحيطُهُما بُقعةٌ بُنيّةٌ مُستديرةٌ كأنَّها سؤرُ ما تبقَّى من القهوةِ في الفِنجان، تنتصِبانِ في حِدَّةٍ وتحدٍّ لأيَّةِ مُقاومةٍ، بينما رِدفها المُتوثِّب العالي كأنَّهُ يتْبعها أنَّى توجَّهَت، كأنَّهُ كِيانٌ مُنفَصِلٌ عنْ قدّها المُتثنّي، وأفخاذ عريضة غليظة كأنَّهُما قالبي مرجان...

بينما الوجه آيةٌ في الفِتنةِ والسِّحر بأنفِها الأقنى والشَّفتين الغليظتين المُنفرِجتينِ قليلًا لِتبدو خلفهُما ثناياها اللؤلؤيَّة، وكأنَّهُما تومِئانِ بالشَّهوةِ والنّفور، عَلقَت بِهِما آثارُ احمِرارٍ فبدتا كثمرتي طماطِمٍ رُبَّما مِن بقايا أثرِ التَّجمُّلِ فزادتاها فتنةً وجاذِبيّةً!!! لم تخلُ عيناها الفسيحتانِ مِنَ اكتِحالٍ، كأنَّهُما خارِجتانِ لِتوِّهِما مِن مكحَلَةٍ، وكأنَّهما اغتسلتا في سوادِ إثمدِها، حاجباها رفيعانِ قد زُجِّجَا بعِنايةٍ فبدوا نحيلينِ كأنَّهُما قوسٌ يُريمُ جناحاهُ على العيون الجميلة...

يبدو أنَّ السّيلَ داهمها مِن حيث لا تتوقَّع، أو أغراها الشَّيطانُ ليلتها بالتَّعرِّي حين نفَسَ في أجواءِ حُجرتِها الحرارة والصَّهد في ليلةٍ شتويّةٍ دافِئةٍ، واقتحمَ بِقدمِ السّيلِ خِدرها، فانكشفَ ما خفي مِن جميل حُسنِها الذي ما كان يبدو لإنسانٍ لولا تصاريف القَدَر، وهيَ المُتَعفِّفةُ الطَّاهِرة، أو كانت تغُطُّ في سُباتٍ كالخدَر عقِب لِقاءٍ زوجيٍّ أسلمها خُمُولُ نِهايتِهِ للنّومِ مُنهَكَة شِبه عارية، لم تُدارِ تكشُّفَها أو توارِ فِتنتها، ولم يُسعِفها الوقتُ لاستِبدالِ ثيابِ نومِها المُثيرة!!!

ازدادَ صراخُ القريةِ وعلا ضجيجها الذي أفزعَ كُلَّ الدّور، فنهضوا في فزعٍ، فاهتاجَت "تريزا" ذُعرًا حين رأتْ سريرها يتوسَّطُ الماء الذي غمرَ أرضَ حُجرَتها، بينما كادَ "سعد" الذي تشابكت أجفانُهُ أنْ يسقُط في الماءِ الذي قفزَ فيهِ بعد أنْ راعهُ الصّراخُ والنَّحيبِ مِن فوقِ سريرهِ في الظَّلام ظنًّا مِنهُ أنَّهُ يطأُ الأرضَ، فإذا بهِ ينزلِقُ في بِركتِهِ فتلتوي قدمُه...

عَلَا صراخ "تريزا"، خشيت على أخيها الصَّغير "مُنتصِر" ذي الأعوام العشرة، الذي يرقُدُ في الحُجرة المُجاورة، وتكفُلهُ كولَدِها بعد فقدِ والديها، الانزلاق في لجة الماء الذي غمرَ الدَّار بِأكملِها، فاستبدَّ بها هياجٌ وارتياع

وطفِقت تُنادي: مُنتصِر مُنتصِر بينما تُعالِج مع زوجِها فتح بابِ الحُجرة الذي تترَّسَ بمُحاصَرة المياه حولهُ، ويُحيطُ الماء بأفخاذِهِما، فاصطرخا طالِبَين الغوثَ والنَّجدة!!!

كادَ صوتها يتلاشى بعد أن بُحَّ مِن شِدّة الصّراخ والهلع وسطَ الضَّجيج والزَّخَم القادِم مِن الخارِج، الذي بدا أعلى مِن ذي قبل، وكأنَّ هُناك مَنْ فطنَ لِحصارِهم وسارع لإنقاذِهم، بعدَ أنْ تسلَّل لهُ صوتُهُم بين استغاثاتٍ كثيرةٍ إثْرَ تهدُّم بعضِ الدّور القديمةِ المُتهالِكةِ واقتلاعِ السّيل للأشجارِ، بعد أنْ كشَّرَ عنْ أنيابِهِ فتدفَّقَت أمواجهُ الهادِرة...

راعَها الشّيخ محمود أبو ظفَّار شيخ الجبلِ، كان رجُلًا فتيًّا لم يتجاوَز الأربعين موفور القوَّة والشِّدّة يكسِرُ باب الحُجرةِ ببلطَةٍ بين يديهِ، رافِعًا ذيلَ جِلبابِهِ مِن الخلفِ على منكبِه، فبدا سِروالهُ الأبيض الغامِر الفِضفاض، كانت ساقاهُ طويلتانِ في غيرِ هُزالٍ، كأنَّهُما أوتادٌ راسيةٌ في الأرضِ لا تتزعزع، تُنبِئانِ عن قوَّةٍ وفُحولةٍ خاصَّةٍ يشُقُّ بِهِما الماءَ شقًّا تحمِلانِ جسدًا فارِع الطّولِ!!! فانتابتها إغماءةُ الذي جاهدَ بلوغ النَّجاةَ حتَّى اطمأنَّ لها فخارت قُواهُ، حملها الشّيخُ بينَ ذِراعيهِ مِن حُجرتِها التي تحوَّلت لبئرٍ تغمُرهُ لجة مِن الماء، تبِعهُ "سعد" مُتوكِّئًا على الجدار يُعاني ألَمًا حادًّا في قدمِه المُلتويَة لا يقدِرُ على السّيرِ إلَّا بِمشقَّةٍ وجُهْدٍ...

فتحت عينيها فرأت الشّيخ يُطِلُّ مِن عليائِهِ، كأنَّهُ يستشرِف عينيها المُغلقتينِ أن تبوحا بِما أخفتا، يضعُ على أنفِها بصلةً لإفاقتِها في رحمةٍ وشهامةٍ، بينما "مُنتصِر" يجهشُ بِالبُكاء و"سعد" يُحدِّقُ في ذهولٍ، كأنَّهُ الغريبُ لا الشّيخ!!!

استعادت الأحداث التي غابت عنْ ذِهنِها حين غابت عن الوعي... فحلَّ جَسُورٌ يقتحِمُ عبابَ السّيلِ في بسالةٍ لإنقاذِ أهلِ الجبلِ الذين في تبعيَّته، فيُعرِّض حياتهُ للخطرِ... رُبَّما الغرق أو تهدُّم دارٍ واهِنةٍ فوق رأسِه، وكان في غنىً عنْ كُلِّ ذلك، يكفيهِ أن يقِفَ موقِف المُتفرِّج الأسيفِ، مِن فوقِ ربوةِ قصرِهِ العاليةِ التي لم يبلُغها السّيل، وينتظِر وصولَ فِرقِ الإنقاذ الذين أبلغهُم بِالكارِثة، لا أنْ يخوضَ مع أبنائِه وعشيرتِه المخاطِرَ لإنقاذ النَّاس!!!

أدخلهُ القدرُ دارها ووقعت عينهُ عليها فأشعلت النَّارَ في قلبِهِ الجسور، أضفى الهلعُ والإغماء مسحةَ فِتنةٍ إضافيّةٍ لِجمالِها الفاتِن الأخّاذ، الذي تكشَّفَ فبدَت كأنَّها عاريةً بعد أنْ التصقَ الماءُ بِغُلالتِها الرَّقيقة!!!

أشاحَ الشّيخُ وجههُ بعيدًا بعد أنْ أودعها مكانًا آمِنًا، سكنَ الرُّعبُ عنها فانتبهت لِحالِها، وطلبت مِن "سعد" أن يجلِبَ لها ما يستُرها، فاجتذبَ غِطاءً يفترِشُ كنبة في مدخلِ الدَّارِ قد غمَرها الماءُ، غلَّفَت جسدها بِه في خجلٍ مُستطير، جعلَ الدَّم يكادُ يضجُّ مِن وجنتِيها، كأنَّهُما جمرتانِ مِن نارٍ!!! دِثارٌ توغَّلت فيهِ تواري حياءها، فما بدا مِنها غير بعضِ وجهِها، تواري ما أوقد اللهب في وجدانِ الشّيخِ حتَّى أطلَّ مِن عينيهِ!!!

أحسَّ كُلّ شِبرٍ فيها أنَّهُ مُخترَقٌ بِنظرات الشّيخِ كأنَّها سِهامٌ نافِذة، أسرعَ الجميع بمغادرةِ الدَّار بعد أنْ جاهدوا السَّيرَ في بِرَكٍ تتفاوتُ أعماقها بين الضَّحْلةِ والعميقة التي تتجاوزُ الأفخاذ، وِفقًا لارتفاع الأرضِ وانخِفاضِها في صحنِ الدَّارِ أو غُرفِهِ، خوفًا مِن انهيارِ سقفِهِ فوقَ رءوسِهم!!!

التجأ كثيرون للدّور العالية التي بُنيَت على روابي مُرتفِعة، لم يبلُغْها السّيل، بينما انهارَ سور الدّير الطّينيّ، وتهدَّمَت حظائِرُ ماشيتِهِ، ونَفَقَت حيواناتها، لكنْ بقي مبنى الدّير والكنيس لم يُصَابا بأذى،كذا غُرفُ الرُّهبان...

آوت "تريزا" و"سعد" لِقصرِ الشّيخِ العالي، رُبَّما لِجوارِ دارِهِم لهُ، أو أنَّ سعدًا لم يكُن يملِكُ حقَّ الرَّفضِ أو القَبول، بعد أمر الشّيخِ لهُ بذلِك!!!

آوَت "تريزا" و"مُنتصِر" الصَّغير لُجُراتٍ فسيحةٍ في الطَّابق السُّفليّ أُعِدّت لاستِقبال النِّسوة والصِّغار، حيثُ قُدِّمَت لهُنَّ أرديةٌ جافّة وأغطيةٌ وطعام، بينما نُصِبت خيامٌ حول القصر وفي ساحتِهِ للرِّجالِ وقُدِّمَت لهُم الأطعِمة والبطاطين...

خيَّمَت صورة كئيبة على القرية بعد تهدُّم كثير مِن دورِها، وفقد أثاثها وتحطُّمِهِ، وضياع حُقول وغمر أراضٍ ومحاصيل، ونفوق حيوانات، حتَّى حوانيت التِّجارة لم تسلَم مِنَ الأذى والخُسران!!! ورغم كُلّ ذلِك لم يكترِث سِوى بالأرواح التي حصدها السّيلُ والأجساد التي قبعتْ في طيّاتِهِ وتحت جُدرانِهِم المُهدّمة!!!

ومَنْ جرفهُ السّيلُ مِن عجَزةٍ وأطفال ومساكين.

خيَّم الحُزنُ على الجميع، وبسطَ رِداءهُ المُظلِم على كُلّ مَنْ شهِد المأساة، حتَّى مَن هانت خسارتهُ أو نجا بمالِهِ وأهلِهِ مِنَ الكارِثة، أدرَجت الدَّولة حاجِر أبو ظفَّار مِن ضِمْن القُرى المنكوبة مِن السّيل، وشرعَت في تعويض المُتَضرّرين، فأقامت لهُم مساكِن بديلة (قرية السّيول) فوقَ هضبةٍ مُرتفِعة في منأىً عن السّيل لو طرق القرية ثانيًا، ورَصَفت بِجِوارِها أرضًا فسيحةً لهُبوط طائِراتِ إغاثة لإنقاذ النَّاس حين تقتضي الضَّرورة، كما أقامت ترعةً صِناعيَّةً جافَّة تنحدِرُ مِن الجبلِ مُبطَّنة بالحجر الأبيض المُتلاصِق في القاعِ والأجنابِ كأنَّهُ خليةُ نحل؛ لِتكونَ مخرًّا للسّيلِ وطريقًا يسلُكُه الماء المُتدفِّق مِنَ الجبلِ في عُنفوانٍ وغضبٍ، يقودهُ إلى مصبِّه في مصرفٍ ينتهي إلى النّيلِ، ومستوصفًا صحيًّا...

ازدادَ فُقراءُ الجبلِ فقرًا، وفقدَ كثيرٌ من ميسوري الحال كثيرًا مِن مُتلكاتِهم، ومصاغ نِسوتهم، جرَفَ السّيلُ كخيلٍ جامِحٍ ما قابلهُ، فاكتسحَ الأخضر واليابِسَ والأرواح...

انحسرَ السّيلُ عنِ القريةِ التي عادت تُلملِمُ شعثَها ولَمَّا تندمِل فيها الجِراح، كُلٌّ يُحاوِلُ أن يُصلِحَ ما أفسدهُ السّيل، ما وسِعهُ الإصلاح، وساهَمَ الظّفّاريُّون يتزعّمهُم الشّيخ محمود في مؤونة النّاس ومعونتهم، فشارك في تعويض خسارة البعض منهم مِن مالِه الخاصّ في أريحيّةٍ وشهامةٍ وعطاءٍ ليس لهُ مثيل!!!

صارَ مضرِب الأمثال في الشّهامة والجود، وتعمَّقت محبتهُ في القلوب مُمْتزِجةً بمهابتِه وصارَ مضرِبًا للأمثال!!! رغم خسارتِهِ كثيرًا مِن زراعاتِهِ في أراضٍ شاسِعة ومخازِنها التي أتلَفَها السّيلُ وغمْر الماء!!!

كانَ كالبحر لا تؤثِّرُ فيهِ زيادة أو نُقصان! وسعى بما لهُ مِن نفوذ وكلِمة مسموعة عند دوائِر صُنع القرار بالإقليم والمجالِس النِّيابيَّة وأعضائها، في توجيه الأنظار نحو قريته المُضارّة ودعم المنكوبين فيها...

لكِنَّ كارِثةً مِن نوعٍ آخر ألّمت بالشّيخ، حين باتت صورتها ليالي متواصِلة تُطارِده في بهاءِ حُسنها وأنوثتها المُتفتِّحة كالثَّمرةِ الشَّهيّة، تطرُقُ بابَ أحلامِه وادِعةً في رِقّةٍ باسِمة في خفَر، كملاكٍ حائِرٍ، لم يعُد يملِكُ جماح روحِه التي هامتْ بها عِشقًا، وكأنَّ سكينًا مِن لهبٍ اخترقَ فؤادهُ فأضناهُ، وأعيتهُ الحيَلُ في مُداواتِه بتعمُّد الانشغال... ولكن هيهات لما انغرست جذورهُ في صميم الأرض أنْ يُقْتلعَ مِن الأعماق، هل مدَّ إبليس حبال المودَّة الخفيّة بينهُما حين اجتاحتها نظراتُه الواهِمة المشدوهة ليلتها، فتفتَّحَ لها قلبها واستجابَ لِرسالةِ العِشقِ المخبوءةِ في عينيه وفتحَ لها مغاليقهُ؟

لم يكُن يُمعِن النَّظَرَ في النِّساء، ولا يُخاطِبهُنَّ عن قُربٍ إلَّا وقد أُسدِلت بينهُ وبينهُنَّ الحُجُب، تمنعهُ أريحيّةٌ وشهامةٌ مِن التَّطلُّع لامرأةٍ حتَّى اصطدَمَ بِجَمالِها الأخّاذ، الذي لم يتصوَّر مدى فِتنته ولم يعهدهُ في نِسوتِهِ، رغم بعضِ الحُسنِ فيهِنَّ، وكأنَّ القَدَرَ حين أعطاهُنَّ جزءًا مِنهُ سلَبَهُنَّ آخر، فاقت "تريزا" في عينيهِ أجملَ نِسائِهِ رفيعة والدة سليم طليقته وكأنَّها أودِعت الجمال كامِلًا غيرَ منقوصٍ دون نِساء الأرضِ أجمعين...

كانت زوجاتهُ تستَجِبن لرغبتِهِ استِسلام الذَّبيحةِ لسكّين القصّاب في طاعةٍ وخجلٍ، يمضين بين يديهِ واجِبًا ثقيلًا ليس مِنهُ مفرّ، يخضعْنَ لهُ مُكرَهاتٍ وجِلاتٍ، فيؤدِّينهُ في تأفّفٍ ونفُورٍ، وكأنَّهُنَّ لا يُمارِسنَ حقَّهُنَّ في المُتعةِ والحياة، بل يدْفَعْنَ ضريبةَ كونهنَّ نِسوة الشّيخِ المُهاب!!!

أتُراهُنَّ قيَّدتهُنَّ التَّقاليد فصوَّرت لهُنَّ الجِنس إثمًا وخطيئةً؟ وتراكمَ المنعُ في نفوسِهِنَّ مُنذ الصِّغَر حتَّى صِرنَ يأبينهُ على الزَّوجِ، بعد أنْ ترسَّخَ في أعماقِهِنَّ أنَّهُ تصرُّفٌ مُستهْجَنٌ وعملٌ مرذولٌ، وكأنَّهُ كابوسٌ بغيضٌ يتحاشينَ غلقَ أجفانِهِنَّ فيطْرُقُهُنَّ بِقسوةٍ؟ وأنَّ الاحتشامَ والتَّمنُّع في حضرةِ الزّوجِ كرامة وشرَف، حتَّى يُدفَعنَ لاستِسلامٍ مُترفِّعٍ مُجبَرٍ، فيُظْهِرنَ رفضَهُنَّ وإنْ خالَجَتْ نفوسُهُنَّ خوالِجُ الرَّغبةِ والاشتِهاء كغيرِهِنَّ مِنَ النِّسَاء!!!

أم تُراهُ عادة خِتانِهِنَّ القديمةِ، حينَ بتروا فيهِنَّ الإحساس في جوْرٍ واضِحٍ، فَصِرْنَ مُجَرَّدَ فتَحاتٍ لِلإيلاجِ دون مُتعةٍ أو إثارةٍ، جعلَت المُمارَسةَ وعدَمها لديهِنّ سواء، أو رُبَّما هي السَّبيل الوحيد للنَّسلِ والولد، وإحكامِ قيدِ الزّوجِ عن التَّسلُّلِ خارِج بيتِهِ!!!

أتُراها هيبتهُ التي طَغَت على حياتِهِ كُلَّها حتَّى أدقّ اللحظات، جعلتهُنَّ في حضرتِه أشبه بِجمادٍ يُحرِّكهُ كيف شاءَ دونَ أدنى مُقاومة، فيخضَعنَ لإرادتِهِ

مُتغافِلاتٍ عن رغباتِهنَّ وكوامِن نفوسِهِنَّ، في رهبةٍ ووجلٍ، يخشينَ تنغيصَ لذّتِه وإثارة غضبه، فيُصبِحنَ كعرائِسِ الأطفالِ في يديهِ خاليات مِن الوَهَج، فزِدنَ مِنْ زُهدِهِ فيهِنَّ مِنْ حيثُ أَرَدنَ إرضاءَهُ، فتركَ الرَّغبةَ في أجسادِهِنَّ الجافَّة كنخلاتِ الصَّحراء، كجاريةٍ تمنحُ جسدَها سيّدها وهي تخشاهُ بِلا روحٍ كأنَّهُ يستلقي فوق لوحٍ مِن خشَب!!!

كانت "تريزا" نوعًا آخَر مِن النِّساء لم يُجرِّبهُ، في جسدِها فِتنةٌ كأنَّها نارٌ موقَدةٌ لا تنطفئ، في دلالِ عيونِها شبقٌ لِرجولتِهِ لا يرتوي، وفي أنفاسِها وحيرتِها أنوثةٌ ناضِجةٌ مُستبِدَّةٌ أبيّة مُغترّةٌ بِجمالِها الذي يُناديهِ، فيأبى قلبهُ إلَّا أنْ يستجيبَ للنِّداء...

لكِنَّ مُهجةً أُخرى أُضنيت فصارت مؤرّقةً، وكأنَّ سهمًا واحدًا نفذ إلى قلبيهِما معًا! قوَّتهُ وبسالتُهُ وشهامتُهُ تلك التي دفعتهُ للوقوف مع أهل الجبلِ ساعِدًا بِساعِدٍ، يشحذُ الهِمَمَ ويُعَرِّض نفسهُ للمخاطِرِ، يُلقي بِها في غِمارِ الماءِ كفارِسٍ جسورٍ لا يهابُ الموتَ في ساحةِ القتالِ يتقدَّمُ الصّفوف كليثٍ غضوبٍ!!!

عيناهُ الضّيِّقتانِ الثَّاقِبتانِ وهما تخترِقانِ كشُعاعٍ مِن لهبٍ كُلَّ ما تقعانِ عليهِ فينفذُ لحظهُ ماضيًا لا يوقِفهُ شيء، وقعتْ نظرةُ الشَّيخِ في قلبِ "تريزا" موقِعًا رائِعًا، حين أصابها شُعاع عينيهِ فأجابتهُ خلَجاتُ جُفُونِها، وأشعَلَت الوجد في قلبِها الجافّ الذي يَحِنُّ للريّ!!! ولَمَّا يملء فراغهُ سعدٌ، الذي قَصَرَ حياتهُ على تِجارتِهِ وإسعادِها لا يألوا الجَهدَ في ذلك، وتمادَى في تراخيهِ وخنوعِهِ لها، فأصبحَ لا يبُتُّ أمرًا إلَّا بمشورتِها، أصبحت الآمِرة النَّاهيَة في حياتِه وعملِه، وأضحى ضعيف الرَّأي مُنعدِم الشَّخصيَّةِ في حضرتِها، رغم مهارته وكفاءته في فنِّ البيعِ والشِّراء ورواجِ تِجارتِهِ، الذي جعلهُ يزداد ثراءً بسُرعةِ البرق

ويتحوَّل دُكانهُ الصَّغير لِتجارةٍ تغدو وتروحُ بين الجبلِ والمدينةِ والحاضِرة، بما منحهُ اللهُ مِن عذبِ الحديثِ وحلاوة اللسَانِ ولين القول والمُعاملة، فضلًا عن طيبتِهِ وأمانتِهِ وجودةِ بِضاعتِه، كُلّ ذلِك أهَّلهُ للتَّوسُّعِ والنَّجاح! مِمَّا جعلهُ يُسلِمُ لـ"تريزا" قيادهُ وتصريف أمورِهِ في الحاجِرِ عندما دعَتهُ دواعِ التِّرحال، فتركَ لها الأمرَ بِرُمَّتِه!!!

تركيبةٌ إنسانيَّة غريبة مُتفرِّدة في غرابتِها فهو تاجِرٌ حاذِقٌ محبوبٌ مِن زبائِنهِ، لكِنَّه في حضرةِ "تريزا" كالطِّفلِ الأبله الذي لا يُقَدِّم خُطوةً إلَّا بمشورتِها، لم يكُنْ ذاَ ولعٍ بِالنِّساء، رُبَّما كان ضعفهُ النَّفسيّ أمامها طريقًا لِضعفِهِ الجِنسيّ، أم أنَّهُ لم يجِد نفسهُ في عالمِ الأسِرَّة، وكأنَّهُ راهِبٌ في عالمِ التِّجارةِ والمال، صائِم دومًا عن دُنيا النِّساء، فغدا مُتَرفِّعًا عن فِتنةِ "تريزا" وجمالِها البارِع الذي فاقَ كُلَّ حدٍّ ولم يعد يستثيرهُ إلَّا قليلًا، وغدَت "تريزا" وجبةً شهيَّةً تشتهي الأفواهَ الآكِلة وقضمةَ الأسنان القويَّة التي لم يكُن لـ"سعدٍ" نصيبٌ مِنها، فلم يُنجِب مِنها بعدَ زيجةِ عِدّة سنوات ولياٍل بارِدةٍ جوفاء حنَّ فيها جسَدها لِلُطف ونسائِم مُلامَستِهِ الرّجوليَّة المُتسلِّلة تحتَ الدِّثار تمنحها الأمان ودِفء جسَدِهِ النَّحيل حين يحتويها يحجُبُ عنها البرد القارِس وزمهرير طوبة!!!

لم تتلاشَ مِن ذِكراها نظراتهُ ولم تنمح مِن وجدانِها لحظات وجدِهِ بِها، فأخَذت عيناهُ تتسَلَّل خفيةً لمخدعِها، وكأنَّها صورٌ مُعلَّقةٌ على الجُدران تُفسِدُ عليها خلوتها، أصبحت تخشى أنْ تتخفَّفَ مِن لِباسِها في حُجرتِها الخاصَّة كُلَّما تذكَّرت عينيهِ الغائِرتين العميقتين كعُمقِ ذاتِهِ وبهائِه وقسوتِه، وكأنَّهُما تُلاحِقانها في أخصّ موضِعٍ لديها وتقتحِمان خلواتِها دون استِئذان في جرأةٍ قاهِرةٍ...

أوجدَت ليلة السّيل في ذاتِها موجدةً عظيمةً، وندَّت مِن صدرِها زَفَراتٍ تشتعِلُ بِلهبِ الحنينِ للشّيخِ وسيرتِهِ!!!

راقَ لها تذكُّرِ التّدلُّهِ في عينيهِ، وأصبحت تفخرُ في نفسِها بانجِذابِ سيّد الجبلِ لها دون ترتيبٍ سِوى تدبير إبليس الذي هيَّأ لُهما هذهِ اللُّقيا على هذا الحال!!!

أصبَحت جلستهُ الأثيرة كُلّ مساءٍ واستراحته عقِبَ تِطوافه المسائيّ لديهِما، لم يحتَج التَّعلّل واختلاق الأعذار، كفاهُ ترحيبهُما وشعورهما بالامتنان مغبَّة ذلِك!!! فيتسامرُ مع "سعد" قليلًا على مصطبةٍ بِجِوارِ الدُّكَّان أو في صحنِ الدَّار، حين تمدُّ لهُ البُسُط وتوضعُ بين يديهِ أشهى الفواكِهِ وألوان الأطعِمة، فتقوم "تريزا" على خِدمتِهِ بِنفسِها مُتعفِّفَة في ثيابٍ وقورةٍ، لم تُبالِغ في التَّخفِّي أو تُجشِّم نفسها عناءه، في حضرةِ مَنْ أنقذَ حياتَهُم، وكأنَّهُ وهبهُم الحياةَ مِن جديد!!!

وكأنَّ ليلةَ السّيلِ هيَ الخيطُ الحائِل الذي اجتاحهُ الشّيخُ بِمقصِّ الحَدَث الجليل، واخترق عالَمها المُمتنِع كالحِصن، فغدتْ خطُواته الثَّابِتةَ تتثاقل كُلَّما مرَّ بِدارِها، ويكادُ قلبُهُ ينتفِضُ بينَ أضلُعِه كُلَّما تبدَّى لهُ لحظها...

رُبَّما لاكت الشِّفاهُ همسًا هذا السَّمَر، الذي لم يتعدَّ أمام الجميع الزِّيارة المُباحة والجِلسَة اللطيفة أمام دُكَّان "سعد"، حين يُرخي الليل سُدُلهُ ويتسرَّب في صفائِهِ نسيمُ السّحرِ الذي يُداعِب الوجَنات في قلبِ الليل، وما حواهُ من إحساسٍ لذيذ غامِض بِالنَّشوة والأحلام، وما جرؤَ أحدٌ أنْ يتساءلَ أو يُبدي استِنكارًا أو تعجُّبًا، وإنْ لم يكُن تِطواف الشّيخ بدروبِ قريتِهِ ليلًا أمرًا مُستغربًا، ينتهي بهِ لُمجالسةِ البعض مِن ذوي الحظوة والقُربى، حتَّى

اعتادت قدماهُ الرّسوّ قُربَ محلَّة الأقباط بِجوار دُكّان "سعد"، حتَّى صارت طقسًا وعادة لا يُقلِعُ عنها!!!

رُبَّما همهماتٌ مُتناثِرة في أفواهٍ لا تجرؤ على الجهرِ صراحةً بِما تدَّعي، أو ضَجَر لدى رِجالٍ مِن أقربائِها، لم يرتاحوا لهذا ولم يألفوا هذه العلاقة المُختلطة الغريبة التي تمدَّدت تحت سمع وبصر ورِضا الزّوج، أو في غفلةٍ مِنهُ لم ينتبِه لها أو تعمَّدها!!!

بينما هبط الشّيخُ مِن عليائهُ ليسكُن جنَّتها وينكوي بِلهبِ نارِها، أثْراها فتحت لهُ كُلّ الأبواب حين ولجَ الجنَّة، فانغمسَ حتَّى أُذنيهِ في أنهارِ عسلِها وخمرِها، أم تمنَّعَت قليلًا ونذْرًا يسيرًا تستجيرُ بِالعذراء، فتركع أمام أيقونتها الطَّاهِرة فوق الخوان في حُجرةِ الضّيوف، تسألها أنْ تمنحَها القُدْرةَ على المُقاومة والصَّبر، ثمّ تراخت عزائِمها وتسلَّل إلى نفسها الوهَن، فأمعَنَ إبليس في إرخاءِ خيوطٍ حريريَّة مِن إعجابٍ ووَلهٍ حاوَطَتها تحوَّلَت لِقيودٍ شلَّت فيها كُلّ رغبةٍ في المُقاومة، فاستسلمت كمدينةٍ باسِلةٍ سلَكَ فيها الغازي كُلّ الدّروب، بعد أنْ استسلَمَ لِشيطانِه ونزلَ مِنْ مكانتِه ليغوصَ حتَّى أُذُنيهِ في الوحلِ الذي ظنَّهُ عسلًا دونَ أنْ يستطيعَ العودة، لم ينطفئ هُيامه وولعه، ظلَّت جذوة السَّعير المُشتعِلة في باطِنِهِ لم يُطفِئها سلسبيل الاقتراب المُتَّصِل، رُبَّما زادَها توهُّجًا!!!

وانتابها حوارٌ داخليٌّ بين أخذٍ وردّ تستعيدُ فيهِ كُلّ تفصيلاتِ ليلةِ السّيلِ الكئيبة، وما دبَّرتهُ الأقدارُ لهُما معًا:

لم يُحمِلِقْ في أرجاء جسدي التي شفَّ عنها ثوبي اللصيق ولا ما كشفَ عنهُ!!! فقط نظرة واحِدة، ثُمَّ أشاحَ وجههُ، رُبَّما نظرات!!! ألمْ يحملني بينَ

ذراعيهِ كطفلةٍ فقدَت وعيها، فصرت فوق كفَّيهِ كفراشةٍ حالِمةٍ تنعمُ بالأمان المُطلقْ الذي لا يشوبهُ خوف؟؟؟

اشتعَلَت النَّارُ في جوانِحي منذُ رمقني بعينيه الحادَّتينِ كالسَّيفِ القاطِعِ، وتعانق فيهِما البريقُ، منحتني نظرتهُ شعورًا خاصًّا بِطُمأنينةِ مَنْ لا تخشَى معهُ غائِلة ولا تهابُ في معيَّتِهِ وحشًا أو إنسانًا، وكأَنَّهُ وحدهُ قلعةٌ حصينةٌ ومدينةٌ قاهِرةٌ قائِمةٌ بِذاتِها لا ينتابك داخِل أسوارِها خوفٌ أو وحشةٌ!!!

وكأَنَّهُ أسطورةُ الرُّجولة، حادٌّ عظيمٌ، أجشّ الصّوت، يفيضُ هيبةً ووقارًا وعصبيَّةً، كالنَّخلات الطّوال تناهِزُ السّحاب، وتعتلي الرِّيحَ!!!

لم أشهدهُ عن قُربٍ سوى هذهِ الليلة، فبدا ما سمِعتهُ عنهُ قليلًا مِن كثير!!!

وبدا أعتى مِن حاراتِنا المُغلَّقة وأبوابنا العتيدة، وأمنع مِن كُلِّ الأسوار والحواجِز!

يا يسوع... يا مريم العذراء الطَّاهِرة... يا أُمّ النّور... هلَّا منحتيني بركتَكِ؟؟؟

ماذا ألَمَّ بي؟ بل أيّ هُراءٍ طافَ بِأرجائِي وتمَدَّدَ في شرايِيني، وتلبَّس كينونتي!

كيف أعشقُ رجُلًا ولي زوجٌ يُحبّني ويسعى من أجل رِضائِي؟ بل كيف أعشقُ مَنْ هو مِن غيرِ ديني ومِلَّتي وأنا المسيحيَّة قلبًا ودمًا؟ أتسوقني الخطيئةُ إلى ما أكرهُ؟ أم جذَبَ إبليس خطامي ليقودني لِبئرِ الذّنوبِ والآثام؟ راضيةً خانِعةً!

الويلُ لقلبي الذي ما كفَّ عن الضَّجيج والألم مُذ رأتهُ عيناي، وكأَنَّهُ بين حجري رحىً تطحنانِهِ طحنًا!

لم تكَد تبُثّ لواعِج قلبِها لابنةِ خالتِها رءوفة التي تعُدّها شقيقتها الصَّدوقة ومكمن سِرِّها، حتَّى صكَّت خدَّها وكأنَّها تستشعِرُ غِمار مُصيبةٍ اقتربت وخطيئة كُبرى كادت تنزلِقُ قدما "تريزا" نحوها وهي تقول: وه وه وه، طريقُكِ مُظلِم مفروش بالأشواكِ، أستحلِفُك بالعذراءِ والقِدِّيسين أنْ لا تُطيعي شيطانكِ يا حبيبتي فتبوئي بغضبِ الرَّبِّ...

فتُجيبها "تريزا" وقد امتقعَ وجهها وبدتْ عليهِ أماراتُ التِّيه وزاغت عيناها كأنَّ شيطانًا تلبَّسها، فأضحى يُملي عليها ما تقول وتفعل: ما بيدي حيلةً يارءوفة...

فتصرخُ رءوفة في وجهِها مُستنكِرةً، صراخ المُحِبِّ الذي أضحى حبيبهُ على شفا حُفرةٍ مِن جهنَّم، فهتفَ بهِ ينبِّهُهُ: ألستِ زوجة مسيحيَّة طاهِرة لا تعرِفُ الخيانةُ لِقلبِها طريقًا؟

فترُدّ في استِسلام مَن خاضت قدماهُ في طريقٍ لا يُنْتَوَى مِنهُ أوبة:

أينَ زوجي "سعد" مِنهُ، هو حقًّا ابنُ عمِّي الطَّيّب الذي يكُبرني كثيرًا، ولا يرُدّ لي طلبًا، لكِنَّه!!! لكِنَّهُ... تُقاطِعها رءوفة التي بدت ناصِحة مخلِصةً رغم أنّها أدنى مِنها سِنًّا وثراءً: ما يعيبهُ يا كبيرتنا وعقيلة أشرف وأغنى بيوت النَّصارى في الجبلِ كُلِّه؟؟؟

فتُجيبها "تريزا" في أسى: تعيبهُ طيبتهُ الزَّائِدة، ضعفهُ وخنوعهُ، وكأنَّ نحافتهُ وبشرتهُ النَّاحِلة الصَّفراء وابتسامتهُ الفاتِرة، كمشاعِرِهِ السَّلبيَّة التي لا تتوهَّج لشيءٍ سِوى الرِّبحِ والتِّجارة! ثُمَّ أخذت تسترسِل:

أصبحت استِجابتهُ لرغباتي وإرادتي أمرًا حتميًّا، فأُسيّرُ حياتنا كما يحلو لي، دون أنْ يُبدي أدنى اعتِراض، لا يُشاحِنني كالأزواج ولايستثيرُ غضبي، فقط يودِع كُلَّ حينٍ في حِجري كُلّ ما يكسِبهُ، يطلُبُ مشورتي فأمنحها لهُ، وكأنّي

صاحبة الأمرِ والنَّهي، أو المتبوع الذي يُدبِّرُ حياتهُ وينظِّمُ أعمالهُ، وهو التابع، فأضفتُ لهُ مع ما ورِثهُ من مهارةٍ وموهِبةٍ في فنون التِّجارة فنًّا وذوقًا وتجديدًا مع زبائِننا، فعادَ ذلك علينا بالخيرِ والرِّبح الذي غمَرَ دارنا.

بينما تمصمِصُ "رءوفة" شفتيها وتزوم كَمَن لا يروقُ لهُ حديثها قائِلةً: حقًّا إنّكِ لناكِرة النّعمة، فما تعُدِّينهُ عيوبًا في زوجِكِ تتمنَّى بعضُ النِّساءِ لو كان في أزواجِهِنَّ ولو جُزءًا ضئيلًا مِنهُ!!!

فترُدُّ عليها "تريزا" يائِسةً وكأنَّها تُخاطِبُ قلبًا مُغلَّقًا كأبوابِهم كُلَّ مساء لن يعي ما تقول: أيرقى "سعد" الخانِع في ذُلِّ الصَّبرِ أبدًا مهما تعاظمت تِجارتهُ لِمنزِلةِ سيّد الجبلِ؟ هل يستوي الثَّعلبُ مع الليث؟ أم تُقارَن الفُحولة بالضَّعفِ والتَّراخي؟

فغمرتها "رءوفة" بنظرةٍ حانيةٍ مشوبةٍ بالشَّفقة قائِلةً:

فليطفئ الرَّبُّ نارك، ويُنجيكِ مِن إهلاكِ روحك...

توالت زيارات الشّيخ المسائيَّة لدار "سعد"، يُجالِسهُ مُتعلِّلًا بأعذارٍ شتَّى تارةً بِدعوى الاطمِئنان على حالِه وساقِه المُصابة، وتارةً لتفقُّد أحوالهم وما يحتاجونهُ بعد كارِثة السّيل كما طافَ بدورٍ كثيرةٍ، لكَنَّ تِجوالهُ وجلستهُ الأثيرة كانت تنتهي عِند مصطبةِ "سعد" أو في صحنِ دارِه!!!

شيءٌ ما غامِضٌ استجدَّ لم يخطُر بِبالِ إنسان لعلَّهُ كان كالكنز المخبوء في باطِنِ كليهِما، بعد أنْ امتدَّت بين الشّيخ و"تريزا" جسورٌ مِن الأُلفةِ وعدمِ التَّكلُّف، تماديا فيها على مرأى ومسمعٍ مِن "سعد" الذي رُبَّما فطنَ لما بدأ يتسرَّبُ لِمخدعِهِ وتصامم مُدَّعيًا الغفلة!!!

حتَّى "تريزا" التي بدت حذِرةً بادئ الأمر تخلَّت في حضرةِ الزّوج عن كثيرٍ مِنهُ، فأصبحت تبدو أمام الشّيخ سافِرة بادية الوجهِ والزّينة، وكأنَّها تُقِرُّ واقِعًا جديدًا، كأنَّهُ الأصل حين أكَّدتهُ وهيَ تُراجِعُ سلوك "سعدٍ" معهُما:

ألم يدعوَني باسِمًا لِمُجالسةِ الشّيخ والتَّرحيبِ بِه بعد أنْ أصبح صديقًا لهُ؟؟؟

فأصبحتُ أقومُ على خِدمتِهما وأُعِدُّ لهُما الشَّاي والنَّرجيلة والعشاء؟؟؟

ألم يمنحنا السّوانِحَ لِلانفِراد مُتعلِّلاً بجلبِ شيءٍ مِنَ الدُّكَّان، يخرُجُ لِطلبِهِ، فيُطيلُ أمَدَ بُعدِه ويرجى لنا اختِلاسَ لَحظاتٍ طويلةٍ مِن الخُلوة والقُرب، فتلاشى ما بيننا مِن حواجِز، وأصبحتُ أُجالِسهُ بالسَّاعات ينعمُ كِلانا بالقُرب، بينما يغُطُّ "سعد" بِجوارِنا على الحصيرِ في سُباتٍ عميقٍ؟؟؟

فنتبادلُ الشّكاةَ والحنين!!!

حتَّى صارَ بيننا ما يصيرُ بين المرأةِ وزوجها!!! الويلُ للإثم حين يُصبِح إدمانًا جميلًا لا يتمنَّى المرءُ البُرءَ مِنهُ.

القبطيَّة الجميلة وحاكِم الجبل سليل قبيلة الشَّوابِرة العربيَّة، هل عقد لهُما إبليس بمكرِهِ وخُبثِه عقد الخطيئة، فوطَّدَ أركانهُ زوج عاجِز، دفعَ رأسَ عجزِهِ في رِمالِ تِجارتِه، هل تصنَّعَ الغفلةَ أم تُراهُ مُكرهًا عليها حين تغاضى عمَّا تأباهُ كرامةُ أيّ حُرٍّ ممَّا لا ينبغي التَّجاوُز عنهُ، فآثَرَ النّعمة المضمونة مع الغفلة، فينعم بأمان الشّيخ الصَّديق وتروج تِجارتُه؟ وهي التي اشتعلَ أوارها وكأنَّها جذوة مِن لهيبٍ تحِنُّ لِماءٍ يُطفئ غلَّتها، فذاقَ بِئر الحِرمان الجافّ لديها مُتعةَ الارتِواءِ، فنهلَت مِنهُ بِلا حُدود، وحينَ حملت "تريزا" لم يدرِ أحدٌ غيرها ابنةَ مَن هذهِ الطِّفلة الشَّبيهة بِالبدرِ سِوى أنَّها ابنة "سعد" كما تقولُ شهادة الميلاد، بينما هي في الحقيقة ابنةُ امرأةٍ تقاسمَها رجُلان!

"نِعمة" اسمها الذي اختارتهُ لها أمّها، يُطلقهُ المسلمون والنَّصارى على حدٍّ سواء على بناتِهم، نعمة الأبيّة في شمم القبائِل العربيَّة وكأنَّها فارِسةٌ قديمة تعتدُّ بِذاتِها، ليس بِها خُنوع "سعد" ولا استسلام أعمامها لِصائِرِهِم ومُهادنتِهم في سبيلِ مصلحتِهم، جريئة لا تهاب، واضِحة لا تتوار ى...

هل كانت كأُمّها مُعتزّةً بِجمالِها كُلَّما نضَجَ وحان قِطافُهُ، فيُكسِبها الثِّقة ورباطة الجأش؟؟؟

أم تنحدِرُ مِن سُلالةٍ تمتازُ بِالأَنَفَة والإباء، وكأنَّ جينات الوِراثةِ فيها أَبَتْ إلَّا أنْ تنضَحَ بِعِرْقٍ يكشِفُ عن أصولٍ لها خفيّة، تُكذِّب ما وردَ في شهادةِ مولِدِها، فلم تكُن تخضع لأحد أو تأبَه لإنسانٍ!!!

انتابَ الشّيخُ السَّأَم بعد أنِ ارتوى، ورُبَّما أرادَ أنْ ينأى بِسُمعتِهِ، ويُنقِذ ما تبقَّى مِن شرفِهِ مِن الغرق في لجة الإثمِ الغامِرة، فيتخلّص مِن كفّ الشَّيطانِ الثَّقيل الذي طوَّقَ عُنُقهُ، فكادَ يغوصُ بِهِ في غمرة بحرٍ سحيقٍ مِن الإثم، حين أطلقَ لِهواهُ العنان غير عابئ بما قد تَجُرُّه عليهِ هذهِ العَلاقة مِن ضياعٍ لِمجدِ العائِلة وضياعِ هيبَتِه، رغمَ خشية البعضِ أن يُجابِهُهُ أو ينتقِدَ مسلَكَهُ، كما أنَّ القدَر قد أسبغَ سِترهُ على فعْلتِه وأمهلهُ، وكأنَّهُ يُطيلُ الحبلَ المرخوَّ لينعقِد مُلتفًّا حول عُنُقٍ بِذاتِها!!! بعد أن قاربَ الحقل الجافّ على الارتِواء...

حين راحتْ حلاوة الاستِغراقِ في لذَّةٍ ممنوعةٍ مُحرَّمةٍ، وأضحت مُعتادةً مُمِلّة ليس فيها جديدٌ، وبقيت الخطيئة وخوف الافتِضاح، ونِعمة الجميلة!!!

أتُراها حقًّا ابنتهُ أم هي ابنةُ "سعدٍ"؟؟؟

أليس بعلها يمتلِكُ حقّ مُعاشرتِها؟؟؟ صحيحٌ أنَّهُ أُشيعَ عنهُ عدم المقدِرة على الإنجاب!!! أفلا يكونُ قد مُنِحها في ليلةٍ أو أُخرى؟! فرُزِق نعمةً، تِلك

التي يتيهُ بها فرحًا ويختالُ تيهًا مُنذُ مولِدها، وكأنَّهُ يعُدّها دليلًا على فُتوَّتِهِ، ومِنحةً بالأُبوّة وُهِبتْ لهُ على كِبَر!!!

أتكونُ نِعمةٌ جرحي الغائِر الذي لن يندمِلَ، وسوط العذاب الذي سوف يظلّ يُلهِب ظهري؟ حتَّى وإن تُبتُ وأقلعتُ عن ذنبي القديم؟ أفتكونُ "نعمة" ثمرتهُ التي نبَتت، وبُرعمهُ الذي يستطيلُ وينمو يومًا بعدَ يوم؟ بعد أنْ نأيتُ بِنفسي عن خطأي خشيةَ أنْ يستبِدَّ بي عِشقها، فيقودني للتِّيهِ في دروبِهِ المُتشعِّبة!!!

لم يأتِني عِنْ نِعمة جواب شافٍ بعد أنْ امتلأتْ حُنقًا وأحسَّتْ بوخزةٍ في كرامتِها، حينَ هجرتها وأقلعتُ عن هواها، فقطعتُ ما بيني وبينها مِن قُربى!!!

وعِندما سألتها عن خبرِ "نِعمة": أتكونُ حقًّا ابنةً لي؟ أجابتني "تريزا" بِغِلظةٍ وجفوة: هي ابنةُ أبيها... ثمَّ أشاحت وجهها وأدبَرَت لا تلوي على شيء!

ما أشدّ انتقامكِ المُغرِق في القسوةِ دونما رحمةٍ يا حبيبتي السَّابِقة، أتُراهُ ردًّا لكرامتكِ وكِبريائكِ حين ساءتكِ عاقِبةُ العطاءِ بِلا منْع والمنح بِلا حدود؟

أم أنكِ أدركتِ عدم جدوى هذا الخبر، فهو لن يُغيِّرَ مِن الواقِعِ أُنمُلةً، ولن يُفيد "نِعمة" المسكينةَ شيئًا!!! فأمسكتِ عنِ البوحِ بما قد يزيد مِن المُعاناةِ دون أن يستطيعَ أحدٌ لها دفعًا؟

أيّ أبٍ يا "تريزا"؟ "سعد" أب على الأوراقِ وشريك الفِراش؟ أم "أبو ظفَّار" العشيقُ الهاجِر الذي انقضَّ كالشَّاهين فقنَصَ الأرنبةَ البرّيَّة في رشاقةٍ وحِنكةٍ، ثُمَّ حلَّقَ إلى عِليِّين، عقِبَ ظفْرِهِ بِمُرادِه، وكأنَّهُم حين أسموهُم "أبو ظفار" عنوا هذهِ الصِّفة الخاطِفة البارِقة!

هل ساءَ ظنُّها بِهِ فاستفاضَت في مقتِهِ وتحوَّل الحُبُّ في داخِلها لكراهيةٍ وغَضب، وأخذتها الظُّنون في كُلِّ وادٍ؟

أمْ أنَّهُ أحبَّها بِصدْق، ولكِنّ دوافِع أقوى مِن إرادتِهِ حمَلتهُ على أنْ يفِرَّ مِن عِشقِهِ وهُيامِهِ إنقاذًا لِسُمعتِهِ وهيبتِه، وتخيَّرَ لِذلِك اللحظةَ الحاسِمة، وتخلَّى عنها في خِسَّةٍ لم تُعهد منهُ، أشعَرتها أنَّها مومِسٌ، شُغِلَ بِها زمنًا، ثُمَّ تخلَّصَ مِنها بعد أنْ قضى وطَرهُ، لا عفيفة سليلة بيوتاتٍ عريقةٍ أوقعها حظَّها العاثِر للسُّقوط في الحُبِّ المُحرَّم!!!

لم تزَل نعمة تحظى بِمعاملةٍ خاصَّة مِن سيّد الجبلِ تصِلُ لِحدِّ تدليلِها، يهشّ لها حين يرمُقها مِن بعيدٍ تلهو مع قريناتِها، يستشعِرُ حيالها مشاعر شتّى، تفيضُ أُبوَّةً وحنانًا وألَمًا، فينزِل مِن صهوةِ جوادِهِ يحمِلها لدُكَّان "مصري" زوج "رءوفة"، يبتاعُ لها مِن الحلوى ما تشاءُ، ويجلِبُ لها أغلى الملابِس مِن الأقصُر كبناتِ الأعيان!!! لم يسعَ أحدٌ لتفسيرٍ، الكُلُّ يتكتَّم الحديث لدرجةِ الصَّمت المُطبِق، حتَّى تلاشى الأمرُ كُلّه، كأنَّهُ حديثُ موتٍ مُخيف يتحاشاهُ الجميع، لم يعُد يعني سِوى أبطال وقائِعِهِ...

لازالت تنمو براعِمُ الأنوثة لدى نِعمة وتتفتَّح فيُبهِرُ جمالها الأبصار، فاقَ جمالها حُسن والِدتِها، فأصبحت مطمح آمالِ شباب الأقباط بالحاجِرِ وأجوارِه، وهي الرَّائِعةُ الفِتنة سليلة بيت العزِّ والغِنى، بينما تتأبَّى أمّها على خاطِبيها!

أتُراها تنتظِرُ لها زوجًا مِن طرازٍ خاصٍّ جِدًّا يُصلِحُ ما اعوجَّ مِن أحداثٍ، لأسبابٍ لا يعلمُها إلَّا اللهُ؟!!! رُبَّما...

رائحة الدَّم

"ماري" الجميلة كأنَّها مريم المجدليّة في إهابِ طُهرها ونقاء وجهها الأبيض الصّبوح المستدير، وشعرها الأحمر المُنسرِح كأنَّهُ ذيلُ فرسةٍ تختالُ في جمالِها الهادئ وقسماتها المُريحة، التي تمنحك إحساسًا رائِعًا حينَ تتطلَّعُ إليها بِالأُلفَة والدّعَة والحُسن المشوب بِطيبةٍ وصفاء، وكأنَّ نظرةً في عينيها الصَّافيتين كماءِ الغَدير تُسْلِمكَ لدوحةٍ خضراء رقيقةِ النَّسَماتِ بعدَ طولِ توغُّلٍ في صحراواتٍ وفيافي!!!

لم تكن شقيقتها سارَّة التي تصغرها بأعوامٍ تُباريها في حُسنها رغمَ جمالِها البادي الذي لا يرتقي لبهاء "ماري" الأخَّاذ، وكأنَّ القَدَرَ حين أفاضَ في بذخٍ ومنحَ "ماري" كُلَّ الجمال لم يضن على شقيقتِها بنَفَحاتٍ مِنهُ، فكانتا كفرستي رهانٍ جامحتين، اجتازت الأوْلَى المِضمارَ بِبراعةٍ، وتلتها الأُخرى في نشوةٍ وتبختُرٍ!

حينَ تستقِلّ "ماري" سيّارة الأُجرة التي تجمعُ فتياتِ الجبلِ الدَّارِساتِ في البندر وتتكفَّلُ بِنقلِهِنَّ في الذّهابِ والأوبَة لِلمدرسة الثَّانويّة الصِّناعيَّة، يتكفَّلُ بِذلِك "روميل" السَّائِق، كانت السَّيَّارة من طراز عربات نصف النّقل المُعدَّلة لِنقل الرُّكَّاب مثل أغلَب وسائِل النَّقلِ مِن وإلى الجبل، تتكوّن مِن كابينة السَّائِق التي تتَّسِع لِفردينِ يُجاوِرانِ السَّائِق، والصّندوق الخلفيّ الذي أُحكِمَ إغلاقهُ بِالصَّاج مِن الجانبين عدا شُبَّاكينِ صغيرين، كما تُرِكت بِهِ فتحةٌ خلفيَّة مستطيلة كفتحةِ الباب يقود إليها سُلّم حديديّ يصعدُ عليه الرُّكّاب للوصول لكُرسيين مُستطيلين مِن الحديد بطول صُندوق العربة

يرتكِزانِ على جانِبيها مِن الدَّاخِل، قد بُطِّنا بتنجيدٍ وغُلِّفا بالمشمّع عند موضِع الجلوس والاستِنادِ بالظَّهر الذي اكتسى بتنجيدٍ أيضًا ممَّا يجعلُ جلوس الرُّكّاب الذين يجلسون متقابلي الوجوه مُصطفِّين في صفَّين أكثر راحة وشِبهِ آدميّةٍ في جلسةٍ خلَتْ مِنْ كُلّ ذلك!!!

كانت ماري تستقِلّ العربة في رِداءِ المدرسة الكُحليّ المكوَّن مِن بنطلون وجاكيت طويل، كأنَّهُ ليلٌ أرخى ستورهُ، وبَدَت فيه أزرارهُ اللامِعة المُتراصّة رأسيًّا كأنَّها النُّجُومُ في صفحة الليل، تجلِسُ حينًا في الكابينة بِجوار "روميل" السَّائِق الذي كان يشتطُّ فرحُهُ المكبوت حينَ تجلِسُ جِوارهُ، وأحيانًا في الصّندوق الخلفيّ الذي يتَّصِلُ بالكابينة بشُباكٍ صغيرٍ يُتيحُ لِلسَّائِق مُتابعة ما يجري في الخلف والتَّواصُل مع الرَّاكبين...

كان "روميل" السَّائِق شابًّا طيّبًا مِن قاطِني درب الأقباط في الحاجِر، لم يزلْ أعزبًا، وقد تجاوزَ الثَّلاثين بِقليلٍ، نحيفٌ فارِع الطّولِ واسِع العينين جاحِظهُما تبرُزُ أسفلهُما عظمتا فكِّه، بينما خدَّاه مُقعّرانِ للدَّاخِلِ -ممصوصانِ- كأنَّهُ إخناتون أو أحدُ حفدتِهِ، عيونُه تائِهةٌ زائِغةٌ كأنَّهُ أبله...

يجيشُ صدرُهُ بالأمنياتِ المُستحيلة، شأنُه شأنُ كثيرٍ مِن شباب قُبطِ الجبلِ (ماري) التي تخلِبُ لُبَّ مَنْ رآها وتخطِفُ ببهائِها الأبصار، حين لا تتطلَّعُ لأكثرِ مِن استراقِ النَّظرةِ والحُلم، دون تجاوُز حدّها، فالتَّطلّع لوجهِها غاية المُنى، ذاك الوجهُ الأبيضُ المُستديرُ كأنَّهُ الشَّمسُ أوَّل إشراقِها حين تشعُّ الضِّياء وتنثُر النّورَ وتُدفئ القلوب، في ودٍّ وحنانٍ دون أذىً، فنتمنّى أن تبقى على حالِها تِلك مِن الوداعةِ واللُّطف، كأنَّها قِدّيسةٌ تُحيطها هالةٌ دائِمةٌ مِن القدُسيّة والجمال، حين تُدلّي شعرها الطَّويل المُنسَرِح في ضفيرةٍ واحِدةٍ تتدلّى على ظهرها وتنسابُ كماءٍ ينسابُ مِن عينٍ أعلى التَّلِّ في تماوجٍ وميوعةٍ، حتَّى

آخر فقراتِ ظهرِها، وكأنَّهُ يستُرُ فتنتها لو تعرَّت، فبدا أكثر فتنةً وجمالًا حين تدفعُ ضفيرتها للخلفِ بميلٍ واضِحٍ، إليةٌ تبرُزُ برشاقةٍ تحت خصرها النَّحيل، فتُبدي دِقَّةَ خصرها كأنَّهُ خلخالٌ جمالها، فتبدو عجيزتها الصَّغيرة رائِعة الاستِدارة مُتفرِّدةً في الانبعاجِ والتَّوحُّد، وكأنَّ قدَّها مع رِدفِها موجٌ يغدو ويروح في ارتِفاعٍ وهبوطٍ وتحدٍّ صريحٍ لكُلِّ مُقاومةٍ، كأنَّها آيةُ جمالٍ مُباركةٍ!

دون تعمُّدِ إغراءٍ أو إثارة، لكنَّها الفِتنة حين تُصبُّ في مثلِ ذلك القالب وهذه الصّورة، وهي تتهادى في (تنّورتها) بِخُطىً شِبه مُستقيمة كأنَّها عارِضةُ أزياءٍ مُحترِفة، رُوْعِي في اختيارِها مقاييسُ جمالٍ بعينِها، فتحسبها ملاك رحمةٍ يخطِف الأبصار آتيًا مِن عالمٍ آخَر!

وحين تخطُرُ في عباءَتِها السَّوداء الفضفاضة، التي كانت تُراعي اتّساعها، فلا تُحيطُ بِخصرٍ ولا تُطوِّقُ جيدًا، فيبدو وجهها العاجيّ كأنَّهُ قمرٌ يبزُغُ في سوادِ الليل، أو شمسٌ تتحرَّرُ مِن إسارِ العتمةِ الدَّامِسة، فيبدو فيها الحُسنُ بطريقةٍ مُغايرةٍ لحُسنها السَّابِق، لكنَّهُ لا يطمِسهُ، وكأنَّ جمالها يتبدَّى في صورٍ مُختلِفة، يُكمِلُ بعضهُ بعضًا!

تهافتَ على خِطبتها فِتيانُ الجبلِ، حتَّى اختارَ قلبها "هاني" ابنُ عمَّتِها، ذو الجسد الهزيل والوجه الأصفر والشَّعر البُنيّ وصفحة الوجه الأُجروديّة التي لم تنبُت بها لحية، فارتقت بِهِ سعادتُهُ سُحُب الهناء، وحلَّقَتْ بهِ بعيدةً في تيهٍ يزهو بِهِ عن مُنافِسيهِ. أوقدَ يومها "هاني" الشّموع في كنيسة العذراء، وقدَّم لمذبح الشّهيد العظيم "ماري جرجس" في ديرِه في الصّحراءِ البعيدةِ خروفًا سمينًا قُربانَ شُكرٍ وتعظيمًا للرَّبِّ الرَّحيم الذي استمعَ صلواته واستجاب دُعاءَه بِبركةِ القدّيسين في ملكوت السَّموات!

فآثَرهُ بـ"ماري" الطَّاهِرة الرَّقيقة دون غيرِه مِن الوجهاءِ والأثرياء وهو الموظَّفُ البسيطُ في شركة السُّكَّر!

لكنَّ السَّعادة التي منحها لهُ القدرُ بيدٍ اجتثَّها مِنهُ الزَّمان بيدِهِ الأُخرى، فلم تدُمْ سعادتهُما طويلًا حين نبتَ في شرَجِها بروزٌ مؤلِمٌ كطالِعِ سوءٍ، منعها حياؤها مِنَ التَّشكّي أو إطلاعِ أمِّها أو أُختِها على ما ألَمَّ بِها، أو طلب اللجوءِ لِطبيب، فتحوَّلت الشَّكوى مِن زائِدةٍ صغيرةٍ لكيانٍ يبرُزُ ويتعاظم في خُبثٍ ومكرٍ ويدمي أحيانًا بعد أن كان يتسلَّلُ بخفيةٍ على استحياءٍ، وحينَ أخبرت أمَّها "رءوفة" الخبرَ طمأنتها في ارتباكٍ ولوم لم تستطِع مُداراتهُ قائِلةً: يا لكِ مِن تعِسة ماكِرة، يجري كُلّ هذا عليكِ ولا تُطلِعي أمّك!! فتطرقِ ماري دون ردٍّ، فترِقّ الأمّ لابنتها فتُسرِعُ في تبديل نبرة صوتها ولكنتها المؤنِّبة، فتُجيلُ في كلماتِها نبرات الحنانِ والأمومة قائِلةً:

لا تخافي يا حبيبتي، قد يكون ناصورًا أو بواسير، سأذهبُ بكِ للطَّبيبة في البندرِ غدًا بمشيئةِ الرَّبِّ، تُداويه بِبعض المراهِم والتَّحاميل، فلا يبقى لهُ أثَر...

فتُقاطِعها المسكينة في استِسلامٍ: لكنْ يا أمي قد يقتلني الخجل لو تطلَّع لعورتي إنسان!!!

فتُجيبُها في هدوء مَن لا يملِك أمام صدمةٍ فاجأتْهُ سوى الخضوع والاستسلام:

هي أنثى مثلكِ يا حبيبتي ومسيحيَّة مُتديّنة، لا تُغيِّرُ السَّوادَ ولا يُبارِحُ الصَّليبُ عُنُقها...

فتُتمتِمُ ماري: لكِن يا أمّي، في اضطرابٍ ووجلٍ وتردُّدٍ... فتُقاطِعها في حزمٍ لا يخلو مِن إشفاقٍ وعطفٍ: لأنْ يقتُلكِ الخجلُ خيرٌ مِنْ أنْ يقتُلكِ الدَّاء، الذي لم تفْصحي عنهُ إلَّا مؤخّرًا بعد أنْ استفحلَ...

ترضخُ في إذعانٍ وصمتٍ راضِخ لأمرِ والِدتِها!!!

في حُجرة الكشف في البندرِ دخلت "رءوفة" تصحبها "ڤيولا" عمَّة ماري وأمّ خطيبها هاني، بعد طولِ انتظارٍ بين همهماتٍ وشكاوى ونحيب أطفالٍ وجلبةٍ في الرُّدهةِ الخارجيَّة التي تعلوها مروحة سقفٍ قديمةٍ قد اصفرَّت مِن جرَّاء القِدَم واكتست بطبقةٍ زيتيَّةٍ قاتِمةٍ مِن تراكُم الأتربة، تدور مُتثاقِلة كأنَّها رحى طاحونة لا تجلِبُ الهواء، بل تُصدِرُ أزيزًا مُزعِجًا كأنَّهُ أنينٌ كئيبٌ!!!

بينما حُجرةُ الكشفِ قديمة الأثاث والفرش، الذي يبدو أنَّهُ مِن عهدٍ طاعِنٍ في القِدَم باهِتة الطِّلاء عالية السّقف، ورِثتها الطَّبيبة "سلوى" المُمارِس العام عن أبيها الدُّكتور "ميخا" طبيب الحُميات الشَّهير السَّابِق أو (السَّخانة) كما يُسمُّونها، وهي شقَّةٌ في الطَّابق العُلويّ لمنزلٍ قديمٍ سُلَّمهُ مُتكسِّر الدَّرج، أسقُفُها عالية بارِدة كألواحِ الثَّلج!!! لا تخلو مِنْ جمودٍ وقتامةٍ، وكأنَّها جسدٌ فارقتهُ الرّوح فما عادَ يتنفَّس!!! هكذا بَدَت عيادةُ الدّكتورة "سلوى" في عيني ماري الجميلة البائِسة، وهي تتَّخِذُ وضعًا مُشينًا أشبهُ بسجود المُسلمين في صلواتِهم، بعد أنْ رفعت عباءتها وخفضَت لها "رءوفة" سِرواليها الدَّاخليين الطَّويل والصَّغير حتَّى عقِبيها، فكانت تقطُرُ حياءً وخجلًا، وبدا وجهها كأنَّهُ نارٌ متوهِّجةً وعيناها تذرفان الدُّموع في مشهدٍ تمنّت لو تنشقُّ الأرضُ وتبتلِعها ولا تبدو فيهِ أمام إنسانٍ أو حتَّى في خلواتِها!!!

يعتصِرُ الخجل والحياءُ طُهرها بينما تتفحَّصها يدُ الطَّبيبة بعد أنْ دسَّتها في قفاز مطاطيّ أبيض يميلُ للصُّفرة، مِمَّا يستخدِمْهُ الأطبَّاء عادةً في فحوصاتِهم، يرتسِمُ على وجهِها ذي الملامِح الرّجوليّة الجِدّيّة الصَّرامة ومسحة حُزنٍ غضوبةٍ، لا تخلُ مِن حِدَّة، فالأنفُ مُدبَّبٌ، والعيون مخفيَّة تكادُ تتلاشى خلف زُجاجٍ سميكٍ لنظَّارةٍ طبيَّةٍ مِن طِرازٍ عتيقٍ إطارها أسود، يبدو عليها قوَّة الشَّخصيّة والثِّقة المُفرِطة في ذاتِها، خمريّة البشرة تميلُ للسُّمرة، جسيمةٌ فارِعة الطّول الذي يُخفي امتلاء جسدِها، ولولا طولها لبَدت سمينةً مُكتنِزةً، تتهادى في سيرِها بينما ينثني جِذعها لِلأمام كأنَّها فاقِدة للسَّيطرةِ عليهِ، شعرُها مُجعَّدٌ جافّ أسودٌ قصير لم تُعنَ بتصفيفِه؛ فبدا هائِشًا كشواشي الذُّرة بعد جفافِ عودِه، رِداؤها أسودٌ لا تُبدِّلُ لونهُ، رُبّما حِدادًا على وفاةِ والِدها الطَّبيب "ميخا" الذي اختارَ ملكوت السَّموات مُنذُ سنوات، وظلَّت وفيَّةً لِذِكراهُ، يتكوَّن عادةً مِن بنطلون وقميصٍ قُطنيّ طويل مستدير طوقهُ عِند عُنُقِها، يكادُ يبلُغ مُنتصفَ فخذيها العريضين، بينما البالطو الأبيض الذي تركتهُ مفتوح الأزرار يكادُ يتفتَّقُ عِند منكبيها!!!

يتدلَّى مِن عُنُقها صليبٌ ذهبيٌّ كبيرٌ لا يُفارِقُ جيدها، يبدو أنَّ لهُ عندها ذِكرى خاصَّة!!!

أَبَت ماري في البِداية أن تتَّخِذَ هذا الوضعَ المُهين، لكِنَّ صرامةَ الدّكتورة "سلوى" التي لم تُذَيّل أوامِرها بابتِسامةِ ترغيبٍ تبُثّ الطُّمأنينةَ والدّعَة في نفسِ مريضتِها القلِقة، أجبرتْها على الرُّضوخ في استِسلامٍ تامٍّ لها، بينما خلَت قسماتُ وجهِها منْ أيّ مظهرِ حنوٍّ أو إشفاقٍ!!!

فرَغَت الطَّبيبة مِن فحصِها بعد عناءٍ ومُعاناةٍ مِنْ "ماري" التي دَفَقَت مِن عينيها دموع الحُزن والخجل، لم ينُم عن فم "سلوى" رغم اجترارِ "رءوفة"

مِنْ فيها عبارة مُطمئِنة أو جُملة تدعو للتَّفاؤل، فكانت تُراجِعها بإلحاح عن وضع "ماري" وطبيعة مرضِها، بينما تتجاهل "سلوى" كُلّ ما تقولُه كأنَّها لا تسمعهُ ولا يصِلُ لأُذنيها نبرة القلقِ التي تسرَّبت لقلبِ "رءوفة" الذي غدا مطمورًا في آبارِ القلقِ والحزن والوَجل!

فأصبحت تتسائلُ كأنَّها تهذي: يعني نطمئِن... بسيطةٌ... مؤكَّد أنَّهُ باسور، لا شيء آخر؟

بينما الطَّبيبة في عباراتٍ مُقتضبةٍ جافّةٍ تؤّكد مخاوِفهم وارتياعهُم: سنرى بعد الأشّعة والتَّحاليل!!!

وكأنَّها أشعلَت النِّيرانَ في الحطبِ الجافِّ، فأسلَمتْهُم لدوَّامةٍ مِن المخاوِف والظُّنون، دارت فيها الأُسرة لأيَّامٍ لم تخلُ مِن تضرُّعاتٍ في الكنيسة وطلب المعونةِ مِن الرَّبِّ واستجداء بركات القدِّيسين وصلوات القساوسة المُبجَّلين، لِدَرْءِ الأذى عن "ماري" العذراء الجميلة الطَّاهِرة، حتَّى انعطفت بِهم السُّبُل للعودةِ للطَّبيبة "سلوى" بعدها، التي أصرَّت على الانفراد بوالديّ "مارى" وحدهما دون جمع الأُسرة الذي صاحبهم، حتَّى "ماري" نفسها، صكَّت "سلوى" وجوههم حين بدا وجهها مُكفهِرًّا وهي تقولُ في نبرةِ أسى ولوم واضحَين:

لَابُدَّ أنْ تُعرَض على جرَّاح أورام... تأَخَّرَ الأمرُ كثيرًا... كان يُمكِن تدارُكهُ لو... لو... ثمَّ صمتت بُرهةً في وجومٍ تمُطُّ فيها شفتيها، كأنَّها تستحضِرُ الكلِمات التي تفِرّ في مثلِ هذهِ اللحظات، فلا تُسعِفُ صاحِبها...

تعلَّقَت عيون "مصري" و"رءوفة" بشفتي الطَّبيبة الصَّارِمة التي تنطِقُ حُكم النِّهاية على صغيرتهما الجميلة، رُبَّما في انتظار جُملةٍ كالماء الزُّلال يُطفئ

غُلَّة العطش، تُهدّئ روعهُما، توحي فقط بأنَّ الأملَ لازالَ موجودًا لم يتلاشَ، فقالت:

عمومًا سنرى، بعد زيارة جرَّاح الأورام في الأقصُر يستبينُ كُلّ شيء وتتحدَّدُ نِسبةُ الشِّفاء!!!

خرجا مُطرِقين وكأنَّ مطْرقةً دقَّت رأسيهما، وكأنَّهُما يترنّحان مِن هولِ المُفاجأة، التفَّ حولهُما كثيرٌ مِن الأهل الذين أصرّوا على الحُضور، "سارّة" شقيقة "ماري" وخطيبها "هاني" ووالِدته "فيولا" وخالتها الكبيرة المُقدّسة "هناء"، عدا "ماري" نفسها التي انتبذت لِنفسِها رُكنًا قصيًّا في الرُّدهة الفسيحةِ بِجوارِ الحمَّام الذي فاحت مِنهُ رائِحة البولِ المُقزِّزة التي تُنفِّرُ كُلَّ مَنْ اقترَبَ منهُ، فبدت وحيدةً في العيادة المُزدحِمة، في انتظارِ سماعِ كلِمة النِّهاية التي قرأتْها في كُلّ الحوادِث السَّابِقة، وفي وجوه أطِبَّاء الأشعة والتَّحاليل، وكأنّها تنتظِرُ موعِد إعدامِها الذي تأهَّبت لهُ نفسيًّا بِدرجةٍ كبيرةٍ بعد مُعاناةٍ، فاصفرَّت وامتقعَ لونُها.

لم يُجِب الأبوانِ جوابًا شافيًا فقط أكَّدا على ضرورة زيارة جرّاح الأورام الشَّهير الذي أوصَت به "سلوى" في المدينة، الدّكتور "خليل أندراوس"!

الذي بدا أكثرَ تعاطُفًا وإشفاقًا، حين أصرَّ بعد فحصٍ واطِّلاعٍ على تقارير المعمل والأشعة على الجلوسِ مع "ماري" ووالديها، كان وجههُ المكتظّ رغم ما اعتورهُ مِن تجاعيد، بنظّارة القِراءة الصَّغيرة المُدلاة أعلى قرنبةِ أنفِه فينظُر إليك بعينيهِ الجاحِظتين أعلاها، ينمُّ عن طيبةٍ مُتناهيةٍ، أكسبتهُ الشّعراتُ البيض الحِنكة والبراعة والشُّهرة، كان حسَن الحديثِ عذبَ الكلِمات، خفَّفَ عنهُم مرارة الحدث وإن لم يُقلِّل مِن أهميةِ استكمال الفحص والعلاجِ، بعد إجراءِ مِنظارٍ شرجيّ تشخيصيّ للورم الخبيث المُتنامي، الذي كان يُمكِنُ

تدَارُكهُ لو تمَّ كشفُهُ مِن البِداية، ولم تُخفِ "ماري" شكواها وراءَ سُتُرِ الحياءِ القاتِل، رغم أنَّها مشيئةُ الرَّبِّ في البدايةِ والنِّهاية، فلتكُن مشيئتُهُ وليتبارك اسمُهُ، هكذا ختمَ الدّكتور "خليل" حديثهُ معهُم!!!

خرجت "ماري" مِن الحُجرةِ صوب خطيبها "هاني" كأنَّها قرَّرت في نفسِها أمرًا انتوتهُ عازِمة على إنفاذِهِ في رباطةِ جأشٍ وثباتٍ غير قابِلٍ للجاجٍ أو مراجعة...

لم تنهار حين أدركت بفطنتِها المعنى الخفيّ وراء كلماتِ الدّكتور "خليل"، وما لم يُصرِّح بِهِ علانيةً وانطوت على معانيهِ كلماتهُ المُشذَّبة، وعَت أنَّ أيَّامها الباقية في الدُّنيا قليلة، بعد أنْ خضعتْ لبرنامج مُكثَّف أهَّلَها لتلك المُصيبة الكُبرى، قُبالة "هاني" ترقرقت في عينيها الدّموع التي جاهَدَت إخفاءها، وهي تخلعُ مِن إصبعها خاتَمَ خِطبتِه، ونادَت سارَّة التي كانت تقِفُ بالقُربِ مِنها، وجذبت يُمناها فألبستها خاتمها المنقوش على باطِنِهِ اسم "هاني" الذي انحسرت مِن جانبي عينيهِ دمعات، بينما أجهشَ الجميعُ بالبُكاء، وكأنّها توصي وصيّتها الأخيرة حين أودعت كفَّ سارَّة راحة يد "هاني"، وأملها في ارتباطِ خطيبها السَّابِق بشقيقتها الصُّغرى!

وهبت "ماري" نفسها للدّير تمضي فيه أيّامها الأخيرة، تلوذُ مع مرضِها بِهِ، تنأى بنفسِها عن نظرات الإشفاق أو التَّحسُّر والألم، فما كانت تُطيقُ أن يتألّم إنسانٌ ولو كان في سبيلِها، أو أن ترى موتها يتحقَّقُ في ذبول والديها حسرةً عليها كالشَّجرةِ الذَّابِلة! أو في عيني سارّة اللتين أصبحتا كأسَيْنِ مِن الدِّماء مِن كثرةِ البُكاء!!! وكأنَّها آثرتْ أنْ تعوِّدهُم فِراقها والعيش بِدونها، فما عادت تمنحُ مُحبِّيها سِوى الألم، وكأنَّها شمعةٌ ذاوية قد دنت نهايتها، يحترِقُ كُلّ

مَن اقتربَ منها، تعتصِمُ بأسوارِه التي تضمُّ رُفات القِدِّيسين ونفحاتهم المُباركة، وجِوار الصَّالحين مِن الآباءِ والكهنة...

كان الدّيرُ يتوسَّطُ قريةَ الجبلِ، يُجافي النّيل، مُتوغِّلًا في الصَّحراء مِن ناحيتِهِ الغربيّة، مبنيٌّ بالطّوبِ اللبِن منذُ عُصورٍ سحيقةٍ، تمتدُّ إلى عصْر اضطهاد الرّومان، حينَ كانَ الرُّهبان يلوذون بالمناطِق النّائية فِرارًا بعقيدتِهم مِن الالتِباس والدَّخَل، حين كانَ الرّومان الكاثوليك يُمْعِنُوْنَ الأرثوذِكس المصريين المختلفين معهم في ثوابت العقيدة التَّنكيلَ والاضطهاد، فيطعِمونهم الأسود الجائِعة، ويُمزِّقونَ أوصالهم ويحرقونَهُم أحياءً، في عصورٍ عانى فيها الأقباط الويلات في سبيلِ تمسُّكِهِم بأصولِ عقيدتِهم...

يُحكى أنَّ أحدَ الرُّهبانِ الفارّينَ لاذَ بهذِهِ البقعة الصَّحراويّة في أحضانِ هذا الجبلِ نائِيًا بعقيدتِهِ ناجيًا بروحِه، مُتفرِّغًا للعِبادةِ في ملكوتٍ فسيحٍ لا يُقاسي فيه اضطهادًا! وكأنَّ دينهُ هو لواذهُ الذي يتحصَّنُ بِهِ مِنْ غوايةِ الشَّيطان وتنكيل الرّومان، بدأَهُ بصومعةٍ صغيرةٍ، ثُمَّ استحالَت ديرًا كبيرًا وكنيسةً بعد لحاق العديد مِنَ الصَّالحين بهِ هاجرين فِتنة الدُّنيا ومتعها الزَّائِلة، مُتعلِّقين بنورِ الرَّبِّ وجلالِهِ، عادة ابتكرها الأقباطُ المصريُّونَ وتبِعهُم فيها نَصَارَى كثيرونَ، أَلَا وَهِيَ اللواذُ بالرَّبِّ والنَّأي بمُعاناتِهم إلى رِحابِه، حيثُ الوحْدة والتَّفرُّد والمناجاة، والسُّكون في عصمتِهِ وجناحه الحصين!

أيُّ لذّة كانت تنتشي بِها نفوسهُم العازِفة عن بهاء الدُّنيا وزُخرفها حين يجدون في وحدتِهم وشظَف عيشِهِم ما يأمَلون مِن اليقين والاستِزادةِ مِن معينِه، وكأنَّهُم يغترِفون مِن أنهارِ النّعمةِ والنَّعيم، حين تُهيمِنُ عليهِم بركاتُ يسوع وأمّه أمّ النّور المُمتلِئة بالنّعمة... رعوا الأغنام وأصلحوا الأرضَ وعمّرو الصَّحراء، حفروا الآبار، أضحَى الدّير النَّائي كنيسةً للعذراء ينعمُ

بِجوارِها شعبُ الله، تتألَّفُ مِن قاعةٍ فسيحةٍ للصَّلوات والمراسِم، يتقدّمها مذبحٌ يعلوهُ الصَّليب، تخلو مِنَ الأرائِك، يفترِش شعب الكنيسة الحُصرَ في صلواتِ الآحادِ والأعياد، يتلو عليهِم العِظات ويتقدَّمهم القُمُّص مكاريوس أو مَنْ ينوبُ عنهُ مِن أحدِ الآباء المُبجَّلين، تتبعهُ حُجراتٌ مُتراصَّةٌ بِدائيَّة متجاوِرة بسيطة شديدة الضّيق تربو على العشرة لإقامة الرَّاهِبات، وحُجرات أُخرى في النَّاحية الخلفيّة ممَّا يلي مرفأَ الدَّوابّ وحظيرة الماشية والمزرعة المُلحقة بالكنيسة لسُكنى الرُّهبان وخُدَّام الكنيسة لا تتجاوز الثَّمانية، جميعُها مبنيَّة بالطّوبِ اللبن، يُحيطُها سورٌ قد تهدَّم جانِبٌ كبيرٌ مِنهُ مِنْ جرَّاء السّيولِ المُتعاقِبة المُنحدِرة مِن الجبل!!! وهو سورٌ ضخمٌ سميكٌ عالٍ أمعنَ الزَّمانُ فيهِ تخريبًا وأوهَنَ قوائِمَ أركانه، وأركان العديد مِن مباني الدّير، لم يتبقَّ مِنهُ سِوى بقايا مُقوَّضة لكيانٍ مُتهدِّم، للسّورِ بوَّابة حديديَّة عالية تعلوها قبوة مثبت فوقها صليبٌ كبيرٌ تُضيئهُ في الليل مصابيح النِّيون المُثبَّتة داخِلهُ، منعتهُم السُّلُطات مِن إصلاحِ ما تهدَّمَ مِنهُ، فصارَ كيانًا تتحدَّى بقاياهُ في شُموخٍ عصف السّيل وجمود القوانين...

كانت "ماري" صديقةً لراهِبة بولنديَّة تقطُن الدّير منذ زمنٍ، اختارت أنْ يكونَ هذا الدّير مُستقرَّها الأخير بعد رِحلة تِطوافٍ طويلةٍ وعناءٍ، تتحدَّث الانجليزيَّة بطلاقة، بينما يتعثَّرُ لِسانها بين بضعِ كلماتٍ عربيَّةٍ التقطتها مِنْ هُنا وهُناك، وجهُها شاهِقُ البياضِ كاللبنِ تشوبُهُ المهقة، وشعرها شديد الاصفِرار كأَنَّهُ أبيض كما بدا مِن حاجبيها وخصلاتٍ بَدَتْ تحت خِمارِها، عيناها زرقاوانِ وجفناها دائِما الخلجانِ، لا تستطيعُ فتحهُما في ضوءِ الشَّمسِ إلَّا بمشقَّةٍ بالِغةٍ، فتختلِسُ مِن وراء الضّوءِ نظرات تهديها سُبُلها بعينٍ خلِجةٍ مُتردِّدة الخائِنة، ترتدي عباءةً فضفاضة خشِنة الملمس كثيفة رماديّة اللون

كأنَّها تغمُرها أو تتوارَى فيها عن الدُّنيا كُلّها، تلُفّ رأسها بِحِجابٍ أبيض يُكلِّلهُ خِمارٌ رماديّ مِن نسيج الرِّداء نفسه، يغمُرُ رأسها وينسدِل على كتِفيها وظهرها، ترتدي نظَّارةً طبيّةً مُستديرةً، عيناها غائِمتانِ خلف عدستيها، يتدلَّى مِن عُنُقِها صليبٌ خشبيٌّ كبيرٌ، وبِرغمِ اجتماع سِماتِ الجمالِ في قسماتِ وجهها إلَّا أنَّ تنافُرَ تقاطيعها جعلها تخلو مِنْ مسحةٍ ضئيلةٍ مِنهُ، فلا يبدو مِنْه سِوى طيبةٍ مُتناهيةٍ لوجهٍ أقرب للطّفولِة مِنهُ للأنوثة، تحارُ في سنِّها، هل هي شابَّةٌ أم عجوزٌ؟!!

كانت تأنسُ لـ"ماري" وأُسرتِها دون غيرِهِم رغم وحدتها وانعِزالها، وتتَّخِذها جليسةً تُبادِلها المودَّة، تهشّ لها وترتاحُ لحدِيثِها رغمَ تعثّرِها في فهم كثيرٍ مِنْ مُحتواهُ! وكأنَّ لُغَةَ المشَاعِر والمحبَّة تُقيمُ جسورًا مِن التَّواصُلِ والفهم قد تعجزُ الألسِنة بلُغاتِ العَالمِ أجمع على إيصالِها بين النَّاس!!!

شهِدتْ "ماري" ووالِدتها راكعتينِ أمامَ أيقونة العذراء في ضراعةٍ في بهوِ الكنيسة، بينما وجه "ماري" قد كستهُ الصُّفرة واعتراهُ الذّبول، فبدا ناحِلًا مهزولًا، رافقتهُما لُحجرة القُمّص "مكاريوس" تلتمِسانِ مِنهُ البركةَ والصَّلاةَ مِن أجلِها، تفهَّمت الأمرَ دون سؤالٍ حين رأت "ماري" تتخبَّطُ في ضيعةٍ وتيهٍ بينما "رءوفة" قد غمرها الحُزنُ، فبدت كالغارِقةِ فيهِ حتَّى أُذُنيها...

طلبت مِن "رءوفة" أنْ تترُكها بِصُحبتها في الدّير، أوعَزت إليها بإلحاحٍ: أنَّ جِوارَ الرَّبِّ أقدسُ مِنْ أي جِوار، في معيَّتِهِ تهونُ كُلّ الأوجاع، وتغدو الدُّنيا لا شيء!

وما آلامنا التَّافِهة مهما ظننّاها عظيمةً إلى جِوار آلام يسوع المُخلِّص؟ فتتلاشى مهما تعاظَمَت أمام آلامِه هو والعذراء البتول، حين جلست تحت صليبِهِ تتجرَّع الألم في صبرٍ بينما هو يقطُرُ روحه؟ كلماتٌ عربيَّة بلكنةِ جنوبِ

مِصر تخلطها بالانجليزيَّة في تلعثُمٍ ومُجاهدة، يكفي أنَّها تبُثّ الكلِمات غير المفهومة روحها ومحبّتها الخالِصَة، فيستبين الخفيُّ مِنها ويتَّضِحُ المعنى دون ترجمة أحرُف أو بيانٍ مفهومٍ!

فقد كانت "سيمون" الرَّاهِبة صامتةً في تأمُّلٍ دائِمٍ وسكينةٍ خاصَّةٍ تغتنِمها في رِحابِ جوٍّ مِنَ الصَّفاء الأزليّ، حين يتعانقُ الجبلُ مع السَّماء يلفحهما نسيمُ الصَّحراءِ الجافّ وهجيرهُ القاسي، الذي لم تألفهُ في بِلادِها المُتجمِّدة المشاعِر والجُدران!

راقَت لـ"سيمون" هذهِ البيئة الغريبة عليها وكيف لا وهي الأرض نفسها التي وطِئتها أقدام المسيح وأمّهُ ويوسُف النَّجَّار في جنوبِ مصر يومًا، أو تكادُ تقترِبُ مِنها، فتنسَّموا بأنوفِهم الطَّاهِرة نسماتِها، وجاسوا ربوعها ووِديانها، فاستمدَّت مِنهُم الطُّهر والعُذريَّة، وكأنَّ ريحَ الجبلِ لازالَ يحمِلُ عبقَهُم، ولَّما يختلِط بعدُ بدُخانِ المدنيَّة البغيض والحداثَةِ المنكرة التي لا تعرِفُ سوى البغضاء والعنف، ويتكلَّمُ الجميعُ لغةً واحِدةً، بلَكنةِ الدَّم والحرائِق!!!

وَجدَت "ماري" سبيلَ الخلاص في دعوةِ الأُخت "سيمون"، فقد كانت تستشعِرُ الرَّاحةَ في حضرتِها، وتزورها بصِفةٍ شِبهِ دائِمةٍ، وتُهديها طعامًا شهيًّا مِنْ صُنعِ يديها، أهدتها ذات مرَّة كعكة الحلوى بالسُّكَّر يوم نجاحها في المدرسة، فتقاسمتها "سيمون" والرَّاهِبات بعد أنْ أثنَتْ على طعمِهِ الرَّائِع، ومرَّةً أُخرى حمامًا محشوًّا بالفريك، لا تنسى حين أجفلَت "سيمون" مِن أكل الحمام قائلةً مُعتذِرةً: لا آكُلُ ذبيحةَ هي رمزٌ للسَّلام والنَّقاء، كثيرًا ما تتلبَّسُ بِها روحُ القُدُس، بينما التهمهُ بعضُ الرُّهبان وهُم يتضاحكون مِن كلامِها بلكنتِها المُتكسِّرة ويعجبون لمنطِقها، أمَّا "سيمون" فقد أهدتها شالًا

مِن الصّوفِ المُزركش، مِن صُنعِ يدها، فقد كانت سيمون مُجيدةً لأشغال الإبرة والتّريكو، تتسلَّى بتطريزِهِم في ليالِ الشِّتاء الطَّويلة البارِدة القاسية.

في غُرفة "سيمون" الضّيّقة التي بِالكاد تكفي ساكِنًا واحِدًا بِمشَقَّةٍ، تمدَّدَت "ماري" على سريرٍ صغيرٍ أشبه بِأريكةٍ مُستطيلةٍ، في رِحابِ "سيمون" بذَلَتْ همومها، كأنَّها نحلةً تمتصّ رحيقَ الأزهار، إلَّا أنَّ رحيقَ "ماري" كان مُرًّا علقمًا، وسِعهُ قلب "سيمون" الطّيّب في حنوٍّ ورأفةٍ، فضمَّدَت كثيرًا مِن جِراحها الجسديَّة ومُعاناتِها النَّفسيَّة، أضاءت لها كثيرًا مِن ظُلُماتِ الطَّريقِ العَثِر، حين أوحتْ لها أنَّ جنّة الأرضِ زائِلةً، أمَّا ما في ملكوتِ الرَّبِّ يبقى ويدوم، حِكمةٌ وعاها القدِّيسونَ في الماضي، فاحترقَت أوصالُهم، بينما حلَّقَت أرواحهُم في سعادةٍ غامِرةٍ بِرِضا الرَّبِّ، لم يعبأوا بِالأجسادِ الفانيةِ ولا عذاباتِها، وتملَّكهُم الهوى الرّوحيّ، فاستشعروا اللذَّة الخفيَّة والسَّعادةَ في الألمِ والعذابِ الذي خضعوا لهُ في سعادةٍ أشبه بالتَّرحيبِ!!!

في مرفأِ الرَّاهِباتِ أناخت همومَها، وتبتَّلت في صلواتِها للعذراءِ أن تُخفِّفَ آلامَ أحِبَّائِها، أمَّا آلامها هيَ، فستتحمَّلها بِصبرٍ وضراعةٍ، ستتخلّى عن أنانيتِها، وستخوضُ طريقَ الآلامِ في جلَدٍ وتحمُّلٍ، لِتحمِلَ صليبَ الغُفرانِ على عاتِقها لِسَعَادةِ أحِبَّائِها، حتَّى تُتَوَّجَ فوقهُ، وقدِ اغتسَلت مِن أدرانِها، وتلبَّسَت بِمُسوحِ الطُّهر! أليسَ في الشَّهيد العظيم "ماري جِرجس" الذي مُزِّقَت أوصالهُ في كُلِّ صوبٍ السَّلوى والتَّعزّي؟

لِذا تجرَّعت "ماري" آلام السَّرطان المُفزِعة الرَّهيبة في مراحِلِهِ الأخيرة دون أنْ تُجدي معهُ أشدُّ المُسكِّنات بصبرٍ وجلَد، بعد غيابِ شهرين في المُستشفى الدّوليّ خضَعت فيهِ لِجراحةٍ استئصاليَّةٍ دقيقةٍ، تمَّ فيها استِئصال

الأمعاء والمثانة وكثير مِن الغُدد الليمفاويَّة وتحويل مسارِ الأمعاءِ لِفتحةٍ في الخاصِرَة تنتهي إليها فضلاتُ البولِ والبُراز، الذي يتجمَّعُ في كيسٍ بلاستيكيٍّ ملتصِق بجِلدِها، كتمت الأنينَ في جوفِها المُحترِق، لم تجأر بالآهةِ أو تضجّ بالشَّكوى، فتتبرَّم مِن مُعاناتِها، بينما "سيمون" جاثية على رُكبتيها بِجوارِ سريرِها تتلو التَّرانيم وتتبتَّلُ في صلواتِها أنْ يرحمها الرَّبّ ويُخلِّصها مِن مُعاناتِها أو يُخفِّفها عنها، ازدادت مُعاناتها حين استبدَّ بِها خجلٌ قاتِلٌ مِن قسوةِ عمليَّةِ الإخراج، فطلبت مِن "سيمون" أن تُفرِدَ لها غُرفةً خاصَّةً نائية حتَّى لا تتأذَّى هي ولا يستاء أحدٌ مِن رائِحتِها وأصرَّت على الاعتِزال!

بينما تُضيء لها "سيمون" الشّموع أمام أيقوناتِ المُباركين، وتكثِرُ مِن الصَّلاةِ لأجلِها هي والرُّهبان الذين تملَّكهُم الألم والحسرة على عروس السَّماء!!!

ازدادتْ ماري قُربًا مِن راهِباتِ الدّير، وأصبحت صديقةً لُهُنَّ يُخفِّفنَ عنها كثيرًا ممَّا تُعانيهِ، تقرَّبت مِنها الأُخت "نيكول" وهي راهِبة انجليزيَّة بارِعة الجمال تُشبِه "صوفيا لورين" إلى حدٍّ كبيرٍ، كانت تُجيدُ العَرَبيّة بعد أنْ قضَت سنواتٍ طويلة تتقلَّبُ بين أديرةِ الشَّرقِ وكنائِسهُ، بعد أنْ فارَقت حياةً صاخِبةً ماجِنةً تعجُّ بالتَّرفِ واللهو، شيءٌ ما ألجأَها للهروبِ مِن حياتِها السَّابِقة، حتَّى استقرَّت في هذا الدّيرِ، وجَدَت فيهِ مُستراحًا مِنْ نزَقِ حياتِها السَّابِقة، وَشَبَح الماضي الخفيّ الذي لم يكُفّ عن مُطاردتِها، كانت تُجيدُ التَّمريضَ، فقامت على خِدمةِ الصَّغيرة "ماري" كابنةٍ لها، تُضمدُ لها جِراحها، وتقومُ على شئونِ دوائِها، كانت تقُصُّ على الجميع أنَّ الرَّبَّ رُبَّما استقدَمَها مِن آخِر الأرض لتكونَ تحت قدمي هذه البريئةِ في لحظاتِها الأخيرة!!!

لم يعُدْ لِلمرآةِ وجودٌ في حياةِ "ماري"، يبدو أنَّ القَدَرَ أحسنَ بِها صُنعًا حين جعلهَا عازِفةً عنِ التَّطلُّعِ فيها؛ حتَّى لا تشهدَ شبحها يُطِلُّ عليها بعد أنْ فقدَ الوجهُ الغَضّ نضارتهُ وابتِسامته، وتحوَّل جسدها الطَّريّ ذو القوامِ الميَّاس لهيكلٍ تكسوهُ بقايا اللحم، أوهنهُ خُبثُ المرضِ كأنَّهُ شيطانٌ رابِضٌ في أحشائِها يُمزِّقُ فيها بِسكِّين، كأنَّها تنزِفُ آخِر بقايا روحها المُعلَّقة بأهدابِ الحياة، فتصطحِبُ بقاياها، تُجرجِرُ ساقيها صوب الجبلِ في سكونٍ وذُبولٍ، وكأنَّها خيطٌ حريريٌّ قُدَّ مِن نورٍ، تملأ رئتيها مِن هوائِه الجاف وتُعبِّئُها بِنسائِمهِ العليلة الشَّارِدة، تُمعِنُ النَّظرَ فيهِ، لم تكُن تُبدي نحوهُ سابِقًا أدنى اهتِمام، الآن يستهويها جمودُه، يجذِبها شموخه وثباتُهُ وهو يرمُقُ الزَّمَنَ ويتحدَّاهُ، تتعاقبُ عليهِ أجيالٌ وأجيالٌ، وهو أشمُّ لا يتبدَّل ولا يعتريهِ الفناء، فتُخاطِبهُ: هل ستذكُرني أيُّها العتيد؟ تذكُرُ السَّنوات القليلة لـ"ماري" الجميلة التي عاشت في جِوارِك، ثمَّ ارتحلَت بعد أنْ صارت شبحًا، بعد أن تفنى الأجيال وتطوينا جميعًا غياهِبُ النِّسيان!!!

وراحت تتساءلُ بينها وبين نفسِها عن سِرِّ وجودها وجمالها وحبّها وشقائها بِهم جميعًا؟! دارت في ذِهنها تساؤلات تبحث عن إجاباتٍ! حياؤها الذي أودى بِها حين أجفَلَت أنْ تنكشِفَ سوأتها على طبيبٍ أو قريبةٍ!!! أيُّ قَدَرٍ، بل أيُّ مصيرٍ ذلك الذي جعلها تتجاهلُ مرضَها اللعين الذي ترصَّد لها بِجِوارِ موضِعِ عِفَّتِها، وكمُنَ في أحشائِها في ترقّبٍ ثُمَّ تسلَّل بِخُبثٍ ووهنٍ كالأفعى الملساء حتَّى استشرى كالنَّار! لازالت تتذكَّرُ آخِرَ كَلِماتِ الطَّبيبِ لها: أنبأها أنْ تسعدَ في أيَّامها التَّالية، لاتُحمِّل نفسَهَا فوق طاقتِها، كانت تبُثُّ للجبلِ الأصمِّ أنينها، كأنَّهُ عِملاقٌ مُقيَّدٌ رابِضٌ في عُنفوانٍ، يستمِعُ شكايتها دونما أذُن!! رُبَّما بدرت مِنهُ إشاراتٌ تواسيها في أيَّامها الأُخريات، يربتُ دونما

يدٍ على ظهرِها، يمسحُ دَمعاتٍ لا يراها غيرُهُ فلا تُجاهِد حبسهُا في محجريهِما أمامهُ، وحين تتيقَّنُ مِن وحدتِها عنِ النَّاسِ تُطلِقُ لآهاتِها العنان، تصحبُها زفراتٌ مُحترِقةٌ تضجُّ بالأنين، كُلَّما تذكَّرَتْ مَنْ أحبَّت وفَقَدَتْ في لحظةٍ واحِدةٍ، وكأنَّ القَدَرَ حين منحها بيمينِهِ سلبها في خِفَّةِ ساحر بيُسراهُ كُلّ ما كانت تُمنّي نفسها بِهِ، وكأنَّها شيَّدَت لنفسِها قصورًا في الرِّياحِ مِن رِمالٍ ناعِمةٍ!!! أضحَتْ زهرةً آخِذةً في الذُّبول والتَّلاشي يكادُ ينكسِرُ عودُها!!!

نبَتَتْ مع شقيقتِها "سارَّة" في كنفِ والديها "مصري" و"رءوفة"، كانت دُكَّانةُ "مصري" المواجِهة لِدَرْبِ النَّصارى تزخرُ بِشتَّى أصنافِ البِضائِعِ رغمَ ضيقِها، كان الكهل "مصريّ" ذا ظهرٍ مُنحنٍ وأنفٍ جبَّارٍ، كأنَّهُ حبَّةُ بطاطس ضخمةٍ غير مُنتظِمَة وعينين باهِتتينِ في جحُوظٍ، أمَّا وجههُ فساحةٌ للثنايا والتَّجاعيد، وكأنَّها مُنحنياتُ الزَّمان وتقلّباتهُ فيما يُشبِهُ الخريطةَ الأثريَّة القديمة، رأسهُ أشيبٌ يوحي لمن رآهُ ولا يعرِفهُ أنَّهُ جدٌّ بناتِه وليس أبًا لهُم، وأب لِـ"رءوفة" المُكتنِزَة القصيرة لا بعل لها!!!

كانَ يكبُرها حين تزوَّجَا بِخمسةَ عشرةَ عامًا على الأقلّ كان عُمرهُ وقتها قد تخطَّى الأربعين، حين وافقت "رءوفة" المُدملجة البدينة التي لم يخلُ وجهها المُستدير المُنتفِخ كالخُبزِ الشَّمسيّ مِن مسَحَاتِ جمالٍ مشُوبٍ بطيبةٍ على الارتباطِ بهِ خشيةَ أنْ يفوتها قِطارُ الزَّواج، وهي اليتيمةُ الفقيرة التي أورثها أبانوب والِدها قراريط ضئيلة تكفيها مؤونتَها!!! قد سبقَ لهُ الزَّواج قبلها مِن امرأةٍ ماتت وهي تلِدُ لهُ مولودهُ الأوَّل، رحلت هي وما في بطنِها، لم يهنأ ولم يعرِف عِوض الدّهر، حتَّى قبِلت بِهِ "رءوفة" رغم سنِّهِ وهيئتِه التي تُضيفُ لعُمرِهِ عُمرًا آخَرَ وهرمًا، وهي الجميلة السَّمينةُ التي مضَتْ بِها عجلاتُ الزَّمَانِ مُسرِعة، ولم تُلحقْ بعدُ بِزوجٍ يهبها الحياة ويهبُ رحِمها الولَد!!!

فوجدت في "مصريّ" الذي يبدو كأبيها العِوضَ والحنانَ والسَّلوى عن سنين جدبٍ ألَمَّتْ بها دون غيرِها في عُرفِ الجبلِ وآلِهِ!!!

هو مُسِنٌّ لكِنَّ هيئتهُ ومظهرهُ الخارجيّ يوحيانِ بتوغُّلِهِ في أرذلِ العُمُر رغم أنَّهُ ليس كذلِك، لكِنَّ وجههُ العابِس في حُزنٍ دائِمٍ زادَ مِنْ عُمرِهِ الكثيرَ وكأنَّهُ مُعمِّرٌ لازالَ يطمعُ في الدُّنيا ولهُ فيها مآرِب!!!

"ماري" الجميلة تموت، عبارةٌ كانت تُقحمُ في كلِماتِهِ وسطَ أيّ حِوارٍ، حتَّى مع زبائِنهِ الذين كانوا يرْثون لِحالِه، وكأنَّ ذهولًا عقليًّا أصابهُ، جعلهُ لا يسيطِرُ ولا ينتبِهُ لِما يقول! ما عاد يُشغِلهُ شيءٌ عن التَّفكير في "ماري" الزَّهرة الذَّابِلةِ في ألم، النَّائِيةِ في الدّير المُتأهِّبةِ لِلرّحلةِ الأخيرة!!!

ما عادَ يعبأ بِشئونِ تِجارتِهِ، فيجلِسُ على بابِ دُكَّانِهِ واجِمًا لا يُلقي بالًا لِمارّ ولا يرُدُّ التَّحيَّة على إنسانٍ!!!

أيُفجِعهُ الدَّهرُ بابنٍ آخر بعد أنْ ظنَّ تبدُّلَ الأيَّام؟ ارتحلَ ولم أشهدهُ وِلادة "ماري" ضمَّدت جِراح فقدِه، تفنَّنَ القَدَرُ فأضْفَى مسْحَةً ملائِكيَّة على تقاطيعِها البريئة الهادِئة، وكأنّها اقتنصت مِن أسلافِها كُلَّ ميزةٍ جميلةٍ فأضفاها عليها وكأنَّها وحدةٌ مُجمَّعةٌ مِنْ جمالاتٍ شتَّى تبلورت في وجهٍ قمريٍّ رائِعٍ له طابعهُ المُميّز!

صغيرة تجلِسُ في حِجري هادِئةً لا تطلُبُ القروشَ كقريناتِها إلَّا أنْ أمنحها لها دون طلَب، مُبتسِمةً وادِعةً كأنَّ أطيافَ الرِّقّة تحاوِطها، لم تكُن كـ"سارَّة" شقيقتها الصُّغرى التي كانت أكثرَ مرحًا ومُشاكسةً تُجيدُ المناغشَة، تُضفي جوًّا مِن المرحِ والمزاح أينما حلَّت، بينما "ماري" صامتةٌ خجولة لا تتكلَّم إلَّا إذا سُئِلت، وتُجيبُ في عِباراتٍ مُقتضبةٍ سريعةٍ، بينما تُسدِلُ جفنيها في رِقَّةٍ ودعةٍ ولُطفٍ تخشى أن يصطدِمَ بِلحظِها لحظٌ آخر،

فيُغوص في بريقِهما الصَّافي، أو ينشُبُ في وجهِها الصّبوح أحد مخالِب نظراتِهِ الواهِية المشدوهة!!!

دارهم في مواجهة محلَّة النَّصارى، يقبعُ دُكَّانهم الصَّغير أمام بوَّابتِها العالية الغليظةِ كبابِ القلعة!!!

كانَ شارِعُ الأقباطِ عِبارة عن دربٍ طويلٍ يتألَّفُ مِن بيوتٍ مُتراصَّة مُتلاصِقة في تداخُلٍ، لا تكادُ تُميِّزُ بسهولةٍ بينَ حدودِ جُدرانِها، تبدو كأنَّها جِدارٌ لبيتٍ واحدٍ مُمتدّ طويل، فبدا كأنَّهُ كيانٌ واحِدٌ مُتعرِّجٌ مُتماوِجٌ لهُ أبوابٌ مُتعدِّدةٌ...

دربٌ طويلٌ يخترِقُ الدّورَ المُصطفَّة في توازٍ على جانبيهِ دونما تناسُق، بعضها مؤلّفٌ مِن طابقٍ أوحد مِنَ اللبِن ومعظمها مِن طابِقين، وبعضها مؤلّف مِن طوابِق مُتعدِّدة بالأسمنت...

والدَّربُ مُغلق عِند نِهايتِهِ ببيتٍ عالٍ يعترِضُ مخرجهُ، فيجعل لهُ نهايةً عمياء لا سبيل إليها، فغدا بالِغ التَّحصينِ من جهةِ اتّصالِه بالخلاء المُمتدّ نحو الجبل، أمَّا مدخلُهُ عند التِقائِهِ بالطَّريقِ الأوحَد الرَّئيسي في القرية فلهُ بابٌ ضخمٌ خشبيٌّ عِملاقٌ سميك، كأنَّهُ باب الحِصن، يُغلقُ كُلَّ مساءٍ فيما بعد العشاءِ بهُنيهة، ولا يُفتحُ طيلةَ الليلِ إلَّا لأسبابٍ قاهِرةٍ أو عقِبَ بزوغِ نورِ الفجرِ، وتوغُّل الضّوء في جنبَاتِ الجبلِ وتسلُّلِهِ بلُطفٍ فوقَ كُلِّ جِدار، أغلبُهُ مسقوفٌ بعروقِ الخشبِ والبوص، مُمتدَّة بين البيوتِ المُتقابِلة، وقد تعلو الدَّرْب حُجراتٌ مُتّصِلةٌ بأحدِ الدّور كأنَّها مُعلَّقةٌ في الهواءِ فوق رءوس المارَّة، فغدا الدَّربُ حِصنًا حصينًا لا يلجهُ الغُرباء سِوى في معيَّةِ أهلِهِ وبِرِضائِهم، مغلق على قاطِنيهِ مِن النَّصارى الذين ينحدِرونَ مِن نسلِ أوَّل جيلٍ قِبطيٍّ لاذ بالجبلِ وجاورَ الدّير، يمُتُّون جميعًا لِبعضِهِم بِصلاتِ قُربَى ومُصاهراتٍ، فهُم

في البِداية والنِّهاية كالعائِلةِ الواحِدة التي تنعمُ بالاطمِئنانِ والسَّكينةِ خلف بابٍ واحدٍ، لا تُعكِّرُ صفوهُم قليلٌ مِن مُشاحناتِ الصِّبية ونزق الشَّباب، وضغائِن الجيرة المُغلَّفةِ بِالودّ، فهُم في النِّهايةِ أهلٌ مُترابِطونَ تجمعُهُم وحدةٌ واحِدةٌ لا تنفكّ عُراها مهما جرى في الأيَّامِ مِن حوادث!

البيت الأوّل المُلاصِق لبوَّابة الدَّربِ مِن جهة اليمين لـ"مجدي" ابن المُقدِّس "صهيون"، الذي زارَ كنيستي المهد والقيامة وحجَّ أورشليم فيما مضى من الزَّمان، وجههُ أشبهُ ما يكونُ بوجهِ رجُلٍ مِن الفيوم، تِلك الصّورة التي وُجِدَت منقوشةً على غِطاءِ أحدِ التَّوابيت الخشبيّة المُكتشفة في مدينةِ يوسُف، فوجهُهُ مُثلّثٌ قاتِمُ السُّمرة، شعرُهُ مُجعَّدٌ طويلٌ وعيونُهُ مُستديرةٌ واسِعةٌ في شِبهِ جُحُوظٍ غير مُكتَمِلٌ، لهُ شارِبٌ غيرُ مُتناسِقٌ وشعراتٌ مُتناثِراتٌ في صفحةِ خدِّه موضِع لحيتِه، كأنَّهُنَّ بِضعُ أشواكٍ نابِتةٍ في تُربةٍ سوداء قاحِلةٍ، يُقيمُ "مجدي" مع والدتِهِ الأرملة وزوجتِهِ وأبنائه، يعشقُ الجِنسَ بِشراهةٍ كأنَّه الإدمان، يمارِسهُ كُلَّ ليلةٍ مع زوجتِهِ "ميري" البيضاء الجسيمة كالجملِ الأبيض، لا يمنعهُ عنهُ إجهادهُ الشَّديد ولا عملهُ اليوميّ الشَّاقّ!!! يدَّعي أنَّ اليومَ الذي يفوتهُ دون أنْ يعتلي فيهِ امرأةً يُداهِمهُ صُداعٌ غيرُ مُحتمل، وتحمرُّ عيناهُ كأنَّ رأسهُ مِرجلٌ يغلي، فلا يبرأُ مِن دائهِ حتَّى يُفرِغ ماءهُ في حنايا امرأة!!! وبِرغمِ استِغراقهُ في الجِنس المُفرِط إلَّا أنَّ قواهُ لا تخمد، ولا تفتُرُ لهُ رغبةٌ، وكأنَّهُ أودِع الدُّنيا ليقتحِمَ أفخاذ النِّساءِ، فهي غايتهُ ومُبتغاهُ ومُشتهى ذاتِهِ الأثير الذي لا تعدِلهُ عِندهُ لذَّةٌ!!! فلا تكُفّ عيناه عن التَّحديقِ في جسدِ كُلّ امرأةٍ تعترِضُ طريقهُ وتقعُ في مدى بصرِه، كأنَّهُ أُعطِيَ فُحولة الرِّجالِ جميعًا، فلا يُحيلُ عينيهِ عن تفصيلاتِ الجسدِ المُثيرة، يتأمّلها في شغفٍ ونهَمٍ، أيًّا كانت، ويستبِدُّ خيالهُ بِهِ فيتمادى، كأنَّهُ يُجرِّدهَا ثُمَّ يعتليها بِمُقلتِهِ،

يتفحَّصُ تفاصيلها بِلحْظِ عينيهِ، ويهيمُ مع هِضابٍ وروابي ملساء، كأنَّ عينيه البارِقتين شُعاع ليزر، يخترِقانِ الحُجُب... ويرسمانِ التَّفاصيل الخفيَّة!!! لا ينتقي لِنظرتِه واحِدةً بعينِها أو تُعنى بمواصفاتِ جمالٍ خاصَّة، يكفي أنْ تكونَ امرأة حتَّى يُصلِّت عليها حديد بصرِه!!! سمراء كانت أم بيضاء، سمينة أو نحيفة، عجوز أم شابَّة، ترتدي جينزًا فاضِحًا أو جِلبابًا مُهترِئًا، فللجسدِ الأُنثويّ لديهِ قُدُسيَّة خاصَّة، ووله مُتجدِّد دائِم، وشبق لا ينفكّ؟!!

لكنَّهُ كان يستحيلُ شخصًا آخر شديد التَّحفُّظ والحيطة في قريتِهِ، وأمام نِسوةِ محِلَّتِه، فكأنَّهُ يودِعُ عينه النَّهِمة الفضَّاحة مدخل الحاجِرِ، فلا تجرّ عليهِ الويلات، ولا يبدو مِنهُ ما يُسيءُ أو يُثيرُ الاستفزاز!!! بل رُبَّما بالغ في التَّظاهُرِ بالاستِقامة، فيُقيّد مجال رؤيتِهِ بحدود، ويُجاهِدُ غضّ بصرِهِ الثَّاقِب، إلَّا أنْ تُبهِرهُ إحداهُنَّ بِحُسنِها كسيادة زوجة "جهلان" تِلك الفقيرة ذات العيون والخال، فيعجزُ عن مُغالبةِ عادتِهِ، ويسترِقُ مِن فِتنتِها نظرات خاطِفة كلِصٍّ حاذِقٍ مُحترِف، يختطِفُ خِلسةً ببراعةٍ وخِفَّةٍ ما يُطفئ أوار غُلَّتِهِ، وهو يُتمتِمُ دونَ أن يسمعهُ إنسٌ ولا جانّ ويهزُّ رأسهُ يُمنة ويسرة: آه لو جئتني ساعة يا بنت المركوب فشفيتُ مِنْ سُرَّتكِ غليلي!!!

وهو ضيفٌ دائِم التَّردُّد على بيوتِ الهوى في الأقصُرِ وأجوارها، يزورها بين الفينةِ والأُخرى، ويُغادِرها أشدّ ولهًا وشراهةً، بعد أنْ يُطفئ لدى إحداهُنَّ غُلَّتهُ التي لا تنطفئ، وكأنَّهُ يستقى مِن بِئرٍ لا ينضب وفيضٍ زاخِرٍ لا ينتهي!!!

يحدوهُ منزل آل نعيم الذي توفي مُنذُ أعوام، مُخلِّفًا وراءهُ زوجة عجوزًا تُدعى "سعيدة" وثلاثة شُبَّانٍ، أكبرُهُم ناجِح المُتزوِّج حديثًا يليه "روميل" و"روماني" اليافعان، والذَينِ لم يأن دورهما في التَّزوّج، يعمل ناجِح مُدرِّسًا

إلزاميًّا بمدرسةِ الحاجِر، بينما يتناوبُ الأخوانِ في قيادةِ سيَّارة أُجرة تمتلِكها الأُسرة بعد أنْ اشتروها مِن ميراثِ أبيهِم؛ لتحسينِ حالتِهم الماليَّة وإدرارِ دخلٍ مُناسِبٍ على الإخوة!!!

بين "روميل" و"روماني" شَبهٌ لا تُخطِئهُ عينٌ، وخصوصًا الجحوظ البادي في عينيهِما، وكأنَّهما توشِكانِ على البروزِ مِن محجرِهما فتسقُطانِ، فضلًا عنِ النَّحافة الشَّديدة، وكأنَّ جلديهِما لا يكسوانِ لحمًا ودمًا، بل جِلد على عظمٍ!!!

كان "روميل" شديد الولَع بـ"ماري" الجميلة التي كان يرفُضُ بإصرارٍ أنْ يتقاضى مِنها أجرًا نظير توصيلِها كسائِر رفيقاتِها بدعوى صِلةِ القُربى، بل رُبَّما تمادَى حين تُصِرُّ على دفعِها، فيرفض استِلامها مِن رفيقاتِها جميعًا، إكرامًا لِخاطِرِها ودفعًا لمغبَّة الحرجِ عنها، لم يكُن ذا وسامةٍ أو مال، فالسَّيَّارة الأُجرة هي كُلّ مالِه الذي هو شريكٌ فيها بالثُّلثِ لا أكثر!!!

كان "روميل" بارز التَّقاطيع منحوت الوجهِ كأنَّهُ إخناتون أو ملاكٌ شبحيّ غير جميل الصّورة، لهُ ضحكة بلهاء يعقُبها صوتٌ كأنَّهُ صفيرٌ حادٌّ... غاية في الشَّهامةِ والنُّبلِ وطيبة القلب، وكأنَّ القَدَرَ حين منحهُ الوجه الأصفر المنحوت والعينين الجاحظتين، فبالغَ في تشويهِ صورتِهِ، منحهُ من جميلِ الصِّفاتِ ودماثة الخلُقِ الشّيء الكثير، وكأنَّهُ ملاكٌ رءومٌ في صورةٍ مُنفِّرة!!!

كانت هيئتهُ جديرة بأنْ يُحرَمَ مِن حُبِّ إحداهُنَّ، أو تنشغِل بِهِ فتاة، فماذا عن "ماري" الجميلة التي اختطفت بِجمالِها الألباب؟

لم يكُن حُبّهُ لـ"ماري" اختيارهُ، لكنَّهُ قدرُهُ الذي عجزَ عن التَّملُّصِ مِنهُ، هامَ بِها عِشقًا دون أنْ تنطِقَ شفتاه، أو يُصرِّح لمخلوق بمكنونِ فؤادِه، فيطوي حُلمهُ في صدرِه، كأنَّهُ يُحصِّنهُ، ويستغرِقُ فيهِ حينَ يخلو لنفسِهِ وحيدًا، فيُمنّي

نفسهُ بأُمنياتٍ مستحيلةٍ، أنْ تضمَّها ذراعاهُ في حنوٍّ ورِقَّة، تتبدَّى في مُخيِّلتِهِ بِجسدِها الضَّئيل المُتثنّي الجميل، طيفٌ ملائِكيٌّ قُدَّ مِنْ نورٍ، لم يبح لهُ خيالهُ الطَّاهِر ولا قسماتِها الملائِكيَّة التَّمادي أو الاستغراق في تمنّي أو تخيُّل ما هو أبعدُ مِنْ ذلك، ممَّا يقرعُ أحلامَ الشَّبابِ والمُراهقين ويقُضّ مضاجِعهُم!

تملَّكهُ الوجدُ الغريزيّ حين خُطِبت لـ"هاني"، الذي لا يراهُ أكثرَ تميُّزًا عنهُ بمقاييس الرِّجال، وجدٌ لا يرقى لحدِّ الكراهيةِ أو الشَّرِّ الذي لم يعرف يومًا طريقًا إلى قلبِه، فقط دَاخَلَهُ شعور بالسّخطِ والاستياء، ما دعاهُ للرِّثاءِ لِحالِهِ وهو المُحِبّ الذي لم يبُح بحبِّهِ أو يُصرِّح بهِ، تلاشتْ مِنْ قلبِهِ كطفلٍ سرعانَ ما ينسى الإساءةَ ويغفِرها، حين أدركَ ما حاقَ بِمحبوبتِهِ الخفيَّة المطمورة في ذاتِهِ مِن محِنةٍ كُبرى!

رُبَّما قضى لياليه في وحدة مُنعزِلًا دامِعَ العينينِ يتلو التَّرانيم في خُشوع ويُصلِّي مِنْ أجلِها، دون أنْ يدري بِهِ إنسان، أو يستشعِرَ عذابَهُ، يرومُ لها النَّجاة وإنْ لم يحظَ بِقُربِها، يعتصِرهُ ألمٌ خفيّ وهو يشهدُ نهايتها الحزينة وحيدةً مريضةً تتجرَّعُ كئوس الألم كأسًا تلو آخر ترتشِفُ مِنهُم آخِرَ قطَراتِ الحياة... حتَّى بلوغ النّهاية التي أصبحت وشيكةً!

قضَمَ مِن كعكةِ الألم نصيبًا وافِرًا حينَ قيَّضَ لهُ الدَّهرُ فُرصتهُ الأخيرة للقُربِ مِنها وتوديعِها، فيُجلِسونها في الكابينةِ - الموضِع الوحيد شبه الآدميّ في سيَّارات الأُجرة في الجبل - إلى جِوارِهِ إمعانًا في راحتِها، بينما ينقلها مع أُسرتِها للمشافي وعيادات الأطِبَّاء في الأقصُرِ وقِنا، يسترِقُ النَّظرَ لِوجهِها المُستسلِم الحزين، بينما تُطلِقُ لروحِها العنان، سارِحةً بعينيها مِن نافِذة السَّيَّارة في أديمِ الأرض والزِّراعاتِ المُنتشِرة على جانِبي الطَّريق والترعة الموازية للأسفلت، لا تُحدّقُ في شيءٍ بعينِهِ، وكأنَّهما تودِّعانِ الدُّنيا والأرض والنَّاس

والشَّجر والزَّرع والماء، في مشهدٍ بائِس يفيضُ حُزنًا وجلالًا ورِقَّةً! في ذهولٍ أشبه بالتَّغييبِ، ورضوخٍ تامٍّ لِقدَرِها الحزين، لا تتكلَّم ولا يُسمحَ لأحدٍ أنْ يتفوَّهَ أمامها بِعِباراتِ المواساةِ أو الشَّفقة، التي قد تُمزِّقها، يرفُضُ "روميل" بإصرار تقاضي أُجرة مُقابِل استخدامِ سيَّارتِه التي وضعها تحت تصرُّفِهِم، كما فعلَ بنفسِهِ كذلِك، مُنذُ ما ألمَّ بِـ"ماري".

زهدَ بعدها في الزَّواج، لم تعُد تمتلِكهُ تِلكَ الرَّغبة الجارِفة في امتلاكِ أُنثى وضمّها والتَّلذّذ بِمفاتِنها ومواضِع الشَّهوة والفتنة فيها، وهو المحروم الذي لم يحظَ أبدًا بالاقترابِ مِن أُنثى أو علاقة حُبٍّ طبيعيَّةٍ كغيرِهِ مِن الأقران!

تحوَّلَ توقانهُ للنِّساءِ بعد مرضِ حبيبتِهِ وخِطبتها قبلهُ إلى زُهدٍ وتعفُّف، قلَّ أنْ يزورهُ طيفُ أُنثى غيرها، فيخطُر لهُ ما يخطُرُ للفتيانِ مِن نزقٍ في مناماتِهِم!

كانت لهُ أملًا بعيدًا وطموحًا غير مقبولٍ وخطيبًا لو تقدَّم لطلبِ يدها لَمُنّيَ بالرَّفض، ومع هذا يتجرَّعُ معهم مرارةَ عذاباتِها، كأنَّهُ خطيبها لا هاني!!!

لم يعُد يزورهُ في أحلامِهِ سوى شبحها الذَّابِل، الذي ظلَّ عالِقًا في خاطِرِهِ وأحلامِهِ، فغدت آخرُ صورةٍ لها على ما آلت إليهِ بعد مرضِها وتبدُّلِ حالها، هي الصّورة التي لا يذكُرُ سِواها، وكأنَّها مَحَت كُلَّ صورةٍ سبقتها في خيالِه!!!

ذلك الشَّبَح الباكِي الآخِذ في الهُزال حين رآها لآخِر مرَّة مُعتكِفة في الدّير، لا تُكلِّم أحدًا ولا ترنو إلى إنسانٍ...

مشهدُ جنازتها المهيب وكأنَّها عروسٌ تُزفُّ إلى ملكوت السَّماء مع القدّيسين، تُحيطها الملائِكة بِأجنحتها، تغمرها بَركاتُ الرَّبّ، ترقبُ روحها نعشها المحفوف بالدُّموع، الذي ضمَّ أرقَّ وردة ذبُلت، حتَّى صارت هيكلًا في تابوتِها!!!

كانَ خروجها مِن الدّير أشبهَ بِزِفافِها بعد أنْ تُليَت حولها الصّلوات وأُطلِق بَخورُ الوداع... لا فرق سوى استبدال الزَّغاريد بأنينٍ ونحيبِ الأهل المكلومين، بينما تجثُمُ الأخت "سيمون" على رُكبتيها في خشوعٍ بِجوارِ جُثمانِ صديقتِها المُمدَّدة في تابوت، أمام المذبح في خُشوعٍ، تربُتُ عليهُ بِحنوٍّ وإشفاقٍ وهي تقول: ارقُدي بسلامٍ أيَّتها الرَّقيقةُ الوَادِعةُ الصَّابِرة، القريبة مِن قلبِ العذراء، يا رفيقة يسوع في دربِ الصَّبرِ والآلام، انتهى اليومَ عذابُك، فلا ألم ولا أنين، بل سعادة أبديَّة، تُحيطُك بركاتُ الرَّبّ...

أدمَتْ وفاتها قلب الجبلِ وآلِه قِبط ومسلمين، وكأنَّ صخر الجبلِ افتقدَ رفيقتهُ، تِلك العروس التي كانت تتودَّدُ إليهِ فتبُثّهُ شكواها وتمنحهُ لؤلؤ أدمُعِها دون سِواهُ، ذلك العودُ الذَّابِل الذي كان يُفضي لهُ بِهمِّه وُيسمِعهُ أنينه!

ينتهي دربُ النَّصارى بدارينِ متلاصقتينِ لمالِكٍ واحِدٍ، يعترِضانِ الدَّربَ مِن نهايتِهِ، إحداهُما في الجهة اليُسرى، وهي دارٌ قديمةٌ خرِبةٌ غيرُ مأهولةٍ، حوائِطها لبِنٌ مطليَّة بطينٍ مخلوطٍ بتبنٍ، لا توجدُ بِها إضاءة أو أيّ مظهرٍ لِعنايةٍ لا يطرُقهُا غير بشندي وزواره، ولا يجرؤ أنْ يقتحِمها إنسانٌ إلّا في صُحبتِهِ، جُدرانُهُا كئيبةٌ مسوَّدة، مِن أثرِ دُخان الخبيزِ النَّاجِمِ مِن احتِراقِ القشّ والحلَّة فيما مضى مِن الزَّمان!!! تتألّفُ مِن حُجرةِ خبيزٍ وتنّورٍ بلديّ مبنيٌّ بالطِّين، ظهرهُ مستوٍ كأنَّهُ سرير، فوقهُ أغراضٌ قديمةٌ وبقايا أثاثٍ مُتكسِّرٍ قديمٍ لم يعودوا في حاجةٍ إليهِ! فُرنُ خبيزٍ خرِب مهجور لم يشتعِل جوفهُ مُنذُ سنين، لها بابٌ مؤلفٌ مِن وحدات طوليَّة مِن الخشب المُتراصّ رأسيًّا، جنبًا إلى جنبٍ، يعترِضها ويُعضِّدها ثلاثة ألواحٍ خشبيّةٍ تتعامدُ معها أفقيًّا مِن أعلاها وأوسطها ومُنتهاها، مُغلقٌ بعددٍ كبيرٍ مِن الأقفال الصَّدِئَة، التي لا تتناسبُ مع وهنِ الباب ولا ضآلتِهِ وبدائيّةِ تكوينِهِ، ليس لحجرةِ الخبيز فُرجةٌ أو شُبّاكٌ،

فلا يلوحُ مِن أعلى الباب ولا أسفلهُ ولا مِن بينِ شقوقه الخشبيّة إلَّا الظَّلام الحالِك في وَضَح النَّهار! منعَ "بشندي" ذويهِ مِن الاقترابِ مِنها أو مُحاولة التَّسلّل ولو بنظرةٍ في سوادِها الحالِك بين فروج الباب وشقوقِهِ المُتَّسِعَة... تُشبِهُ القبرَ في ظُلمتِهِ ووحشتِه، يُقالُ إنَّهُ لم يطرُقها مُنذُ سنواتٍ إلَّا لمامًا، وأنَّها مسكنُ قرينه الجنيّ الذي يُخاويهِ، وكانت تصدرُ مِنها جلَبة شديدة وضوضاء وأصوات تحطيم وتكسيرٍ طيلة الليل فيما مضى مِن الزَّمان حتَّى أصلحَ "بشندي" ما بينهُ وبين قرينِهِ!!! خصّصها "بشندي" لأعمالِهِ السُّفليَّة الخبيثة وسِحرِهِ الأسود، لا يدخُلها إلَّا للطَّارئ الشَّديد في وضَح النَّهار، على ضوءِ مصباح كيروسينٍ صغيرٍ –لمبة سِهراية– بعد أن يتلوَ التَّمائِم ويُشعِل البخور الأزرق ويتحصَّن بآياتٍ مِن كُتُبٍ مُقدَّسةٍ شتى، وعباراتٍ سريانيَّةٍ غير مفهومة، ثُمَّ يدخُلها وحدهُ ويُغلِق عليهِ بابها، يلبثُ فيها قدرَ ما يلبثُ، وقد يعلو صوتهُ، فيبدو كأنَّهُ يتشاجرُ مع نفسِه أو يُناجي طيفًا مخفيًّا، ويخرُجُ منها زائِغ العينينِ، مزبد الفم، قد تعرَّقَ وجههُ واصطبغَ بِزُرقةٍ قاتمةٍ، وكأنَّهُ عائِدٌ لِتوِّهِ مِن الخوضِ في بحرٍ مِن السَّعير، وتلبَّستْ بهِ روحٌ غريبةٌ وتشنُّجاتٌ، وقد يعتريه إغماءٌ لا يفيقُ مِنهُ سريعًا، قد يطول لأكثر مِن يومٍ وليلةٍ، يفيقُ بعدهُ وقد تحقَّقَ مأربهُ وتمَّ مُرادهُ، فيُرسِل في طلبِ زبائِنهِ الذين يعودون لهُ مُجزلين عطاءهُ، كادَ يموتُ في إغماءةٍ استطالت وتجمَّدت أوصالُهُ، كفَّ بعدها زمنًا عن مُمارسةِ طقوسِهِ وخلواتِهِ، وتناسى مُتعمِّدًا حِفظ مفاتِح أقفالِه، لكِن سُرعان ما تخلَّى عن عزمِهِ، بعد أنْ تعافى، وأبرقَ لهُ كهلٌ كويتيّ برُزمةٍ نقديّةٍ مِن فِئةِ الدّولارات لفكِّ الرَّبطِ عنهُ مع زوجتِهِ الشَّابَّة الحسناء!!!

أمَّا الحُجرة الأُخرى فهيَ المُخصَّصة لاستِقبالِ زبائِنهِ، بابها لهُ ضلفتان طوليتان، اليمنى مثبّتة بمزلاجٍ أرضيّ (تِرباس)، أمَّا اليُسرى فهي القابِلةِ

للفتحِ والإغلاق، الحُجرةُ خاويةٌ منَ الأثاث، فرشها الحصى، تكسوه قطعة مِن سجَّادٍ قديم مُهترِئ، بادٍ عليها الاتّساخ، تقبعُ أسفل الجِدار على يسارِ الدَّاخِل، تكفي لجلوسِ اثنينِ متقابلين وجهًا لِوجهٍ يكادا يتماسَّان، "بشندي" مُستنِد بظهرِهِ للحائِطِ وضيفهُ.

بين يدي "بشندي" قطعة حديديَّة ثقيلة سوداء تُشبِهُ سندان الحدَّاد دونَ مطرَقة، يعقِدُ ويحلّ فوقها ربط الأزواج، وإناء فُخّاري لهُ قاعِدةٌ مُستديرة يرتكِزُ عليها، يعلوها عُنُقٌ اسطوانيٌّ، يصِلها بِفوَّهة أكثر اتّساعًا وعُمقًا (منْقَد)، يمتلئ بالقوالِحِ والفحم المُتأجِّج نارًا، لينطلِقَ مِنها الدُّخانُ المُلوَّن بلونِ البخورِ ورائِحتِه وطقطقة الشَّبَّة والعِطارة! على يمينِهِ بمُحاذاة رأسِهِ جالِسًا تجويفٌ مُربَّعٌ في الجِدار لا ينفذُ للنَّاحية الأُخرى (طاقة) يستخدِم قاعِدتهُ كَرَفٍّ، يضعُ فيها كُراتٍ مِن صوفٍ مُختلِف ألوانُهُ، وأوراقًا صفراء وأُخرى مُفَضَّضة، ومحبرة دواة يخترِق فاها قلمٌ مِن بوصٍ مشذَّب وريشة طويلة أعدتا للكتابة، على يسارِهِ على الأرض في مُتناولِ يدِهِ، صندوقٌ خشبيٌّ ضخمٌ مطليّ بِطِلاءٍ أخضر قاتِم قد تقشَّر مُعظمُهُ، فبدا مُبرطشًا بالأبيض العاجيّ، مُغلق بقفلٍ صدئ...

الحُجرةُ بِها كوَّةٌ علويَّة في مُنتَصفِ جدارِها الشَّرقيّ أسفل السَّقف، يُطِلُّ مِنها بصيصٌ مِنْ نورٍ، فتتسلَّلُ ذرَّاتُ الغُبارِ فوق أشَعَّة الشَّمسِ المتوغِّلة مِن الكوَّة الضَّيّقة كخيوطٍ دقيقةٍ.

و"بشندي" هذا مُشعوِذٌ قبطيٌّ طاعِنٌ في السِّنِّ مِن أصلِ أهل الجبلِ وقاطنيهِ الأوائِل، لا يذكُرُ سنين عُمرِهِ مِن تراكُم الأيَّام وتشابُهِها، أو رُبَّما يتعمَّد تغافُلها وتناسيها خوفًا مِن الحسد، يُقال أنَّهُ اجتازَ التِّسعينَ، احترفَ السِّحْرَ مُنذُ شبابه ورافق "عوض المسيديّ" عرَّاف المِلك السَّابِق الذي ذاعَ

صيتُه، وكان يتردَّدُ على استراحتِهِ في إسنا لإصلاحِ الشِّقَاقِ الذي امتدَّ بينهُ وبين جلالة المِلكة، لا يُمارِس "بشندي" دَجَلهُ إلَّا في وَضَحِ النَّهارِ قُبيل الغروب!! وجههُ أسود داكِن السَّواد، لهُ شارِبٌ أبيض لم يُعمِل فيهِ مقصًّا ولا شفرةً مُنذُ أعوام!! يكسو شفتهُ العُليا ويُخفيها، أنفُهُ معقوفٌ مُدَبَّبٌ، وعيناهُ غائِرتان على اتِّساعِهِما، يدورُ في بياضِ حدقتيهِما المُصفرّ بؤبؤ أسود حائِر غير ذي قرار، وكأنَّهُما تستطلِعانِ المغيبات في عالمٍ بعيدٍ لا يراهُ غيرهُما، وكأنَّهُ يُحملِقُ بهما في المجهول، حين يُثبِّتُ نظرهُ في أحدِ الجُدران الصَّمَّاء، يُتمتِمُ بشفتيهِ فلا تبدو إلَّا السُّفلى منهما زرقاءَ فاتِرة، بينما العُليا يغمُرها شعرُ شارِبِهِ الكثّ، يصدُرُ مِن زاويةِ فمِهِ اليُمْنَى رُغاء وزبدٌ، لا يُعنى بتجفيفِهِ، ويتطايرُ رذاذٌ مِنهُ في وجهِ مُحدِّثِهِ حينَ ينفُثُ طلسماته، ربعةٌ في طولِهِ يميلُ لِلقِصر، ممتلئ في أجزاء مِن جسدِهِ، بالغ النَّحافةِ في أُخرى، فلهُ كِرشٌ صغيرٌ، بينما ساقاهُ عجفاوانِ مهزولتانِ، لازالت بهِ قُدرة في الارتِكازِ عليهِما، في طريقِهِ لمنزِلِهِ القديم مقرّ أعمالِه، مُنطلقًا مِن مسكنه بالطابق الأرضيّ في عِمارته المُلاصِقة، كانت دارًا قديمةً لجيرانِهِ اشتراها منهم، وشيَّد مكانها عمارتهُ العاليَة رغم ضيقِ مِساحة شُققِها، فامتدَّت طوليًّا في طوابِق، بناها مِن مكاسِبِهِ في أعمال الشَّعوذةِ والسّحر، واحتفظَ بالدَّارِ القديمة التي هي مسقط رأسِهِ التي ولِد وعاشَ فيها زمنًا فقيرًا مُعدمًا قبل أنْ يبحثَ في مخطوطات السِّحر القديمة وفك الطَّلسمات، ويُلازِم "عوضًا" أُستاذَهُ الذي لقَّنهُ مبادئ صنعتِهِ، ثُمَّ عرَّافي الغجر، فأصبحَ يصنعُ أحجِبةً لا تخيب، حتَّى ذاعَ صيتهُ وقصدهُ اليائِسون مِن شتَّى البِقاع، بدءًا مِن الجنوبِ حتَّى القاهرة والإسكندريَّة، وكذا كثيرٌ من دول الخليج، جمعَ "بشندي" ثروةً هائِلةً، فأضحَى بعد عوزِهِ صاحِبَ مزرعةٍ وبهائِم وعقارات، وأموال مُكدَّسة بالبنوك، خصَّص دارهُ

القديمة بعد أنْ تركها على حالِها لممارسةِ أعمالِهِ، وحرَّم على آلِهِ دخولها أو الولوج إليها إلَّا بإذنِهِ، يحتفِظُ بمفاتِحها في سلكٍ نحاسيّ لا يُفارِقُ جيبَ جِلبابِهِ (سيَّالته) في صحوِهِ ومنامِه، بينما تركَ عمارتهُ مرتعًا لأهلِهِ، أمَّا هو فلا يبرحُ طابقها الأرضيّ مع زوجتِهِ "دميانة" التي كانت لا ترضَى عن كثيرٍ مِن أعمالِه، ينعمُ مُرتجى بأكثر طوابِقها التي عُنِي بزخرفتِها وزينتها، ومظاهِر الثَّراء والأُبَّهةِ في بِنائها وفُرُشِها وتجهيزِها، فخصَّصَ طابقًا لسُكناهُ مع زوجتِهِ وطِفليهِ، وخصَّص طابِقًا لضيوفِه الكثيرين، وطابقًا للولائِم التي لا تنقطِع، وموائِد لا تخلو مِنْ آكلين، فعائِلة "بشندي" اعتادت أكلَ لحم العجولِ الصَّغيرة طازجة، لم يمسسها الثَّلجُ أو يُغيّب في ثلَّاجة، فهو يُصبِحُ غير ذي قيمةٍ أو معدوم الفائِدة، ويُطلِقون على الذَّبائِح الصَّغيرة لقب (البَطْش). وطعمها لا يعدِلهُ طعمٌ آخر، كما أنَّهم لا يأكلون طيرًا قد احتُفِظَ بِهِ في ثلَّاجة فأصبحَ مُتجمِّدًا بائِتًا.

في حُجرةِ الطَّعامِ بالطَّابَق الثَّالِث مائدةٌ كبيرةٌ يُحيطها اثنى عشر كُرسيّ مِن كراسي السُّفرة، غير مائدةٍ أُخرى صغيرة في الحُجرة المُجاوِرة، في الحائِط على يمين الدَّاخِلِ لوحتانِ مُتجاوِرتان، إحداهُما لِفارِسٍ رومانيٍّ في لِباس الحربِ وخوذتِهِ يمتطي حِصانًا أبيض بادي القوَّة يرتكِزُ على قوائِمِهِ الخلفيَّة، يُمسِكُ الفارِس بيدِهِ حربةً يطعنُ بِها تنينًا ضخمًا فاغِرًا فاهُ، والصّورة الأُخرى لقدِّيسٍ كهلٍ يرتدي رِداء القساوِسةِ الأسود، تحيط رأسهُ ومنكبيه هالة مِن نور، يقبِضُ بيُمناهُ على عصا غليظةً يعلوها الصَّليبُ، وخلفهُ صحراءٌ شاسِعةٌ، الأوْلى للشَّهيد العظيم "ماري جِرجس" الذي قطَّع الرُّومان أوصالهُ ووزعوها في أرجاء البلاد، فبُنيَت موضِع كُلّ قطعةٍ مِن جسدِهِ كنيسة أو دير، والأخرى لأحد البطارِكة المُقدّسين ذوي المُعجِزات...

لم يكُن مُرتجى كأبيه، كان مُثقفًا واعيًا رغم أنَّهُ لم يستكمل تعليمهُ، يمتلِكُ سيَّارات أُجرة يُجيلها بين الجبلِ وكوم أمبو وقنا، ويُديرُ مشروعات استثمارِ أبيهِ الكهل، شاب مُمتلئ بالعنفوان جسيمٌ لهُ صدرٌ مُتَّسِعٌ عريض وعضلاتٌ مفتولةٌ بارِزةٌ، شارِبهُ أسودٌ كثّ، لكنَّهُ مُشَذَّبٌ لا يجورُ على شفتهِ العُليا، بادي نحول الشّعر الذي انحسرَ عن مُقدِّمة رأسِهِ حتَّى قرنيهِ، جميل الوجهِ مليح التَّقاسيم، وجههُ مُبتسِمٌ وأنفهُ معقوفٌ كأبيه، وعيناهُ سوداوانِ كعينيّ أمِّه.

لا يرتدي سوى الزِّيّ الإفرنجيّ الغالي، لم يلتبِس يومًا بِجلبابٍ أو عمامةٍ، لم يكُن يأبَهُ لعملِ أبيهِ ومِهنتهِ أو يعترِض عليها أو يُبدي مِنها تبرُّمًا أو ضيقًا، بيد أنَّها لم تستهويهِ فينخرِط معهُ فيها، فهو لا يرضى عنها في قرارةِ نفسِهِ، وكأنَّهُ في صراعٍ قائِم بِذاتِهِ بين عملٍ هو سِرّ ما يرفلون فيهِ مِن نِعمةٍ، وشعور آخَر ينتابهُ مِن حينٍ لآخر، أنَّ جُلَّ رِزقِهِم مشكوكٌ في حلِّهِ، فهو مِن قبيل أعمال الشَّعوذةِ والاحتيال التي يخيبُ مُعظمها، بعد أن يخسِرَ أصحابها كثيرًا مِن النَّفقاتِ على أعتابِ أبيه، وقد يصلحُ بعضها حين يلتجئ "بشندي" لِسحرِهِ الأسود المُدمِّر الرَّهيب.

حين يفتح صندوقهُ الخشبيّ ويستخرِج كتابًا اصفرَّت أوراقهُ وتآكَلت حوافُّهُ مِن القِدَم، مُنكبًّا على صفحاتِهِ كأنَّهُ يندسُّ بين دفَّتيهِ يُجيلُ ناظريهِ بين أسطُرِهِ، لا يفصِلهُ عنها سوى شبر أو أقلّ، مازًّا بإصبعهِ على الكلِمات، يُكرِّرُ بعضها في تمتمةٍ وهمس، لا تدري بأيّ لُغةٍ ينطِقُ ولا متى ينتهي، رغم أنَّهُ بالكادِ يفُكُّ الخطّ، فلا يقرأُ إلَّا لمامًا، فضلًا عن إبصارِهِ الذي خَفَتَ على مدارِ السِّنين.

أو يُعمِلُ مفاتِحهُ الكثيرة في أقفال الحُجرة السَّوداء المُغلقةِ، فيجتازها مُرتاعًا في وضحِ النَّهار، يغلِقُ عليهِ بابها فيلبثُ فيها ساعةً أو أقلّ، ثُمَّ يخرُجُ

مِنها تتملَّكهُ حالة أخرى، وتشنُّجاتٍ وإغماء طويل، فيربِط الزَّوج بِرباطٍ خفيٍّ يجعلهُ مرخِيّ الذَّكَر أو زاهِدًا في امرأتِهِ، وقد يُخيَّلها قِردًا أو مسخًا دميمًا فلا يقْربها، أو يسُدُّ فرجها عليهِ، وكأنَّهُ دون فتحةٍ أو رانَ عليهِ حجرٌ أصمّ، فيُفسِدَ ما بين العروسينِ ويجلِبُ عليهما الفُرقةَ والخراب حين يُلقي بِجُزءٍ مِن أثرهما، أو قِطعة مِن ثيابِهما في موقِدِهِ المُشتعِل (المنقَدْ)، فيُفرِّق بينَ الأحباب أو يجلِبهُم، ويُبدِّل ما انتظمَ مِنْ حياتِهم، وإنَّما وضعَ السّندان الحديديّ الغليظ إلى جِوارِهِ لإتمامِ هذا العمل الخبيث!

حالةٌ نفسيّةٌ تنتابُ مُرتجى تجعلهُ يُراجِعُ نفسهُ، مُقدَّساتهُ وعملُ أبيهِ الذي لا ترضى عنهُ الكنيسة، هل يطيبُ لهُ التَّمتُّع بِثروةٍ يعرِفُ منبعها؟

لم يملِك اختيارهُ مِن قبل حينَ نَمَى في هذِهِ البيئةِ، أكلَ وشرِبَ وتنعَّمَ في رَغَدِ والِدِهِ صغيرًا لم يعقِد ناصيةَ قرارِهِ، لم يُدرِك أيَّام الفاقة وشظف العيش.

أمَّا اليوم وقد نضجَ عقلُهُ وأضحى يملِكُ زِمامَ أمرِهِ، وأضحَتْ لديهِ القُدرة على التَّفريقِ بين الغثِّ والسَّمين، المباح والمرذول، واللقمة التي تمرّ على مصائِب النَّاسِ، وخرابهم.

لِماذا لم يتبرَّم أو يضجّ فيرفُض هذِهِ الحياة؟

ألأنَّهُ وحيدُ أبيه ووريثُهُ لا في أعمالِهِ وسِحرِه اللذينِ أقصاهُ عنهما صغيرًا، بل في ثروتِهِ ومُمتلكاتِهِ؟

أيكونُ داعي المالِ أحرى بِالإجابةِ؟ حينَ تُصمُّ الآذانُ عن داعي الضَّمير النَّابِض مِن الأعماق؟!

لعلَّ ما نشأ فيهِ مِن تَرَفٍ ولذَّةٍ أوهنَ عزمَ ضميرِهِ، فما عادَ يتساءَل عن آلام المُعذَّبين مِن ضحايا أبيهِ، وتغاضَى عن ذلك في تَرَفٍ ميَّزهُ عن أقرانِهِ مِن أقباطِ الجبلِ الفُقراء، فجعلهُ محطُّ أنظارِهِم جميعًا صديقًا للأقباطِ ومَن على غيرِ مِلَّتِهِ!

تمنَّوا جميعًا أنْ يحظَوا بِصُحبتِهِ، لِيس فقط بسببِ ما حباهُ بِهِ الزَّمانُ مِن ترَفٍ ورفاهيةٍ، بل لشخصيَّتِهِ المُميّزة المُحِبَّة للجميع، وصِدقه وإخلاصه في صداقتِهِ، يُعطي لِرِفاقِهِ أفضلَ ما يمتلِك عن طيبِ خاطِرٍ، لا يتوانى عن مُحتاج ولا تتقاصرُ يدهُ عن مدِّ يدِ عونٍ لِطالِبٍ، مائِدتهُ حافِلة بِأطايبِ الطَّعام يأوي إليها ضيوفٌ لا ينقطِعون، فضلًا عن قُربِهِ مِن الكنيسةِ ومشاكِلها ورُهبانها، الذين لم يُحمِّلوهُ يومًا تبِعات عملِ أبيهِ وعِنادِه، فامتنعَ عنها بعد أنْ حُرِّمَتْ عليهِ، أمَّا مُرتجى فيُعدُّ مِنْ خيرةِ شبابِها ورُعاتِها، يتواجدُ بِها دومًا، ويُقدّمُ في المراسِم والأعياد، فيقومُ على خدمةِ الحضور وتوزيعِ المِنحِ على فُقراءِ شعبِها، وكثيرًا ما يُقدِّم النّذور على هيئةِ خِرافٍ سمينةٍ، وهِباتٍ تطوّعيَّةٍ لدير "ماري جرجِس" الشّهيد العظيم الذي يتَّخِذهُ مثلًا، فأسمَى ولدهُ الأوَّل "جرجس" تبرُّكًا باسمِهِ...

قادَ شباب الكنيسةِ في اعتراضِهِم على ترسيم القُمُّص "اصطفانوس" أسقُفًا لكنيستِهِم خلفًا لوالِدِهِ الأب "مكاريوس"، كانوا يُصِرُّون على رفضِهِ، وتمسَّكوا بأسقُفٍ آخر شديد الزُّهد عظيم العلم مِن مغاغة، فهو أوْلَى بهذا الحقِّ مِنهُ، فلا يحِقُّ أنْ ينولَ هذا الشَّرَف أحدٌ لِمُجرَّدِ بُنوَّتِهِ لأسقُفٍ عظيمٍ وإنْ كانَ مِن أهلِ الجبلِ والجِوار!!!

استرعى انتباهَ الجميع في تشبُّثِهِ برأيِهِ وجِهادِهِ الدّءوب في سبيل الكنيسة والمِلَّة.

أمّا والِدهُ فلم يعبأ يومًا بشيءٍ مِنْ ذلِك، حتَّى أنَّهُ في زياراتِهِ المعدودة للكنيسة كان يتوجَّه للصَّلاةِ دون أنْ يُقبِّلَ يد الكهنة، أو يطلُب البركة مِنْ أحد، ويتجاهلهُم لحدٍّ كبيرٍ!

كانت مقدِرتهُ على السِّحرِ لا تخفى على كثيرين شهِدوهُ وهوَ يُحملِقُ في الحصى فتتراقص أمامهُ، أو ينظُر للأوراقِ والكُتبِ مِنْ على البُعدِ، فتتطاير مِنْ نظرتِه، وكأنَّ مغناطيسًا خفيًّا يـتحكَّم فيها، وبتمكّنٍ هائِلٍ يستطيع فكّ طلسماتٍ وتعقيداتٍ شيطانيَّةٍ لحياةِ بعضِ النَّاس، يستعين في كُلِّ ذلِك بِسحرِهِ الأسود الرَّهيب الذي لا يخيبُ، فيُسخِّر الشَّياطين لأذى فُلانٍ أو درءِ الأذى عن آخر بعد أنْ يُجزِلَ لهُ العطاء!

كانوا يستسلِمون لهُ استسلامَ العبدِ لا لسيِّدِهِ، بل لمعبودِهِ، يقتنِعون بِهِ تمامَ الاقتِناع، ورُبَّما استغلَّ هذا الخضوع في التَّلاعُبِ بإحداهُنَّ إبَّان شبابِهِ المُنصرِم، في غمرةِ يأسِها واستِسلامِها لهوى شيطانِها اللعين، واستِبداد الأحزانِ بنفسِها بعد أنْ تراكمت بِداخِلها، حين يرى مِنْ حُسنِها ما يستثيرهُ، فيُغريهِ بِها شيطانهُ، فينفرِد بِها لِتتعرَّى ليكتُبَ لها على إحدى مكامِنِ الشَّهوةِ فيها بِمِدادٍ خَفيّ كما يدَّعِي، بينما يُجيلُ يدهُ العجفاء في جسدها الأملس وتُربتها البَضَّة، تاليًا تعاويذهُ وتمتمتهُ المُخيفة، على مواضِع لا يجترئ عليها سِوى الأزواج، فيُسلمها شيطانهُا ليديه يعبثُ بِها بِحُرّيّةٍ، فينتهِكُ أرضًا مُحرَّمةً، ويجوسُ في تِلالٍ ووديانٍ، تُسلِمها همهمتهُ لِخَدَرٍ وأوهامٍ، حين تتحوَّلُ عيناهُ، ويُزبِدُ فمهُ ويندى العرقُ مِن جبينِهِ، فيناجي في حضرتِها أرواحًا مجهولة تتراقصُ أمام عينيهِ المُخيفتينِ، بألقابٍ مُفزِعةٍ لجانٍّ وأقران، فلا يسعُ المسكينة سوى الاستسلام التَّامّ لكُلِّ أوامِرهِ دون أن تُفضي بسرِّهِ خارِجًا...

ساحة الشّيخ المُباركة

ينزِلُ أحمد الزَّناتي مِن سيَّارةِ أُجرةٍ متوكِّئًا على عُكَّازِهِ، يعاونهُ أحدُ الرُّكَّاب مِن داخِلِ السَّيَّارة، بينما يتوكَّأ على ساعِد آخر سبقهُ بالنّزول، حتَّى لا يختلّ توازُنهُ عِند هبوطِهِ مِن صندوق السَّيَّارة الخلفيّ عالي الدَّرَج، ظلَّ بعدها يُجاهِدُ السّير، متوكِّئًا على عُكَّازِهِ يتفصَّدُ العَرَقُ مِن جبهتِهِ، مُتجشِّمًا المشقَّة في خطواتِهِ نحو السَّاحةِ المُبارَكة، عند اجتيازِهِ بوَّابَتها البرحاء التي لا تنغلِقُ استشعرَ كدأْبِهِ دومًا، اجتيازهُ عَرَصات الدُّنيا، فخلَّفَها وراءهُ وطوتهُ أسوار الجنَّة، يستشعِرُ روحانيَّةً خاصَّة في تِلك السَّاحة المكشوفة التي تكتسي بِضوءِ النَّهار، وكأنَّها قطعة طاهِرة مِن الدُّنيا تغمرها شمسُ الطُّهر والسّكينة، بينما يغمُرُها ضوءٌ نابعٌ مِن مصابيح صفراء لأعمِدة إنارة وأضواء أُخرى انتثرتْ في أرجائِها، فانعكس ضياؤها على الحوائِط المطليَّة بالأخضر، فأضفى عليها ليلًا روحانيَّةً وجلالًا، فجعَلَهَا أكثرَ بهاءً وهيبةً ووقعًا في النَّفْسِ لا يفنى.

كان أحمد الزَّناتي كوالِدِهِ الرَّاحِل أحد مُريدي الشّيخ الطَّاهِر وأُسرته الذين ينتَسِبونَ للحُسين بن عليّ رضي اللهُ عنهُما، أكَّدَت ذلِك صحيفة أنساب موثَّقة مِن السَّادة الأشراف مُعلَّقة في مسجِد السَّاحةِ جِوار الضَّريح، يرتادُ ساحتهم في أُمسياتٍ كثيرةٍ ينعمُ فيها بِالبركة التي تفيضُ بِها روحهُ وهو يُقَبِّلُ يد الشّيخ...

لازالَ يذكُرُ وهو يترنَّحُ فوق عُكَّازهُ الذي يتأبَطَهُ ضامًّا عليهِ باطِن ذِراعِهِ، في السَّنوات الماضيَة قبل إصابتِهِ، حين أعجَزَهُ توغُّل الليل عن وسيلةٍ تُبلِغُهُ ساحةَ الشّيخ النَّائيةِ في الجبلِ الغربيّ، التي تبعُدُ أكثرَ مِنْ سبع كيلومترات عن حاجِرِ الظفَّاريين، وغلَبتهُ الرَّغبةُ والشّوقِ لزيارةِ الشّيخِ، وكأنَّ نِداءً داخِليًّا

يعلو صداهُ في جوفِهِ يأمُرهُ بالمُثول الفوريّ بين يدي الشّيخ الطَّاهِر وفي حضرتِهِ...

كان يُحِسُّ رغمَ كونِهِ مِنْ عائِلةٍ لا ترقى لِشأنِ عائِلاتِ الجبلِ بدناءةِ منزِلتِهِ، فهو مِن بني زرار، تِلك القبيلة العربيَّة التي تخلَّفَت عن ابن العاص يوم فتح مصر بعد اجتيازِهِ المساعيد، فأسموهم (جمسه) لوصولِهِم في الليل بعد انتهاءِ المعركة.

كان "أحمد" مدفوعًا بِفطرةٍ أصيلةٍ ونيَّةٍ خالِصةٍ في حُبِّهِ لشيخِهِ وولعِهِ بِهِ، وليسَ حِرصًا مِنهُ على إزاحةِ وصمةِ الجُبنِ والتَّخلُّفِ التي أُلصِقَتْ بِهِ وبعائِلتِهِ مُنذُ القِدَمْ!

أو أرادَ أنْ يُثبِت للجميعِ أنَّهُ أمضَى عزيمةً وأجرأ طويَّةً مِنهُم خِلافَ ما يدَّعون، فهو خالِص المحبَّة في عزمٍ ومضاءٍ، شُغِفَ قلبهُ بالهوى الصّوفيّ فأغرقَ في حُبِّ شيخِهِ وتلبَّسَ قلبهُ بالوجدِ، فإذا بِهِ يستعذِبُ الألمَ في استمتاعٍ، ويخوضُ المخاطِرَ غيرَ مُستشعِرٍ وجلًا ولا مُعاناة، وكأنَّ ما يُكابِدهُ مِنْ مشَقَّةٍ طريقٍ وسيلة كُبرى لإزاحةِ أحمالٍ مِن همومٍ وآثامٍ قدْ عَلقتْ بِذاتِهِ وأوهَنَتْ قواهُ، حتَّى إذا أنهكَ جسدهُ وأرهقهُ تخلَّصَ مِنها كُلَّها، كمَنْ يحمِلُ جوَالًا مِن مِلحٍ يُفضي بنفسِهُ معهُ إلى النَّهر ليُذيبَ مِنهُ ويُخَفِّفَ مِنْ حِملِهِ ومُعاناتِهِ! رُبَّما كانَ الطَّريقُ عِند الجبليّ أشبهَ بِذلِك حين دلَفَ في الجبلِ النَّائي، مُنجشِّمًا مخاطِرَ الليل والجبل ودوابّه المُختبِئة في طيّاتِ رِمالِهِ، الكامِنة تحت براثِنِ صخرِهِ مِنْ عقارِب وحيَّاتٍ وطريشةٍ، وهو مِن أخطرِ أنواعِها، لهُ ذيلٌ يُصدِرُ صليلًا كالجرَسِ تُصدِرهُ الحيَّةُ قُبيل أنْ تتوثَّبَ قافِزةً في الهواء، لِتلدغَ الضَّحيَّةَ لدغةً قاتِلةً، رُبَّما يكونُ البُرءُ الوحيدُ مِنها هو بتر العضو المُصاب فورًا، قُبيلَ أن تتسرَّب الغرغرينة إلى الجسدِ كُلِّهِ، لم يعبأ أحمدُ بهذا ولا بِالذِّئاب الجائِعة

شديدة الشَّراسة، مُتحفِّزة الأنيابِ للّحمِ البَشريّ، ولا بلسعات العقارِب السَّوداء القاتِلة، ولا الصَّفراء شديدة الإيلام كأنَّها لسعُ سياطٍ مِن جهنَّم حين يغوصُ الملدوغُ في بحرِ قيئِهِ المُفزِع الرَّهيب، مُختلِطًا بِعرقِهِ، وارتجافة الجسدِ كُلّه وتشنُّجه مع آلامٍ تفوقُ الاحتمالَ لا تتوقَّف إلَّا بعد تخلُّص الجسدِ مِن السُّمِّ مع رقي "الرّفاعي" وتمتمتِهِ.

سارَ "أحمد" مُنتشيًا لا يعبأُ بشيءٍ مِنْ هذهِ الأخطار في دوحةٍ روحيَّةٍ خاصَّة، ذلَّلتْ لهُ الصِّعاب وصوَّرَتْ لهُ المخاطِرَ نُزهةً لطيفةً مُمتِعةً، تبلُغُ أوجها عند المُثول بين يدي الشّيخ الطَّاهِر، وكأنَّهُ تسربلَ في غُلافٍ روحيٍّ يعصِمهُ مِنَ الأذى في طريقٍ وعِرٍ لم يخشَ فيهِ إنسًا ولا جانًّا، يتلو ما تيسَّر مِن آيات القُرآنِ، وأذكارًا وأورادًا عهِدَ لهُ بِها الشّيخُ، تذكَّر ليلتها حين وصل السَّاحةَ الطَّاهريّة لاهِثًا مُنهكًا تُكلِّلُ وجههُ ابتِسامة الرِّضا بعد أن استنفذتْ قواهُ الرِّحلة الشَّاقَّة ومُجابهة الأخطار، حُبًّا في القُرب وذوبانًا في حضرةِ الشّيخِ ونورانيتِهِ، تذكَّرَ حينَ فغرَ الشّيخُ لهُ فاهُ يفتر ثغرُهُ عن ابتسامةٍ انفرجتْ معها أساريرهُ، فهشَّ لهُ وقرَّبهُ في مودَّة الأبِ الحنون، وكأنَّ وجههُ الأسمرُ وعيناهُ اللتانِ توارتا خلف نظّارةٍ طِبّيَّةٍ سميكةٍ إطارها أسودٌ عريضٌ، تُشِعَّانِ نورًا قاهِرًا، غمرهُ كُلّهُ، وقال لهُ: أنتَ مِنَ الليلة ولَدنا "أحمد الجبليّ" لا "الزَّناتي"، يكفي سيرك في الجبلِ وحيدًا في ظُلُماتِ الليلِ، ولم تنتظِر الصَّباح لِتبوءَ بجلال الحضرة وتحظى بالقُربِ والتَّجلّي رغمَ فقرك وحاجتك، وأسهَبَ الشّيخُ واسترسلَ في حديثٍ يخُصُّهُ "أحمد" بالذَّات حين أجلسهُ جِوارهُ على الدِّكَّة ولفَّ ذِراعهُ حول عُنُقِهِ يطوِّقهُ، وقال لهُ في ثبات مَنْ يطَّلِعُ على صفَحاتٍ خفيَّةٍ غيبيّةٍ أو يستقرِأ القادِمَ مِنَ الأيَّام بعينٍ ثاقِبةٍ لا تُخطئ،

فكأنَّ قلبهُ قد أُزيحت عنهُ الحُجُب بِبركةِ الزُّهدِ والتَّصوّف، فأصبحَ العالمُ كُلَّهُ ماضيهِ وحاضِرهُ بيّنٌ جليٌّ.

ألم تُكشَف عن الإنسان أغطيةٌ وحُجُبٌ أوان ساعةِ انسلالِ روحِهِ، يستحضِرُ فيها المغيّبات ويرى ما لا يراهُ غيرُه، حين يشرعُ نافِذ بصيرتهُ في المكنون ماضيًا والمجهول المخبوء مُستقبلًا، فينفذ إليهما ببصيرتِهِ المُنطلِقة كشُعاع الشَّمسِ الذي يخترِقُ السُّتُر والأخبية، فيتسلَّلُ داخِل مضارِب الخيام ومِن خلالِ كوَّةٍ أو شُبَّاكٍ حتَّى الثُّقب الصَّغير ينفذُ مِنهُ، فيُضيء ويُدفئ ويُبدِّد الوَحشةَ والخوف والمجهول.

نعم... كانَ الشّيخُ الطَّاهِر قلَّما يُخطئ حدسهُ أو يخيب ظنُّهُ بإنسانٍ، فتخونهُ بصيرتهُ، ولعلَّ صفاءَهُ مع نفسهِ وزُهده عن بريقِ الدُّنيا التي تأتيهِ خاضِعة تحت قدميهِ، فما ينال منها، بل يأبى ويتعفَّفُ في شمم مَنْ يتلاشى في معيةِ الله وملكوتِهِ وحضرتِهِ، بين أحبابِهِ الصَّالحين مِن أتباع ومُريدين، ولعلّ ما حباهُ الله بهِ مِنْ فِطنةٍ وتوغُّلٍ في قِراءة النَّفس والباطِن، وفراسته التي تُضفي على روحانيّتِهِ وقُربِهِ مِنحةً إلهيَّةً أُخرى جعلتهُ وقد كُفَّ بصرُهُ في أيَّامِهِ الأخيرة جليّ البصيرة، مُتَّقِد الذِّهن ثاقِب الإحساس، ذائِبًا في ملكوت الخالِقِ وصفائِهِ وحُبِّهِ وحُبّ الخلق أجمعين...

كلِمتهُ نافِذة على رِقابِ أهلِ السَّهلِ والجبلِ، يهيمون بِهِ توقيرًا ومحبَّةً، يُعلِّقون صورتهُ في كُلّ دارٍ ومطعمٍ وحانوتٍ، يقصُدُهُ كُبراءُ قومِهِ وإقليمِهِ، لا يُخالِفونَ لهُ أمرًا ولا يرُدُّونَ لهُ طلَبًا، وجميعها في خدمة النَّاسِ وقضاء حوائِجِهِم، ولعلَّ سُلطانهُ الدّينيّ الهائِل جعلَ ساحتهُ مقصِدًا للوزراء والمُحافظين والكُبراء وملجأً للعجزةِ والمُستضعفينَ والفُقراء، الكُلُّ يلوذُ

بِساحتِهِ راجينَ المددَ مِن نبعِهِ الصَّافي الذي لا ينضب ولا يشوبُهُ كَدَرٌ ولا يخيبُ فيهِ أو مِنهُ رجاء...

شيَّدوا لهُ مسجِدًا وأحاطوا بيتهُ بِساحةٍ فسيحةٍ هي كعبةُ القاصِدين ومنارةُ السَّالكين.

قال الشّيخُ الطَّاهِرُ لـ"أحمد" وهو يُحيطُ عُنُقَهُ بِذِراعِهِ كَمَن يُقلِّدهُ طوقَ النَّجاة، أو يضعُ في رقبتِهِ إكليلَ الفخر والسّؤدد:

أنت مِن الآن "أحمد الجبليّ" لأنَّكَ دلَفتَ إلينا مُتَجشِّمًا كُلَّ الصِّعاب في حلكة ظلامِ الجبلِ ومشقَّتِهِ، مدفوعًا للخيرِ دائِمًا وأبدًا، وستكونُ يومًا بإذنِ العلَّامِ الخبيرِ عقبة كئودًا في طريقِ الدَّمِ الذي لن يسيلَ مادُمتَ ثابِتًا على قدمين حتَّى تَخِرَّ على الأرضِ رغمًا عنكَ حيًّا لا ميّتًا.

راقَت لـ"أحمد" كلِماتُ الشّيخِ دون أنْ يستوضِحها أو يستكشِفَ معناها فيُدرِك تفسيرها، يكفيهِ فخرًا أنَّها في معرضِ مدحِهِ وتكريمِهِ، وقد كانت عادةُ شيخِهِ التي لا تفتُرُ أنْ يُلقي بِالأسرارِ في وجهِ يصطفيهِ، لا يُبدي لها إيضاحًا وإنْ سألهُ المُتلقّي، فما عليهِ سِوى انتظار ما تكشِفهُ لهُ الأيَّام القادِمة مِن مستورٍ، تفضح لهُ مخبوء المعاني وراءَ كلِماتِ نبوءة الشّيخ وأسرارها في صورةِ بُشرى أو نذيرِ شؤمٍ ووعيدٍ.

هل كان الشّيخُ يقرأُ الغيبَ ويتوغَّل بِبركتِهِ في استكشافِ المُستقبل والمجهول، كما قرأَ في وجهِ "أحمد الزّناتي" ما تجشّمهُ مِن مخاطِرِ رِحلتِهِ فور دخولِهِ قبل أن يجلِسَ دون أن يُفصِحَ "أحمد" عن سِرِّه لإنسانٍ؟

سعِدَ "أحمد" بلقبِهِ الجديد وكأنَّهُ مِنحةٌ مِنْ شيخِهِ أو خُلعة، أعجبهُ أنْ يتسربَلَ بِها، وكأنَّها تُخلِّصهُ مِنْ رِزءٍ ثقيلٍ وحِملِ سنواتٍ طوالٍ مِن الاضطهاد

المعنويّ ونعت قبيلته بالخنوعِ والذِّلَّة، وكأنَّهُ ينحدِرُ مِن سُلالةٍ كُتِب على أبنائها أنْ يتجرَّعوا إهاناتهم في ابتِسامٍ وخنوعٍ وكأنَّهُم ما خُلِقوا إلَّا لِهذا.

أجَل... حرَّرتهُ كلِماتُ الشّيخ وبُشراهُ ورفعتهُ حتَّى كادَ عُنُقهُ أنْ يُطاوِل السَّماءَ، وتتنسّم رِئتاهُ أريجَ العِزَّةِ والفخارِ بعد طولِ إهانةٍ.

راقتْ لهُ التَّسمية وكأنَّهُ ولِدَ الليلةَ مِنْ جديدٍ، فهي نفحةٌ مِن بركاتِ الشّيخِ الذي ودَّ لو قضى على أعتابِهِ فاكتنفهُ في صدرِهِ وغسَّلتهُ يداهُ الطَّاهرتان.

كان "أحمد" طويلًا شديد سواد البشرة كأنَّهُ صخرةٌ بازلت صمَّاء، لا تبرحُ العمامةُ رأسهُ، ضخمَ الكراديس كأنَّ كتفيهِ ورُكبتيهِ تِلالٌ صخريّةٌ في كِيانٍ استفاضَ طولًا وعرضًا، وجههُ مُتجهِّمٌ وعيناهُ شديدتا الضّيقِ كأنَّهُما ثُقبُ مخرزٍ على جانِبيهِما ممَّا يلي سوالِفهُ آثار ندوبٍ لشقوقٍ طوليَّةٍ أقلّ طولًا مِن إصبعِ الكفِّ، كانوا يُحدثونها عامدينَ في وجوهِ صِغارِهِم قديمًا تداويًا ووقايةً مِن أوبئةٍ وأمراضٍ.

ينبُتُ شعرُ لحيتِهِ في أسفل ذقنِهِ، عدا قليل مِنها مُبعثرة في وجنتيهِ، أنفهُ كبيرٌ كأنَّهُ صخرةٌ ناتِئةٌ، قويّ البُنية سليم البدنِ، حتَّى أصابَ قدمهُ مِن الحاج سُلطان أبو ظفَّار ما أصابها يوم مقتلِ "تريزا".

أَسلَمَتْ "أحمد" ذِكرياتهُ المتوكِّئة على الماضي كتوكئِهِ على عصاهُ إلى مجلِسِ ولدِ الشّيخِ الطَّاهِر وبكريِّهِ وخليفتِهِ الشّيخ "إسماعيل" بعد أنْ وافت الشّيخ الطَّاهِر المنيَّة بعد أنْ جاوزَ التِّسعينَ، وضمَّهُ ضريحٌ في مدخلِ السَّاحةِ مُلاصِقٌ لمسجِدِهِ...

كان أتباعُهُ يعتقِدونَ اعتِقادًا جازِمًا بِحلولِ بركة الشّيخ الطَّاهِر في عقِبِهِ، لِذا تبوَّأ الشّيخُ "إسماعيلُ" مكانة والِدِه وحذا حذوهُ؛ لذا فهُم يلتمِسونَ

البركةَ مِن تقبيلِ يدِ الشّيخ "إسماعيل" وإخوته ونسلهُم الذّكران ولو كانوا أطفالًا، لِمَ لا والسُّلالةُ المُباركةُ تُتوارثُ بركتها وتحِلُّ في أولادِهِم جيلًا بعد جيلٍ مِن لدُن ابن الأكرمين الشَّهيد "الحسين" رضيَ اللهُ عنهُ لِسُلالة الشّيخ "إسماعيل الطَّاهريّ".

لذا فهُم يقصدون السَّاحة للتزوُّدِ مِنْ بركاتِ الشّيخِ ومدَدِهِ وخليفته مِنْ بعدِهِ الشّيخ "إسماعيل"...

تضُمّ السَّاحة المُحاطة بِسورٍ منزِلًا يُشبِهُ الـقـيـلا، يشغلُ طابَقَها السُّفلي مطبخٌ كبيرٌ وبِضعُ حُجُراتٍ لِلضّيوف المغترِبين، ومضيَفَةً فسيحةً للاستِقبال، أمَّا الطابَقان الآخَرانِ فيسكنُهُما ولدا الشّيخ الطَّاهِر مع أسرتيهِما، الأوَّل للشّيخِ "إسماعيل" خليفته الذي نالَ قسطًا وافِرًا مِن التَّعليم، فالتحقَ بوظيفةٍ حكوميَّةٍ مرموقةٍ تدرَّجَ فيها حتَّى تبوَّأ أعلى سُلّمها، ولم يتخلَّ عنها حتَّى بعد خِلافةِ والِدِهِ في المشيخة، والثَّاني للدّكتور "سلامة" وهو أستاذٌ نابِغة في كُليَّةِ أُصولِ الدِّينِ يقطُنُ القاهِرة بعيدًا عن زوجتِهِ وأبنائِه، إلا أنَّهُ يزور بلدتهُ كُلَّ أُسبوعٍ رغم مشاغِلِهِ الكثيرة، وكأنَّهُ آثَرَ أنْ يترُكهم في أجوارِ بركةِ والِدِهِ كالوتدِ يجذِبهُ دائِمًا لنُقطةِ ارتكازِه، حتَّى يعودَ دومًا إلى جذورِهِ يخلعُ رداءَهُ المدنيّ ليرتدي الجِلباب والعمامة الطَّاهريَّة.

تبدأ السَّاحة الفسيحة بِمسجِدٍ أقصى اليمين يلاصِقهُ ضريحُ الشّيخ الذي تعلوهُ قُبَّةٌ خضراء، يقصدهُ المُحبُّون تلمُّسًا للبركة بعد فراغِهِم من أداء الصَّلاة وحلقاتِ الذِّكر في المسجِدِ الطَّاهريّ، تُجاوِرهُ صيدليَّة كما يدَّعون، وهي في الحقيقة محلّ عِطارة مُتوارَثٌ بِهِ أنواعٌ لا حصرَ لها مِنْ نباتاتٍ نادرةٍ وغريبةٍ، مجلوبة مِن السّودان، وكذا الأنواع المألوفة كالقرُنفُل والمستِكة والجاوا والشَّمردل والزَّنجبيل، يُعْنَى بِها أحدُ خدمِ الشّيخ الطَّاهر منذُ أمدٍ بعيدٍ، بعد

أنْ لازمَهُ زمنًا فتعلَّمَ مِنهُ مهارةَ توليف الأعشابِ ومزجها بكميّاتٍ ومقادير مُحدَّدة سريَّة ورِثها الشّيخُ الطَّاهِر عن أجدادِهِ وعلَّمها خادِمهُ مِصباح الذي شرِبَ مِنهُ العِلمَ وأسرار تراكيبِهِ.

كان الشّيخُ في بدايةِ حياتِهِ عطارًا ماهِرًا توصفُ تركيباتُهُ لِبعض المرضى والمُتألمين، فتُساعِد في شفائِهِم مِنْ أدواء كثيرةٍ، رُبَّما تكمُنُ بركتها في إلهامِهِ الشَّخصيّ وتوفيقِهِ وروحانيتِهِ.

خُصِّصَ الطَّابق الأرضيّ لإعداد الطَّعام وتجهيزِهِ لروَّادِ السَّاحة ومريدي الشّيخ وآلِه، مِن ملتمسي البركةِ والقُرب، أمَّا السَّاحة الفسيحة المكشوفة فتتراصّ فيها الأرائِك الخشبيَّة الضَّخمَة العتيقة المؤلَّفَة مِن قطعٍ خشبيّةٍ كبيرة مُغطّاة بقطعٍ مِن السَّجَّاد، بينما تتراصّ على مُتَّكئها الخلفيّ مِنْ جهة الظّهرِ مساند طوليَّة محشوَّة قُطنًا تضمنُ لظهرِ الجلوس مُتكئًا مُريحًا، تُرصُّ قُبالتها الموائِد في صفوفٍ طوليَّةٍ، وتوضَعُ عليها أصنافٌ لا تتبدَّلُ كثيرًا لوجباتٍ مُشتهِرةٍ في هذا الأقليم صيفًا وشِتاءً، كالفاصوليا البيضاء والويكة التي هي مهروس البامية ممزوجة بالسَّمن بعنايةٍ شديدةٍ تجعلها ليّنة القوام كالسَّائِل، والسّخينة وهي قطعُ الرُّقاق المغموس في ثريدِ مَرَق اللحم مُضافًا إليهِ صلصة الطَّماطِم مع البصل المُحمَّر، مع الأرز والملوخيَّة وقطع اللحم أو الدَّجاج والخُبز الشَّمسيّ... الجميعُ يأكُلُ لينالَ مِنْ بركةِ الشّيخ والطَّعام المُعدّ في بيتِهِ الممزوج بعبقِهِ ونسماته.

لم ينسَ ولدا الشّيخ ما وصلوا لهُ مِن مناصِب رفيعةٍ راقيةٍ... طقوس السَّاحةِ وعادات الشّيخ مع مُحبيهِ، بل واصلوا ما ابتدأهُ وحذَو حذوهُ، ما منحهُم خصوصيَّة، وأضفى عليهِم هيبةً وهالةً وتكريمًا لا ينالهُ غيرهُم، فالدّكتور "سلامة" الذي غدا وزيرًا لم يزلْ يستمسِكُ بِكُلِّ تعاليمِ والِدِهِ،

يُضفي عليها لمسةً مِن عِلمهِ الغزير، حين يهرعُ لقريتِهِ يجلِس مع أخيهِ وسط المُريدين في ساحةِ الشّيخِ الرَّاحِلِ، فيُهرعون لتقبيلِ يديهِ، والاستمتاع بعذبِ مواعِظِهِ وحديثِهِ والتماسِ البركة مِن رِحابِهِ الغائِبة.

ترتشِفُ في ساحتِهِم شاي المحبَّة وتتنسَّم عبقًا خاصًّا وأريجًا مُميزًا، وكأنَّكَ توغِلُ في التَّنائي في أحضان الجبل الغَرْبيّ بذاتِك وروحِكَ معًا، بعيدًا عن صخب الحياةِ وضجيجِ متاعِبها المُرهِقَة في جوٍّ مِنَ السّكون والصَّفاء الأزليّ، حيثُ جفاف الطَّقس يُضفي على النّسمةِ الشَّارِدةِ العليلة ألف معنى، وقت خلوِّها مِن الزَّائِرين، أو حين تدوي بين جنباتِها طنطنة الرّوَّاد الذَّاكرين في تبتُّلٍ وخشوع! فتُداعِبك نسائِم الجبل الجافّة ليلًا، أو تُثيرُ رِمالهُ النَّاعِمة تصنعُ فيها خطوطًا مُتعرِّجةً كتموّج الماء، كأنَّها رُسِمَتْ بريشة فنانٍ أو خطّت فيها أنامِل لاهٍ أو ربتت فوقها أصابع عرَّافٍ يخُطّ فيها السّطور ليقرأ خبايا المستقبل، لكنَّها نُقِشت بيدِ أعظم فنَّان وأبدع مُصوِّرٍ جلَّ شانُه...

انحنى "أحمد الجبليّ" يلثُمُ يدَ الشّيخ "إسماعيل الطَّاهِر" الذي كانَ قد تخلَّص مِن عمامتِهِ، فبَدَتْ صلعتُهُ لامِعةً تحت أضواءِ السَّاحةِ المنهمِرة مِن كُلّ صوب تُضفي مزيجًا أصفر نقيًّا على الأرجاء وكأنَّها لُغة الصَّفاء تفرِضُ ذاتها على المكان في نشوةٍ غريبةٍ! وهيَّجَتْ نسماتٌ صيفيَّة طائِشة ما استقرَّ مِن بقايا شعراتٍ مِن جانب رأسِهِ على صلعتِه، فبدت هشَّةً مُستفَزّة، واتَّكأ على أريكةٍ مادًّا رجليهِ مُستنِدًا على مسندٍ وسط بضعة مِن أصفيائه المُقرَّبين، حين اطمأنَّ لخلوِّ السَّاحةِ إلَّا مِنهم، فبدا لهُ أنْ يتبسَّطَ في جِلستِهِ، فيستريح قليلًا مُسترخيًا بينهُم، وكانت السَّاعةُ قد تجاوزت العاشِرة بِقليل.

فاعتدلَ الشّيخُ "إسماعيل" مِن اتّكائتِهِ على مِرفقِه، وطوَّق "الجبلي" بأحد ذراعيهِ كما كان يفعلُ الشّيخُ "الطَّاهِر" بِهِ في ودٍّ وهو يقول مُعاتِبًا:

لم تزُرنا يا "جبليّ" منذُ زمنٍ، ما كُنت تفتؤ تكُفّ عن الولوج لوالِدنا صباحًا مساءً.

يُجيبُهُ "أحمد" في خجلٍ بيّنٍ كأنَّهُ طِفلٌ يبتسِم في حضرةِ والِدِه الذي يوبِّخهُ على خطأٍ ما، فيسترضيه مُعتذِرًا بابتسامةٍ خجلى فاتِرةٍ، بينما يُحدِّقُ في الأرضِ بين يديه:

ما "الجبليُّ" سوى خادِمكُم ومُريدكُم، ثُمّ يستطرِدُ:

تعلمُ يا شيخي ما أصابَ قدمي حتَّى أصبحت "أحمد" الأعرج لا "أحمد الجبليّ" في سُخريةٍ مِن مُعاناتِه نَمت من زاويةِ فمِهِ ابتسامة كالومضة ومضَت في جانِبٍ دونَ آخر... استدعَت عدوى الابتسام لدى الشّيخ "إسماعيل" فقال:

لا توجَل يا "أحمد"، ألم تتحقَّق فيك نبوءة سيّدك الطَّاهِر، حين بشَّرَك قبلها بِأَنَّك أوَّل مَنْ يُجابِهُ الشَّرَّ والشَّيطانَ، ويعترِضُ طريقَ سيلِ الدَّم بِشجاعةٍ لا يقدِرُ عليها غيرُك؟ وتعلَّقتَ بجِلباب "سُلطان" وحاجزتهُ في طريقِهِ لقتلِ المسكينة "تريزا"، ولولا كسرُ قدمِك وإصابتك ووقوعك على الأرض ما وقعت تِلك الجريمة البشِعة التي أودَت بمجد الظَّفَّاريين للأبد قبل أنْ تودي بحياة "تريزا".

ألَم تتحوَّل لِعقبةٍ كئودٍ في طريق الدَّم الذي لم يسِل إلَّا بعد أنْ فقدتَ ساقَكَ؟

يرُدّ "الجبليّ" في تهكُّمٍ آخَر حزين: أصبحتُ بعدها بِثلاثِ أرجُلٍ لا اثنتينِ وهوَ يُشيرُ إلى عُكَّازه الذي يتأبَّطهُ...

فيرُدُّ عليهِ "إسماعيل" في تؤدةٍ ومودَّةٍ: حسبُك حُبّ الشّيخ الطَّاهِرِ وآلِهِ، وبُشراهُ لكَ بالخير ، ثُمَّ يهتِفُ في رُفقائِهِ مُناديًا: أمَا مِنْ عَشاءٍ لـ"أحمد الجبليّ"...

فيُجيبُهُ أحدُ أعوانِهِ: في التَّوِّ يا فضيلة الشّيخ...

ثُمَّ يجلِسُ "أحمد" يتناولُ عشاءَهُ في حضرةِ الشّيخِ "إسماعيل"، بينما يقُصُّ عليهِ أحاديثَ الحاجِرِ وأهلِهِ والظَّفَّاريين وسُلطان السَّجين ومرضه في محبسِه، بينما يُنصِتُ الشّيخُ "إسماعيل" في اهتمامٍ بالِغٍ.

لم تكُن عائِلة "أبو ظفَّار" أقلّ احترامًا وإكبارًا للشّيخ مِن غيرِهِم، لكِنَّ عنفوانَ "محمود أبو ظفَّار" وصولتهُ أبيا عليهِ أنْ يرضخَ لِسُلطان يطغى على سُلطانِهِ، فيغدو والعامَّة سواء، أينحني لتقبيلِ يد آخر يلتمِسُ بركتهُ بعد أنْ اعتادَ أنْ تنحني لهُ الجِباهُ وتخضعُ لحكمهِ الرِّقاب في انكسارٍ ووجلٍ؟

هكذا السُّلطان إذا تعاظمَ في القلوب وتنازعَ فيهِ البشر! فماذا لو كانا سُلطانين مُتضادّين، المال والجاه والثَّروة في مُقابِلِ الرّوحانيَّة والمحبَّة والخشوع؟ أليس لكليهما قُدسيَّة في نفوسِ بني آدم؟

حين يتنازعان فلا يأبى أحدهما أن يستسلِمَ لِلآخر، بل رُبَّما يتعالى سُلطانُ الجاهِ والثَّروة برأسِهِ، أو يُشيحُ بِوجهِهِ في أُفُقٍ مُتباعِدًا مُختالًا، وإنْ اعتملَ في ذاتِهِ احترام السُّلطان الآخر الذي يُنازِعه.

رُبَّما يخشى أنْ يتضاءَلَ في حضرتِهِ إذا التقيا واشرأَبَّت الأعناق.

لم يحوِ قصر "أبو ظفَّار" أو أيّ مِنْ مُمتلكاتِهِ صورًا للشّيخِ الطَّاهِرِ، ولم يزُر ساحتهُ أو ضريحهُ إلَّا لمامًا، وكأنَّهُ يُباري سُلطان الطَّاهِر الرّوحيّ بسُلطانهُ الدُّنيويّ الحاكِمِ القاهِر!

وإن كان لا يرُدُّ لآلِ الطَّاهِرِ طلبًا ولا يهيضُ لهم جناحًا، ويوقِّرُ صغيرَهم وكبيرهم حين يرِدُ ذِكرهُم اتفاقًا في مجلِسِهِ، ويُشيدُ بطُهرِهِم وبركتهم أجمعين.

التّيه

في جِلستِهِ الصَّباحيَّة الخاصَّة لازالَ الشّيخُ "محمود أبو ظفَّار" يختلي بِذاتِهِ وأفكارِهِ على مصطبة الدَّار، يُحملِقُ مع أوَّل ضوءٍ للصَّباح في الفضاءِ العريض وامتِداده اللانهائيّ خلف الجبل، ذلِك الكيان البُنيّ الرّماديّ الأصمّ ذو العنفوان والصّولة، وكأنَّهُ يُشهِدهُ على أحداثِ الأمسِ القريب وذكرياتٍ خلَتْ، لكِنَّ آثارها باقية في الأنفُسِ وعلى الشُّخوص، فبدا وكأنَّهُ شاهِد عيانٍ أبكم لو أُتيحَ لهُ النُّطقُ لما سكت عن التَّكلُّم بِكُلِّ ما أفضى لهُ بِهِ الزَّمان.

لم تكُن حالتهُ الصِّحّيَّة جيّدة، شيءٌ اعتملَ في صدرِهِ نغَّصَ عليهِ منامهُ، غير تخاطف الشّيطان روحه وتسلله إلى قرارِه، يُقلِّبُ بِحربتِهِ المعقوفة في أغوار نفسهِ تُربة الذِّكريات، فتُثيرهُ كُلّ ليلة صورة وجهِ والِدِهِ الشّيخ "أحمد" يُحملِقُ فيهِ مُغضبًا، تتداعَى أمامهُ صورٌ شتَّى، عمامتهُ مُلطَّخة بالدِّماء، لازالَ يُردِّدُ الفضاء العريض صرخاتها المكلومة المشتعِلة بالأنين، صوتٌ لم تنسه أُذناهُ رغم السِّنين، لازالَ يتردَّدُ صداهُ في أُذنيه، فيوقِظهُ مِنْ نومِهِ فزِعًا، يصُكّ نحيبها مسامِعهُ.

"نِعمة"! نعم... بِصوتِها النَّاعِم العذب، الذي استحالَ صرخةَ ناي حزينةٍ، تقطعُ القلوب وتُلهِبُ المشاعِر، لازالَ يُطارِدهُ في نحيبٍ مُتقَطِّع، ينفُذُ مِن الجُدرانِ مُرتحِلًا مِن الماضي، يحمِلُ عبقهُ الحزين، يهزُّ وجدانهُ ويُطارِدهُ حتَّى في صحوِهِ، وكأنَّهُ صوتُ ضميرِهِ الذي تئنُّ فيهِ الجِراحُ ولَّما تخمدُ بعدُ.

حينَ يأتيهِ صوتُ أبيهِ مِنَ الماضي، وهو على فِراشِ الموتِ يفحُّ فحيحًا يُجاهِدُ حشرجةً أخيرةً في حلقِهِ، يوصيهِ بِالعائِلةِ ويودِعهُ أمانتها، وكأنَّهُ يلومُهُ ويؤنِّبُهُ:

فرَّطت يا "محمود"، حينَ أسلمتَ نفسكَ لِهواك، وألقيتَ مجدَك في حبائِلِ امرأةٍ، لطَّخت شرفنا بِدمائِها، وأوديتَ بِزينةِ الرِّجَالِ وفخر العائِلةِ سُلطانًا.

اشتَدَّتْ عليهِ الرُّؤى المُفزِعة، هل كانت أصداءَ ألمٍ نهشَ كالحيّةِ في صدرِهِ، فزادَ مِنْ قتامةِ رؤياهُ وقسوتها؟ أم أنَّ ما طرأ عليهِ مِن أحداثٍ أخيرةٍ زادتهُ كآبَةً وقسوةً في جلدِ الذَّات؟

بدا وجههُ مُصفرًّا مهزولًا كأنَّهُ كبُرَ ألفَ عامٍ أُخرى في ليلتِهِ تِلكَ، بذلَ جهْدًا غيرَ مسبوقٍ في وصولِهِ لِمُستقرّهِ المُعتاد، مُستنِدًا على الجُدرانِ حتَّى وصولِهِ لِرُكنِهِ الأثير.

لم يشكُ لِزوجتِهِ ولم يطلُب العونَ، ولم يمُدّ يدًا للفايشِ والشَّاي، الذي يُحِبُّ نكهتهُ في لحظة الصَّباح الباكِر، أدهشَ الحاجّة أمّ سُلطان مظهر الشّيخ الذي بدا واهِنًا يُقاوِم، فابتدرتهُ بِالسُّؤالِ عن حالِهِ، فأجابَها بِعباراتٍ مُقتضَبةً، أهمّها صمتهُ وزيغُ عينيهِ في الفضاء، وما بدا عليهِ مِن إخفاءِ مظاهِرِ الألم ومُجالدتِهِ!

استدعت أولاده الذين هُرعوا مِنْ فورِهِم، لم يتأخّر سِوى "عبد الماجِد" الذي كانَ في مزرعةٍ بعيدةٍ و"سليم" الذي كان في محجرِ الجبل، بينما هُرعَ "سعيد" و"جاسِر" لإحضارِ الطَّبيب، وقامَ "نصر" بمُساعدتِهِ في الوصولِ لسريرهِ مُتَّكِئًا على ساعِدِهِ.

لم يقتنع "سعيد" بتشخيص الطَّبيب المبدئيّ رغم صداقتِهما الوطيدة، بعد أنْ صرَّح لـ"سليم" بِأنّها بوادِرُ ذبحةٍ صدريّةٍ نجا فيها الشّيخُ مِن الموتِ بِأعجوبةٍ تُعدُّ مِن المُعجِزات، طلبَ عرضهُ على الاستشاري بالمُحافظة فوافقَ الجميعُ على رأيه الذي اتَّفقَ مع هواهُم...

تعَجَّبَ كيف تحمَّلَ تِلكَ الآلام الرَّهيبة التي تُشبِهُ ألمَ الذَّبح، وهوَ راقِدٌ في سكونٍ، لم يُبدِ سِوى شكوى خفيضة، ولم يُظهِر تأثّرًا موافِقًا لِحالتِهِ وما يجوسُ في قلبِهِ مِن ألم.

فأجابهُ "جاسر" في زهوٍ حزينٍ بدا في خلجاتِ عينيهِ وحشرجةِ صوتِهِ:

إنَّهُ الشّيخُ "محمود" عميد الظَّفَّاريين وسيّد الجبل، الذي كانت ترتعِدُ مِن نظرتهُ الذِّئاب، حين يحدّجهُم بنظرةٍ ثاقِبةٍ أشدّ شراسةً مِن نظراتِهم المتوثِّبة الجائِعة، وكأنَّهُم يعرفونهُ فيهابون مواجهتهُ وتُخيفُهم نبراتُ صوتِهِ الأجشّ، فلا يعترِضُ طريقهُ إلَّا ذِئبٌ تعِسٌ شرودٌ أسلمتهُ الأقدارُ لِفوَّهةِ بُندُقيَّتِهِ حين يتطايرُ مِنها الشَّررُ، فتُدوي في هزيعِ الليلِ وكأنَّها تزأرُ مُتوعِّدةً إيَّاهُ بالنّهايةِ الوشيكة، أو تهبِط فوق جُمجُمتِهِ شوبتهُ الغليظة فتشُقَّها نِصفين، ويصبِحُ، جُثمانًا تلهو بِهِ الصّبيانُ في الغداةِ، فيجرّونهُ مِن ذيلِهِ في دروبِ الحاجِرِ لاهين.

مُستنِدًا على "نصر"، و"سليم" جلبَ لهُ "سعيد" السَّيَّارة الجيب، تُقِلّهُم للمدينة الكبيرة، حينَ يعلو ضجيج السّيّارات وصوت آلات التَّنبيه المُزعِجة، المُتسلِّلة مِن الشَّارِع الفسيح المواجِه للكورنيش، فيُغطّي على صوت الطَّبيب، الذي يبدو صوتهُ مسموعًا في آونةٍ، ضائِعًا وسط جلبة الكلاكسات وصخب الزِّحام آونةً أُخرى، فيضطرُ لِتكرارِهِ بنبرةٍ أعلى حتَّى يسمعهُ الجميع...

أيُّ جوٍّ هذا المُلبَّد بِالدُّخانِ والضَّجَّة والصَّخَب حتَّى لا نكادُ نسمعُ أصواتنا حينَ نتكلَّم؟ ثُمَّ أينَ هذا كُلَّهُ مِن جوِّ الجبل الصَّافي الصَّحو السَّاكِن كالقلب الدَّافئ، والجافّ المليء بِالوَهَج والألَق مِن غيرِ زُخرُفٍ أو بهرجة؟

رُبَّما كانَ في صمتِ الشّيخ حديثٌ داخِليٌّ يطرحهُ شوقهُ الجارِفِ لبيئةِ مهدِهِ وصِباهُ وشبابهُ ومشيبهُ! حين تمسَّك الاستشاريّ الأصلع ذو الشَّارِب الأبيض والصّوت المُجوَّف كالرَّنين على نقلِ الشّيخ "محمود" للمُستشفى لِسوءِ حالتِهِ، فبزغَ اعتِراضهُ مِن داخِلهِ مبدئيًّا، ثُمَّ تنامَى حتَّى صفعَ بِها الجميع في ثِقةٍ لا تُبارى وهو يقولُ:

لن أموتَ إلَّا في قريتي وسطَ أهلي على سريرِ والدي مُتدثِّرًا بِغِطائهِ المصنوع مِن وَبَر الجِمال...

لم يعُدْ في وُسعِ إنسانٍ أنْ يُراجِعَهُ أو يُثنيهِ عن عزمٍ أمضى مِن حدِّ السّيف، وأقطع مِن أنْ يُعارِضَ أو يُجادِلَ فيهِ بين أخذٍ وردّ، حتَّى لو كانَ على حِسابِ حياتِه!

في تحدٍّ آخر استرسلَ الشّيخ "محمود":

نفعلُ ما يطلُبُ الحكيم مِن تحاليل وأشعّة ورسم قلبٍ، ثُمَّ نأخُذُ أدويتنا المطلوبة ونعود، وُيشرِفُ علينا طبيب الوحدة بالحاجِر، وإنْ احتجنا لاستشارتِك شرَّفتنا بالزِّيارة... يُمسِكُ عن الكلام... يعتصِرُ بيُمناهُ صدرهُ الأيمن ناحية كتِفِهِ، وكأنَّهُ يكتُمُ ألمهُ الذي استثارهُ بعد أنْ أجهدَ نفسهُ في الحديث، وكأنَّهُ يردعُهُ بضغطةِ كفِّهِ رافِضًا أنْ يُفصِحَ عن ألمِهِ أو يُبدي شكوى مِن وجعِهِ الذي بدا أثرُهُ جليًّا على قسماتِ وجهِهِ، فهو عيبٌ لا يصِحّ وجُرمٌ كبيرٌ في حقِّ الشّيخ وإنْ مرِض واشتَدَّت عِلَّتهُ، نفذ أولادهُ ما أوصاهُم بِهِ دون نِقاش...

في تعجُّبٍ أومأَ الطَّبيبُ "إيميل شُهدي" برأسهِ يُمنةً ويُسرةً ماطًّا شفتيهِ علامةً على الاندهاشِ، رغم أنَّ ما بدرَ مِنهُ لا ينُمُّ عن كثيرِ تعجُّبٍ، فهو نطاسيّ شهير، يُشيدُ بهِ البادي والحاضِرُ، أهرمهُ الدَّهرُ، تربطهُ علاقة قديمةٌ وطيدةٌ بالشّيخِ وآلِهِ، وكأَنَّهُ صديقٌ قديمٌ، يعلمُ عن رِجالِ الجبلِ وطبائِعهم الكثير، وإنْ غالبهُ التَّعجُّب حين رأى الشّيخَ موشِكًا على الانهيار، ومع ذلِك يتشدَّدُ في رأيهِ ويُصِرُّ عليهِ، وكأَنَّهُ يتحدّى نفسهُ أو القدَر، رُبَّما الموت.

حقنهُ "إيميل" بِحُقنةِ مورفين سكَّنَت مِن ألمِهِ الحادّ الذي يُجاهِدُ إخفاءهُ، وشرع في سحب عيّنات التَّحاليل اللازِمة بعد أنْ أجرَى لهُ رسم قلبٍ وأشعةً تليفزيونيّةً (إيكو)، ما استنفدَ النّهار كُلَّهُ، ثُمَّ أعطاهُ روشِتَّة العِلاج، مُكوَّنة مِنْ قائمةٍ طويلةٍ مِن الأدوية، ما كان يكرههُ الشّيخُ طيلة عُمرِهِ...

رمقهُ "إيميل" بنظراتٍ مُعاتِبةٍ وهو يهتِف:

أمرك عجيبٌ يا سيدي، رغم كُلّ هذهِ المُعاناة، لا تتراجع عن أمرٍ ارتأيتهُ رأفةً بِحالِك وشفقةً على نفسِك.

فيُجيبهُ الشّيخُ الذي استلقى على سرير الكشفِ تخترِق أورِدتهُ محاليل شتَّى وقد ألصقَ "إيميل" لاصِقةً مُستديرةً صغيرةً على صدرِهِ ومنحهُ بِضعةَ أقراصٍ يمُصّها تحت لِسانِهِ، فزايلهُ الألم واستعادَ عافيتهُ بعضَ الشّيء، وإن لم تتغيّر نظرتهُ الجامِدة المُستقِرّة :

أتُراني أحيدُ عن رأيي وقد أهرمني الدَّهرُ أيُّها النّطاسي الحكيم، ولم أحِدْ عنهُ صبيًّا يافِعًا ولا شابًّا نزِقًا، ثُمّ تفتُرُ عن ثغرِهِ ابتسامةٌ فاتِرةٌ، كأَنَّهُ يُطمئِنهُ عليهِ، وهو يقولُ: الأسودُ لا تموتُ إلَّا واقِفةً تزأرُ، أتُريدُ أن تضعني في قفصِ مُستشفاكَ يا مُقدّس؟ يضحكُ إيميل مِن مُداعبةِ الشّيخِ المقصودةِ، فيُجاريه في تلطُّفِهِ قائِلًا:

أمرُك نافِذٌ ولو على رقبتِكَ هكذا كُنتَ وستظلُّ، أتمنَّى أنْ أزورَكَ قريبًا وقد تحسَّنَت صِحتُك، فتهبني وجبةً طالما استحسنتها على موائِدِكُم، مِن الحمام المُحمَّر والبط المحشوّ بالفريك...

فيُجيبهُ الشّيخُ: تُنيرُ دروبنا وتُشرِّفنا، ولو لم تأتِ لأتى إليكَ كُلّ ما تشتهي وأكثر وقتما تأمُرُ...

فيُجيبهُ إيميل: وهل عادت فينا معِدةٌ تهضِمُ أو قولونٌ يتحمَّلُ كُلَّ هذا كما كُنَّا فيما مضى؟!

فيرُدّ الشّيخُ: أصبحت يا "إيميل الحكيم" مريضًا مُسِنًّا... دونَ أنِ يضحك...

يتضاحكُ الجميعُ وكأنَّهُم تناسَوا لِلحظات ما أهمَّهُم، ثمَّ عادوا أدراجهُم، وقدْ حُمِّلوا بوصايا الطَّبيب عن طريقةِ الأكلِ والشُّربِ، واجتنابِ السّمينِ وتخفيض الوجباتِ، والإقلاع نهائيًّا عن التَّدخينِ بِأنواعِهِ، وتوخّي الحذَرَ في عدمِ الاستسلامِ للحُزنِ والغضب.

كان الشّيخُ "محمود" يُجري حديثًا موسَّعًا داخليًّا بينهُ وبين ذاتِهِ، بينما تتوالى أنوارُ أعمِدةِ الإنارة على جانبي الطَّريقِ على وجهِهِ مِن نافِذةِ سيَّارتِهِ بينما تتعاقبُ خِلالها ظُلمةُ الليلِ، والسَّيَّارةُ تقطعُ طريقها مُسرِعةً نحو الجبل في ألفةٍ غريبةٍ، وكأنَّها هي أيضًا سعيدةٌ بِعودتِها مِن تغريبتِها الوجيزة، تستشعِرُ الحنينَ للجبلِ ونسائِمهِ الشَّارِدة: واهِمٌ إيميل الطَّيب، أتُراهُ يستطيع أنْ يدفعَ عنْ نفسِهِ غائِلةَ التَّفكير في همومِهِ وأحزانِهِ وما يشغُلهُ؟ أو يُطفئ في جوفِهِ سورةَ الغضب حين يقتحِمهُ؟ هه، ينطِقُ بِها وحيدةً تُفيقُ "سعيدًا" الذي كان يستلقي في مقعدِ السَّيَّارة الخلفيّ وراءهُ مُباشرةً، وقد أخذ بعينيهِ الوَسَن بعد يومٍ مُجهِدٍ عصيبٍ...

فاستفاقَ وقد انطفأَ بريقُ عينهِ الوسنانة مِن قلقٍ طرأه: ما بِك يا أبي...

فيُجيبهُ الشّيخ في تؤدةٍ مُطمئِنةٍ: لا تَخَف يا "سعيد"، إنَّما هيَ زفرةٌ أرسلتُها رُبَّما استراح بعدها قلبي.

يرُدُّ "سعيد" مُبتهِلًا: سلَّم اللهُ قلبكَ يا أغلى النَّاس وسيّد الرِّجال، بينما يرتفِعُ بِجسدِهِ قليلًا في جهْدٍ، بعد أنْ كان تام الاستلقاءِ في مقعدِهِ كأَنَّهُ يغوصُ فيهِ مُلقيًا بِرأسِهِ للخلفِ على سِنادة الكُرسي وقد مدّ قدميه أسفل الكُرسيّ الأمامي، فبدا كأَنَّهُ مطروح مرخيًا لجسدِهِ العنان، ويُقبِّلُ عمامة أبيهِ مِن الخلْف والمائِلةِ على سنادةِ كُرسيهِ في سيَّارة الجيب الوثيرة إلى جِوار السَّائِق...

بعد أيَّام قضاها الشّيخُ بينَ تحسُّنٍ واعتِلالٍ ومُجاهدةِ الخُضوعِ لِتحذيراتِ الطَّبيب تارةً، وهو الذي لم يعتد الانقيادَ لأحدٍ سِوى الله، ووالِدِهِ الرَّاحِل، وبينَ التَّمرُّدِ عليها وعدمِ الإذعانِ لها تارةً أخرى كانَ ثمَّة أمر يُخفيهِ الجميعُ في حضرةِ الشّيخِ، يحرِصونَ ألَّا يصِلَ مِنهُ إليهِ شيءٌ.

قرأ بِفراستِهِ المعهودة الحُزنَ في عيونِهِم، شيءٌ آخَر ألَمَّ بِهِم غير مرضِهِ الذي بدأ يتعافى مِنهُ، همٌّ ثقيلٌ اعتلى قسمات وجوهِهِم المُطرِقة في صمتٍ بدا أكثر افتِضاحًا على وجهي "سعيد" و"جاسِر"، وقتامةً وانزِعاجًا في وجهِ سيّدة أُم سُلطان.

أخذ القلقُ في نفسِهِ يتردَّدُ، فصاحَ بِـ"سعيدٍ" الذي اعتادَ أنْ يُلازِم موطئ قدميهِ صباحًا مساءً في الآونةِ الأخيرة، وكان وجههُ الطّفوليّ لا يكادُ يقدِرُ على إخفاءِ سِرٍّ، بينما الباقون يتناوبون السَّهر على خِدمتِهِ، حتَّى بناته الجدّات انتقلنَ لِلمُكثِ بينَ يديهِ.

هتفَ بِسعيدٍ: ماذا وراؤك يا "سعيد"، بل ماذا أصابكُم جميعًا، أأُحبسُ في فِراشي، بينما تقومُ الدُّنيا وتقعُدَ مِنْ حولي، فلا أدري مِنْ ذلِك شيئًا؟

أفيكونُ هذا مآل شيخ الحاجِرِ وسيّد الجبل؟

فيُجيبُهُ "سعيد" الذي ارتعدت فرائِصهُ خشيةَ غضبة أبيه: لا والله يا والِدي ما قصدْنا مِنْ ذلِكَ شيئًا... ولكِنْ... ولكِن... ثُمَّ يصمُتُ مُطرِقًا في حُزنٍ يختلِسُ النَّظرَ إلى وجهِ أبيهِ الجالِسِ فوقَ سريرِهِ متوثِّبًا... فيستكمِلُ ما بدأَهُ قائِلًا: إنَّما خشينا أنْ تتدهورَ صحتك، فيُقاطِعهُ مُزمجِرًا، وقد علا صوتُهُ فاستحالَ زئيرًا:

تخشَونَ عليَّ مِنْ ماذا؟ وتتركونَ القَلقَ يتحوَّل لِغولٍ يفترسني؟

فيرُدُّ "سعيد": لا يا والِدي معاذ الله، أهمَّنَا تدهورُ صِحَّة الحاج "سُلطان" في محبسِهِ، ونقلِهِ لمستشفى السِّجن...

يرعدُ في أسىً وهوَ يقولُ: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِالله، أكمِلْ يا فصيح بكامِلِ التَّفاصيل، في حُزنٍ واضِحٍ ووجومٍ ولهجةٍ مُعاتِبةٍ يُكلِّلها الحُزنُ والأسى...

فيسرُدُ عليهِ "سعيد" الخبر حين هاتَفهُم المأمور بِما ألَمَّ بِأخيهِم، أخبَرَهُم أنَّ توعُّكًا شديدًا أصابهُ مع ارتِفاعٍ حادٍّ في السُّكَّر وضغط الدَّم، أدخَلتهُ في غيبوبةٍ نُقِلَ على أثَرِها للمُستشفى...

تطفرُ مِن عينيهِ دمَعات، تجهشُ معها سيّدة وتنتحِبُ معها أُخريات مِنْ بناتِها:

يا حَبَّةَ عيني ومُهجة قلبي يا سُلطان... يسترسِلُ "سعيد" مُتردِّدًا: كما أنَّ كفَّهُ اليمنى... فيهتِفُ والِدهُ في وجهِهِ: مالها كّفه اليمنى؟ انطِق... فيُجيبهُ "سعيدٌ":

تسلَّلت الغرغرينة لِكفِّهِ اليمنى وهُم بِصددِ بترها... فيضرِب الشّيخُ كفًّا بِكفٍّ لكنَّهُ لا يُقاطِعُ حديثهُ فيقولُ "سعيدٌ": زُرتهُ مع "جاسِر" و"نصر"

في قِسم العناية المُركَّزة، رأيناهُ خلف سِتارٍ زُجاجيٍّ، وقدِ اخترَقَت أورِدتهُ محاليل شتّى، واتَّصلَ بِصدرِهِ وقلبِهِ أسلاكٌ كهربائيّة تتصِلُ بشاشةٍ تلفيزيونيّةٍ، كان مشهدهُ غائِبًا عن الوعي مُريعًا مُرعِبًا، وقد تحوَّلَ لهيكلٍ، وبدا في سريرِهِ بقايا مُحطَّمة لإنسانٍ، ثُمَّ انهارَ "سعيد" في نوبةِ بُكاءٍ مريرٍ وهوَ يقولُ:

نقلوهُ للمُستشفى الدّوليّ لِسوءِ حالتِهِ... التمعَت معهُ عينا الشّيخ وهو يقولُ:

ولا تُنبئوني يأولاد... ثمَّ كفَّ لِسانهُ عن السّباب... وهوَ يقولُ:

ائتوني بـ"جاسِر" و"سليم" و"نصر"، وجهِّزوا لي السَّيَّارة حالًا لأراهُ... يُقاطِعهُ "سعيد" قائِلًا: ولكِنَّكَ يا والدي!!! فلا يُجيبهُ الشّيخ ويتجاهلهُ، وكأنَّ حُنقهُ عليهِ أصمَّهُ أو ألهاهُ عن سماع اعتراضِهِ غير المُجدي أو المُفيد الذي لن يجعلهُ يُغيّر في قراره! ومُنذُ متى تُردُّ للشّيخِ رغبةً خيرًا كانت أو شرًّا؟!

تحاملَ الشّيخُ "محمود" على عصاهُ وكتف "سليم" ويد "جاسِر"، حتَّى وصلَ لرُكن الرِّعايةِ في المُستشفى الدّولي في نهاية الرُّدهة الطَّويلة، فور إبلاغِهِ النَّبأ.

حيثُ سُمِح لهُ وحدهُ بالدُّخول إليهِ بعد أنْ وعدهُم ألَّا يُزعِجَ أحدًا، وكأنَّها تلبيةٌ لوصيَّةٍ أخيرةٍ لِكليهِما...

بدا "سُلطان" في مرقدِهِ كغُصنٍ جافٍّ ذبُلَ وترنّحَ وتأهَّبَ للسّقوط، راعَ الشّيخ مشهدُ يدِهِ اليمنى ملفوفة بالشَّاش الأبيض، هالهُ رؤية ساعِد ولدِه وذِراعه بِلا كفّ!

هذهِ اليد التي طالما دفعت الغائِلةَ عنّي حتَّى أودتْ بِهِ في سِجنِهِ السَّحيق، وكأنَّهُ يُحادِثُ نفسهُ، طفَرت من عينيهِ دمعةٌ غاليةٌ عزيزةٌ بينما يربُتُ على ساعِدِ

"سُلطان" الذي تغيَّرَت معالِمُ وجهِهِ، فبدا كائِنًا آخر ينطِقُ وجههُ بِالألم والبؤس والضّياع.

كان "سُلطان" في غيبوبةٍ أشبه بالنّوم، فتحَ عينيه فرأى أباه ينظُرُ إليهِ في حنوٍّ وحسرةٍ بالِغةٍ، جالِسًا على كُرسيٍّ بِجوارِ سريرِه، فأخذتهُ دهشةٌ، فشرع يقولُ همسًا:

ربّاهُ ماذا أرى؟ أيكونُ هذا هو الشّيخ "محمود" بِشحمِهِ ولحمِهِ؟ هل هو حُلمٌ جميلٌ؟ أمْ توهُّماتُ الغيبوبة؟ أتُراني مِتُّ حتَّى ألقى الأحِبَّة؟

فيأتيهِ صوتُ أبيهِ الخشِن الأجشّ في تؤدةٍ: لا... يا ولدي قد هُرعتُ لزيارتِكَ فور علمي بِمرضِك، وهو يُقبِّلُ رأسهُ، بينما يهمُّ "سُلطان" الذَّاوي مِن فرطِ النّحول مُتَّكِئًا على يُسراهُ للنّهوضِ لِعناقِ أبيهِ وتقبيلِ يدِهِ، فلم يُسعِفهُ الوهنُ على النّهوض، بينما انكبَّ والِدهُ عليهِ في احتضانٍ حانٍ، وكأنَّهُ يودِّعهُ.

يومئ بِرأسِهِ وقد استبدَّ بِهِ البُكاء وأجهشَ فيهِ حتَّى غاصت عيناهُ في أدمُعِهِ:

كفّي التي قتلتُ بِها يا أبي قد سبَقتْني إلى قبري، تمَّ استئصالها اليوم، أرجو أنْ تستلِموها مِن المشرحة، لِتكونَ أوَّل ما يدخُلُ القبر منّي، لعلَّها تشفعُ لي عِند ربّي حين سبقتنى إلى رِحابِهِ، فيغفِر لِسبَّابتِها التي ضغطت الزِّناد، فامتلأ جسدُ المسكينة بالنَّار.

لايزالُ طيفها يزورني في منامي باكيةً، تُشيرُ إلى بِركةِ الدَّم التي قبع جسدها فيها، رجوتُ ربّي أنْ يكون انتِقامهُ وشيكًا، أتحمَّلُ عذابَ الدُّنيا، لا قِبلَ لي بِعذابِ الآخِرة، يهزّ الشّيخُ رأسهُ في أذىً، وقد طفرَت الدّموعُ مِن عينيهِ في سابِقةٍ لم تحدُث مِنْ قبل وهو يقولُ:

كنت بارًّا بأبيك، لم يهَب الزَّمان الجبلَ رجُلًا أقوى شكيمةً ولا أحكمَ ولا أمضى مِنكَ عزمًا وبأسًا ورحمةً، وما فعلتهُ فعن أمري وتكفيرًا لذنبي وخطيئتي، وسيحاسبني ربِّي على ما أذنبتهُ في حقِّك وحقّ "جاسِر" والعائِلة، وعلى كُلّ دمٍ سالَ، لم تكُنْ فيهِ إلَّا مِدفعًا أطلقتْ زنادهُ أصابِعي أنا، وضحيّةً قضيتَ باقيَ عُمرك ومُستقبلَك ومجدَك، بين جُدران السُّجون، وها أنتَ تُعاني المرضَ الذي تفاقَمَ بِفعل حُزنِكَ وحبسِك، فتدفع ضريبةَ غيرِك، تُسدِّدُ دينًا لم تقترِضْهُ...

فيُجيبُه "سُلطان" في وهنٍ ويأسٍ: عفوًا يا والدي الحبيب، يكفيني مجدًا أنْ تكونَ عنّي راضيًا، وبذلك دمعك الغالي وإنْ كانَ حُزنًا على فِراقي، فأنا ابنُكَ ورهنُ طرفةٍ مِن عينيكَ وطوعُ بنانِك، وما أنا أغلى مِن دمعاتِكَ ولا أعزّ مِنها.

كانَ وجه "سُلطان" يشي بِمأساتِهِ، لا يبدو مِن وجهِهِ غيرُ عينيهِ الزَّائِغتينِ وشارِبه الذي ابيضَّ وأسنانهُ التي اصفرّت مِن جرَّاء الإفراطِ في التَّدخين...

استطردَ "سُلطان" في وجلٍ: ولكِن مالي أرى وجهكَ ذابِلًا؟! أيمرضُ فارِسُ الجبلِ... فيُقاطِعهُ الشيخُ هامسًا: بل أنتَ الفارِسُ يا ولدي الغالي...

يُجاهِدُ "سُلطان" الكلِمات، فيلهجُ في إخراج صوتِهِ وعقْد أحرُف الكلِمات في تتابُعٍ لإيصالِ ما اختلجَ في صدرِهِ وكأنَّهُ يلفِظُ آخِرَ كلِماتِهِ أيضًا:

"جاسِر" يا أبتي، لا تحرِمْهُ مِنْ فيضِ عطفِك، و"وجيدة" المسكينة الصَّابِرة، يقصِدُ زوجتهُ.

ينتهي اللِقاء بتحسُّرٍ بالِغ دونَ وعدٍ لن يوفي بِلقاءٍ، وكأنّ كلاهما يمنحُ الآخرَ آخِر ما تبقّى لهُ مِن الدُّنيا، ويُمعِنُ النَّظرَ فيهِ كالشارِب وقتَ السّحورِ

قُبيل أذانِ الفجرِ يستزيدُ مِن شُربِ الماءِ قبل أنْ يُحرَم شُربهُ خشيةَ أنْ يستبِدَّ بِهِ العطش.

الكُلّ مُهدَّمٌ مهزومٌ، بلغَ بهِ الحُزنُ مبلغهُ، حتَّى الشّيخُ مُذ عادَ مِن تِلك الزِّيارةِ لم يبرَح فِراشهُ ولم يلتزِم بِدواءٍ أو يطلُبَ غِذاء، رُبَّما النَّذر اليسير، فما عادَ للطَّعامِ قيمة أو طعم، بعد أنْ شهِدَ "سُلطان" وعجزه وأيَّامهُ الأخيرةَ، فكأنَّهُ انتكسَ.

شيءٌ ألَمَّ بِخاطِرِهِ حين طلبَ "مصري" و"رءوفة"، أتُراهُ أرادَ أنْ يستوثِقَ مِن أمرٍ أرَّقهُ؟ أم يجمع شتاتهُ الذي تبعثر في الزّمانِ والمكانِ؟ أم يسترضي ضحيّةً أوقعتها المقادير في براثِن انتقامِهِ دون قصدٍ؟

أفكارٌ تضاربت في ذِهنِ الشّيخِ المُهابِ وهوَ طريح الفِرَاش...

يكفي "رءوفة" ما أصابها حين ذبُلَتْ وردَتهَا اليانِعة، فطوتها الأيّام في غياهِب تابوت خشبيّ أقلَّها لِلعالمِ الآخَر!

أوَترفُضُ "رءُوفة" دعوة سيِّد الجبلِ وهي الخانِعةُ أبَدًا المُنكسِرة القانِعةُ بِحالِها؟

إنَّها حتَّى لم تُدلِ بِشهَادَتها في مقتلِ "تريزا" وقد تمَّ على مرأى ومسمع مِنها!

كانت تخشى أنْ تمتدَّ إليها يدُ الانتِقامِ الطَّائِشةِ، رغمَ كونها رفيقة صِبا "تريزا" وكاتِمة أسرارها... قهَرَها الحُزنُ، لكِنَّ قهرَ الخوفِ كان أشَدَّ طائِلةً وأقوى تأثيراً...

شيءٌ ما خفيٌّ أصابهُ... دَفَعَهُ أنْ ينبِشَ في دفاتِرهُ القديمة رغم أنَّهُ لم ينسَ لحظةً حُبَّهُ وحنينهُ، رُبَّما الوحيد، غضبهُ وسؤدُده الذي غمَرَ في كِيانهُ كُلَّ رحمةٍ، حتَّى أنْسَاهُ خَفَقانَ قلبِهِ وخلَجانِهِ، الذي كان يتحوَّل مِنْ جُلمودِ صخرٍ قاسٍ

لا يلين إلى قلبِ طائِرٍ لا يكُفّ عنِ الانقِباض في دقّاتٍ متواليةٍ كُلّما مرَّ ببابِ بيتِها...

نعم... أحَبّها بِصدقٍ ودفَعَهُ الغضب الأعمَى أنْ يُلقي بقلبِهِ تحتَ قدميهِ يعتصِرهُ ويخنُقهُ، أتُراهُ حينَ أوعزَ لِولدِهِ وخليفتِهِ "سُلطان" قتلَها بإيماءةٍ كانَ يتمنَّى لو عصاهُ ولو لمرَّةٍ واحِدةٍ؛ كي يمنحهُ فُرصةً يُراجِعُ فيها ثورتهُ، ليتهُ فعلَ فنَجا بِنفسِهِ وما أوردني الهلاكَ والعذاب، وتوالى جلْد الذَّات، حين تصفعني الأيّامُ بنوائِبِها فما أرُدُّ لها كفًّا، ولا أدفع عن نفسي المُعذَّبة المُتألمة أذىً... ليتها ظلَّتْ حيَّةً أنعمُ برؤيةِ وجهها الدَّافئ ولو معَ العداء ونظرات التَّحدِّي والكراهية، وما تلبَّستُ بِدمٍ لطَّخَ ثوبًا ألقى بِهِ ربّي! ليتهُ أبَى فما ضاعَ مجدٌ تليدٌ لِأُسرةٍ حفَرتْ مجدها في صخرِ الجبلِ، وبينَ وِديانِهِ.

أمَا كانَ يكفيني طردها؟ أمَا كانِ يكفيني أنْ أدَعَها تضرِبُ بِقدميها في الحياة ولو على البُعْد؟

ليتني تورَّعتُ عنْ غيي فأنْجيتُها وأنجيتُ ولَدي المُتَأهّبَ لِلمجدِ، الذي أضحى جانيًا وضحيَّةً! فضاعَ كُلّ ما شيَّدتهُ وشيَّده الأجداد.

و"نعمة"!!! آآآآآآهٍ يا نِعمةَ قلبي ونِقمتِهِ... أتكونينَ المِسمارَ الأوَّلَ في نعشي؟! وكفّ "سُلطانٍ" المبتور حين سبقهُ لِلقبرِ المِسمار الأخير؟

مَنْ تكونينَ؟ أتحملينَ الدَّمَ الظفَّاريَّ التَّليد، رغمَ ملامِحِكِ التي لا تحيدُ أنْمُلةً عنْ ملامِح أمّكِ، ذلِك الرّباط الذي تَبَرَّأ مِنكِ، فتنصَّلَ عن حِمايتكِ وضمّكِ، حين تركَكِ لِلغُرباءِ تنبُتينَ في أكنافِهِم؟ أمْ أنَّكِ ابنةُ "سعدٍ" التي لم يُنجِبْ سِواها؟

يا لشقائي حينَ شقَّ صُراخكِ الأُفُق وطافَ المدى، وأنتِ تستصرِخينَ الشَّهامةَ في قلوبٍ أشدّ قسوةً مِنَ الحِجارة، وأخرى أوهنَ الخوف عزائِمها وأثقَلَتْها الأتراح.

أما رحِمْتكِ وقد كُنتِ تهُشِّين لي وتسعدينَ بِمقدِمي حينَ كُنتُ أجوبُ القريةَ وأنتِ تلهينَ مع قريناتِكِ أمام دُكَّان "سعدٍ"، أو في حارةِ النَّصارى، وأمام بيوتاتِهم شمَّاء أبيّة، حين كُنتِ تُسرعينَ الخُطى خلفَ فرَسَتي، فما يسعني إلا أنْ أهبِطَ مِن عليائي لِأحمِلكِ بينَ ذِراعيّ في مودَّةٍ ورأفةٍ، بثّها اللهُ في قلبي... ما أدري لها سببًا!

وعِند بِقالة "مصري" أشتري لكِ ما تختارينَ مِنْ حلوى ولُعب، فتُقبِّلينَ وجنتي غيرَ وجِلة، وتتطايرُ معَ التِماعُ عينيكِ ضحِكاتُكِ العالية الفرِحة، وأجلِبُ لكِ أغلى الفساتين مِن الأقصُرِ لتختالينَ فيها بِجمالِ طفولتكِ البريئة كابنةِ أحدِ الأعيانِ، حينَ ترتدينها يوم شمّ النّسيمِ وليلة عيدِ الميلاد.

وقد تحرِصُ "تريزا" على زينتكِ في أعيادِنا فأراكِ تلهينَ حولَ القصرِ صبيحة عيدِ الفطرِ أو الأضحى وسطَ حفنةٍ مِن نسلِ الظَّفَّاريين وقريناتكِ، كزهرةٍ يانِعةٍ وسطَ الحشائِشِ أو وردةٍ فوّاحةٍ بين أعوادِ ريحانٍ لا ترقى لِحُسنِها، فتبدينَ أبهى منْهُن جميعًا مهما بالغت أمّهاتُهنَّ في زينتِهِنَّ.

ثُمَّ تفتَّحتْ ثمراتُكِ وبزَغت أنوار شموسُكِ، فبدوتِ أشهى صبيّةٍ، تخطُرينَ فتتسابَق إليكِ الأعيُن وتتَخاطفُ الأبصارُ لِوجهكِ القمريّ وقدّكِ الميّاس، لازِلتِ تفرحينَ بِقدومي وأسعدُ حينَ ألقاكِ في دُكّانِ "سعدٍ" بِجِوارِ أُمُّكِ أو على مصطَبةٍ بِجِوارِ الدَّارِ، لازِلتُ أذكُرُ حينَ عاتبتُ "تريزا" على سُفُوركِ أمامَ الأعيُنِ، فتبدينَ حاسِرة الشّعرِ البُنيّ اللامِع حين تجمعينه في عُقْدةٍ لِلخلفِ، فيومِضُ حُسنُكِ في عباءَتَكِ الحريريَّة السَّوداء، فتتملَّكني

الغيرةُ وكأنَّكِ جُزءٌ مِنّي، فألوم "تريزا" مُعاتِبًا في لينٍ على تبرُّجكِ اللافِت المُثير قائِلًا:

ماذا بِكِ يا مُقدّسة تترُكينَ "نِعمة" هكذا؟... فتُجيب بِخُبثٍ أعلمهُ مِنها حينَ توَدّ أن تردَّ الكيل: ما بِها يا سيّدنا... فأسترسِلُ آمِرًا: "نِعمة" قد نضجَ عودُها فلا تسمحي لها بِالجُلوسِ على قارِعةَ الطّريقِ مُتبرِّجةً باديةَ الزِّينة ثانيًا!

فترُدّ بِلؤمٍ ودلالٍ خَبِرتهُ مِنها زمنًا إذا أخَذَ مِنكِ اللوعُ مبلغهُ حينَ تميل بِرأسَها نحو كتِفِها وتُقحم في لكنتها غيظًا ظاهِرًا ليسَ غريبًا على مسامِعي: شأنها وشأن بنات النَّصارى كُلهُنَّ سواء لم يعُد أحدٌ مِنْ بناتِ جيلِها يرتدي زيّنَا القديم ويتسربلُ في الجبّة الغليظة.

أُراجِعكِ مُستفهِمًا وأنا أكادُ أنفُذُ مِنْ حدقةِ عينيكِ: لا تسمحي لها بِذلِكَ مرَّةً أُخرى!

فترُدّينَ وقد زادَ غُنجُكِ ودلالكِ إمعانًا في إغاظتي: أمرك يا سيّد الحاجِر.

ثُمَّ أنهرُ "نِعمة" فتستجيبُ مُذعِنةً.

وجهكِ الفضّيّ حينَ تجهَّمَ أوانَ مُحاكمةِ "سُلطان"، وقد زادهُ الغضبُ جمالًا، حينَ كُنتِ تتحاشين اصطِدام عيونِنا، وتحديق النَّظر فيهِما، فُتلقيان عليّ بالجريرةِ، واللوم، وكأنَّني لستُ قاتِلَ أُمّكِ!

أيُّ سِرٍّ خفيٍّ أودعتكِ إيّاهُ؟ أم أيُّ سِرّ غامِض يحتويكِ؟

رُبَّما عندَ "رءوفة" الجواب الفاصِل الذي يُبدِّدُ الشَّكّ لحقيقةٍ لا تقبلُ الجدلَ! رغمَ ما تسربلتْ فيهِ مِنْ أحزان الفقد والألم!

طلبَ الشّيخ "محمود" "رءوفة" وزوجها "مصري" للمُثولِ بينَ يديهِ، فهرولتْ مُجيبةً فور إبلاغِها، وهيَ التي اعتادت الطَّاعة والصَّمتَ في أحْلَك

الأوقات، لم يعُد الشّيخُ ذا صولةٍ كسابِقِ عهده! لم تعُد تهتزُّ الأرضُ تحت قدميهِ حينَ يجوبُ طرقاتِ الجبلِ فوقَ صهوةِ بغْلتِهِ العالية القويَّة!

صارَ حبيسَ دارِهِ وبِضع خُطُواتٍ حولها، ما عادت لِبنيهِ سطوتهُم عقِبَ انكِسارِ كبيرهم، حينَ طوتهُ جُدرانُ السّجُون وغمرهُ القَهرُ، لم يُجبِرْ أحدٌ كسرَ العائِلةِ أو يسُدّ الفجوةَ في جِدارِها الذي مالَ حتّى "سليم" نفسه!

لكِنَّها العادةُ حين تستبِدُّ بِصاحِبِها، فلا يُجدي معها تبدُّل أحوالٍ أو تغيُّر ظروفٍ.

مَنْ كان يجرؤُ أنْ يعصي لهُ أمرًا؟ حتَّى مَن اجترأ لقى جزاءً مهولًا يفوقُ جُرمهُ ويتعدَّاهُ، فصارَ عِبرةً لِكُلِّ مَنْ تُسوِّلُ لهُ نفسهُ العِصيان.

فمَنْ ذا الذي لا يهابُ صولةَ الأسدِ وإنْ كانَ مهزولًا رابِضًا قد أقعدهُ المرضُ وداهمتهُ العِللَ، لكِنَّهُ يبقى الأَسَد حتَّى وهوَ قعيدٌ لايزالُ يزأرُ وإنْ كانَ في وهَنٍ، ينفُذُ بعينيهِ الثَّاقِبتينِ فتخترِق نفوسًا تُمنِّي نفسها بالتَّمرُّد، وكأنَّهُ يُعرّيها مِنْ نزَقِها وشجاعتِها، رُبَّما لا تأمَن وثبتهُ أو تضمَن غضْبَتهُ.

وقد تكونُ عادةُ الإذعانُ قد غدَت طبعًا أصيلًا لا يُمكِنُ النُّكوصُ عنها مِن طولِ اعتيادِها، فبَدَتْ في صورةِ الاستِجابةِ الفوريَّة دون تفكيرٍ وإنْ تبدَّلَت الظّروف وتغيَّرَتِ الأحوال.

لِذا هُرِعَتْ المسكينةُ مُستبقيَةً "مصريًّا" زوجها الذي طَرقهُ الخَبَلُ في دُكَّانِهِ، الذي أهملهُ كما أهملَ حياتهُ كُلَّها، فأصبحَ أقرَبَ ما يكونُ للرُّكنِ الخَربِ الذي ترتعُ فيهِ الأحزان.

فلم يعبأ "مصري" بِدعوةِ الشّيخ ولم يكترِث لها! فما عادَ يكترِثُ لشيءٍ في حياتِهِ كذلِك! بعد أنْ رتَعَ اليأسُ فيها وهيمنت عليهِ أحزانُ فقدِ "ماري"، لم يعبأ "مصري" بالشّيخِ ودعوتِهِ، وكأنَّ الذّهول الذي أصبحَ

سمْتَهُ لا يُبارِحُهُ وَصَارَ في تكوينِهِ ماثِلًا، وأكسَبهُ الهمُّ عُمرًا فوقَ عُمرِهِ الهرِم، فبدا أكثر هرمًا وشيبةً مما كانَ عليهِ! هرمٌ آخر مشوبٌ بِحُزنٍ عظيم! سيَّان لديهِ الموت والحياة، فلمْ يعُدْ يطمحُ في "أمل" أو ينتبهَ لِعَرضٍ مِنَ الدُّنيا.

تحامَلَ الشّيخُ "محمودٌ" على عصاهُ، رافِضًا أنْ يتوكَّأ على "سليمان الزّراريّ" الخادِم، أو يستدعي مِنَ الأهلِ مَنْ يُساعِدهُ.

خرجَ إليها، بعد أنْ قادوها للمضيَفةِ الصَّغيرةِ في القصرِ، الذي بدا مِنْ أوَّل وهلة أنَّهُ فقدَ هيبتهُ، وما عادَ يُدخِلُ الرَّهبةَ في النّفوس!

رأتْهُ موضِعًا بالِغَ الاتّساعِ كئيبًا بِلا روح، كأنَّهُ جُثمانُ عِملاقٍ ثاويًا بِلا نبضٍ!

قد تساقطَ طِلاءُ جُدرانِهِ، فبَدَتْ مُبَرْطَشةً بهتت أجزاءٌ كبيرةٌ فيها بِفعلِ الإهمالِ وقِلَّة الاعتِناء، أصبحَ تمثّالا الأسدينِ الرَّابِضينِ في ركيزتي سُلَّمه مُتَّسِخينِ يكسوهُما البِلى، قد تَفَتَّتَتْ أحدُ ذِراعي التّمثال الأيمن، بينما نُبِشت العينُ اليُسرى للأيسر وسقطَ أنفهُ، وكأنَّهُما استسلما أيضًا لِلحُزنِ القاهِرِ واليأسِ، أو غرِقا في سُباتٍ ليسَ مِنهُ يقظة، ينتظِرانِ القَدَرَ أنْ يعصِفَ بِهِما، بعدَ أنْ عصفَ بِسادةِ القصرِ والجبلِ، وقد زالتْ أيّامهُم بعد عزٍّ وجاهٍ، رُبّما كانت تغمُرهُما وتبدو آثارها عليهِما اهتِمامًا ورِعايةً، ولو قُدِّر لهُما لتوثَّبا مِن مرقدِهِما الأزليّ مُنبئين عن أخبارِهِما الأولى وأحوال أصحابِهِما.

لم تعُد أشجارُ الحديقة وارِفة الأوراقِ، وكأنَّ وَهَنًا آخَرَ تسَرَّبَ لها فنثرت أوراقها في ربوعِ السَّاحةِ وكأنَّها غدت في خريفٍ دائِمٍ فبدا كُلُّ شيءٍ جافًّا ذابِلًا، كما بدتِ النّخلاتُ في حُزنٍ مُقيمٍ مُنكسِرةً جريحةً!

وكأنَّهُ لا أحد يُعنى بِها، رغم ادِّعاءِ "سُليمان" موالاةِ عنايتِها رغمَ انشِغاله الدَّائِم في خِدْمةِ الشّيخِ المريض! لعلَّهُ قد تكاسلَ حينَ غاب الرَّقيبُ

أو يبذُل جَهدَهُ ما استطاعَ، لكِنّ المكانَ يلفِظهُ سريعًا ليبدو على تِلك الصّورةِ الآفِلةِ الذّابِلة الصّموت الحزينة، وكأنَّ المكانَ يخضعُ أيضًا لقانونٍ جديدٍ مِن إبداءِ حُزنِهِ وتأثُّرِهِ على مآلِ أصحابِهِ ومالكيهِ ويحِنُّ لأيّامٍ خَلَتْ!

كما أنَّ الزّرعَ والحُقول يدَّعي أصحابها أنَّها تبشّ لهم في سعادةٍ، فيتمايلُ نبتُ عيدانِها الخُضر ويتراقصُ فرحًا كأنَّهُ يشُمُّ ريحهُم حين يقدُمونَ عليهِ!

في غُرفةِ الاستقبالِ حيثُ الكنب مُتراصٌّ بِجوارِ الحوائِطِ في الحُجرةِ الفسيحةِ عالية السّقفِ التي بدَت بارِدةً كثلّاجةٍ جلست "رءوفةُ" قُبالةَ البابِ، حتَّى قدمَ الشّيخُ "محمود" يتصنَّعُ القوَّةَ، بينما جسدهُ الواهِنُ يُبدي الثَّباتَ على عصاهُ التي أضحت ركيزةً لا تُفارقهُ!

فانتبهت مِن جِلستِها ووقفت واجِمةً، بينما جسد السّيّد الفارع يحجُبُ الضّوء الدَّاخِل مِنْ بابِ الغُرفةِ فتسلَّلَ الضّوءُ مِن حولِهِ، حتَّى اجتازهُ وجلسَ وهو يُشيرُ إليها بِالجلوسِ قائِلًا: كيف حالكِ يا "رءوفة"؟

فترُدُّ في رتابة مَنْ ملَّ مِن تكرارِ هذا السّؤال حتَّى لم يعُد لهُ معنى:

الأيّامُ والليالي سواءٌ بعد "ماري" يا سيّد الحاجِر... يُجيبُها في أسىً بِصوتِهِ الأَجَشّ: ألهَمكِ اللهُ السُّلوانَ والتَّعزِّي، ثُمّ يسترسِلُ كَمَن لاتزالُ لا تخفى عليهِ في مملكتهِ الصَّغيرة كبيرة أو ضئيلة: أنتِ الآن قيِّم العائِلةِ وسَندها، بعدَ ما أصابَ "مصريّ" مِنَ الذّهولِ والتّيهِ...

وكأنَّها تستعذِبُ عزفَ لحنٍ شجيٍّ بالِغ الحُزنِ: أنا وما أنا بعد أنْ اجتثّ الزّمانُ وردتي اليَانِعةَ، ذبُلَت يا سيّدنا أمام عينيّ، وتلاشَت حتَّى صارت عدمًا، لو شَهِدْت جُثمانها في تابوتِها لأقسَمت أنها ليست "ماري" الجميلة البريئة، التي كانت تُبهِر بِجمالِها الأنظار...

يزدَرِدُ ريقهُ في تأثُّرٍ وأسفٍ: رَحِمها اللهُ وأحسنَ مثواها، صلِّي مِنْ أجلِها يا "رءوفة"... فتمسح المسكينةُ بِأطرافِ أنامِلها اليُسرى دَمعاتٍ ترقرقت حاسِرةً في زاويةِ حدقةِ عينِها وهي تقولُ: خيرًا يا سيّدنا... لِمَ أرسلتَ في طلبي...

بينما يستفيضُ الشّيخُ في حديثٍ كأنَّهُ الهمهمةُ يبدو بعضُهُ ويختفي بعضُهُ، بينما يُحملِق ناحية الجِدارِ لا ناحيتها، وكأنَّهُ يُناجي نفسهُ:

كانت جميلةً بهيَّةً مِثل "تريزا"، ما أشبَهها بِـ"نِعمة"، بيدَ أنَّ "نِعمةَ" كانت جسيمةً فارِعة الطّولِ، أين تكونُ الآن وما حالُها، لعلَّكِ تُدركينَ خبرها، قد كُنتِ لَهُم أقربَ الأقربين، وهو يوجِّهُ عينيهُ الثَّاقِبتينِ حيالها، تِلك العينانِ اللتانِ كانتا تُثيرُانِ الرُّعبَ والهلعَ والارتِعاد، قلَّ مَنْ استطاعَ مُجابهتهما! فلم تعودا كذلك، أو رُبَّما لم تعُدْ "رءُوفة" تخشى على شيءٍ، فلم تُصِبها نظرتُهُ إلَّا بِالأسى واجترارِ الأحزانِ القديمة مِن قبرِها فبَدَتْ واجِمةً.

هل غَدَتْ نظرةُ الأسدِ غير ذاتِ معنى؟ أم خَبَا في عينهِ البريقُ؟ فأصبحت نظرتهُ مُتخبِّطةً زائِغةً لا تُرهِبُ أرنبًا!

يرِنُّ صوتها في غضبٍ وكأنَّها تزأرُ، بينما تقولُ في نفسِها: لِمَ لا وطالما زأَرتَ فينا، صُلتَ وجُلتَ طيلةِ عُمرِكَ، بينما نحنُ خاضِعينَ في ثوبِ الذلِّ والانكِسار!

فهتفت: تسألُ عن خبرِها اليوم بعد أنْ شرَّدتهُم مِن بيوتِ عِزِّهم، وقضيتَ على تِجارتهم، وقوَّضتَ ما لَهُم، ولما يرتوِ نهمُ انتِقامِك بعد أنْ أسلْتَ دم أمِّها بيدِ ولدِكَ أمام عينيها! فورة حماسةٍ وجرأةٍ لم تواتِها قبل اليوم، وكأنَّها تصُكّ وجههُ بِما استعرَ في قلبِها مِن لهيبٍ حرصتْ على وأدِهِ أعوامًا طوالًا.

وتواجِهُ بِما عجَزَ عنهُ لِسانها سابِقًا مع ألسِنةِ الكثيرين، وكأنَّ حجرًا أصمّ كانَ يقبعُ فوقهُ قدِ انزاحَ اليومَ، ليبوحَ لِسانها بِمكنونِ نفسِها وما اعتملَ فيها مِن أتراح، فهل أفقدها تتابُع الأحزان رُشدَها حين ذُبِحت ابنةُ خالتِها "تريزا" أمام ناظِريها، وكانت لها بِمَثابةِ الأُخت؟ أمْ أطاشتِ الأحزانُ رُشدها، حين هيَّجَ الحُزنُ رمادَ الذِّكرى ونَبَشَ قبرَ الألمِ والفقْد، الذي ما انغلقَ مُنذُ فُتِحَ، وكأنَّ لعنةً لحِقَتْ بِعائِلتِها، فتوالت عليهِم الأحزان؟!

تُسهِبُ في نبرةٍ حزينةٍ، لم تكترِث لِدهشةِ الشّيخِ مِن فظاظتِها الفُجائيَّة، ولا استِسلامهُ لها وكأنَّهُ أسدٌ جريحٌ لازالَ يئِنُّ، تجابِهُ آخِر ضحاياهُ بِذنوبِهِ وإثمِهِ، فيدهشُ لِجرأتِها ولا يُحرِّك ساكِنًا:

رُبَّما أقعدكَ المرضُ سيّدي، لم تعُدْ تجوسُ ديارَ القريةِ التي أسبغتَ عليها حمايتَكَ، فاحتويتها حتَّى خضعَتْ لكَ راضيةً، فأسلَمَتْ قيادَها عنْ طوعٍ، لم تشكُ أو تتبرّم، بل سعِدتْ بالرَّجُلِ القويّ الذي كفَلَ لها الأمانَ، فمنحتهُ شرَفَ السّيادةِ في علاقةٍ تبادُليّةٍ بينَ المصلحةِ والثِّقة.

لِماذا قلبْتَ لِهذهِ القِسمة العادِلة ظَهرَ المِجَنِّ، وكأنَّ الزَّمانَ خدعَكَ حينَ أرخى لكَ حِبال المجد والتَّرَف لِتصنعَ مِنها مشنقةً ونِهايةً لِعَلاقةٍ أزليّةٍ مُنذُ الجدود؟

تستكمِلُ ما بدأَتْ وكأنَّ صمتَ الشّيخِ إذعان لِكُلّ ما تقول، فيتهدَّجُ صوتها ويعلو ويخفُت، بينما يُمعِنُ الشّيخُ في صدى كلِماتِها، بعد أنْ ملأ رنينُ صوتها أركانَ الحُجرةِ، كأنَّها تصرُخُ صرختها الأخيرة، أو أنَّ الحُزنَ الرَّابِض في أعماقِها كجذورِ شجرةٍ مدفونةٍ تحت الأرضِ، آنَ لِعولِ الجرأةِ أنْ يُزيحَ عنه التُّرابَ فيفتح لهُ سبيلَ الخلاص.

صارت ديارهُم خرابًا بعدَ أنْ كانت بيوتَ عِزٍّ ونعيمٍ! وحوانيتهُم (دكاكينهُم) موصدة مُترَّسة قد علتِ الأرضُ فوقَ أعقابِ أبوابِها، بِفعلِ الزَّمانِ، فصارت كأنَّها مغمورةٌ فيهِ، وكأنَّها لن تُفتحَ أبدًا ولن يعودَ لها أهلها.. فغدَتْ قِبلةً لِمصمصةِ شِفاه الغادي والرَّائِح، أو يضرِب كفًّا بِكفٍّ ألمًا وتحسُّرًا!

ماتَ "سعدٌ" كمدًا في المدينة، لم تُفلِح لهُ تِجارةٌ، واعتصرَهُ الحُزنُ والقهرُ، وتزوَّجَت "نِعمة" مِن ابنِ أخي "سعدٍ" الذي أدمَنَ السُّكرَ والمُقامرةَ، فأفنى ما استبقاهُ "سعدٌ" لِلأيَّام... لم يعودوا يملِكونَ شيئًا، تاهتْ في زَخمِ المدينةِ وأحزانها، لم تعُدْ تملِك ما تُطفئ بهِ جوع صِغارِها، يقولونَ إنَّها أضحَتْ عامِلةَ نظافة في أحدِ الفنادِق، وآخرون ادَّعَوا أنَّها صارتْ بائِعة هوى! يزورُ شقَّتها مَن أراد أن ينغمِسَ في بحرِ عسلِها المُرّ، الذي تجرَّعَت مِنهُ حتَّى الامتِلاء... يغمُرها البُكاءُ بينما تصرُخُ: صارت خاطِئةً خاطِئةً كأُمّها...

نِهاية أخرى مؤلِمة غاية الإيلام لِطفلةٍ بريئةٍ مِنْ ضحاياك... ثُمّ تستغرِقُ في بُكاءٍ عميقٍ... بينما الشّيخُ يكادُ يهُدُّهُ الحُزنُ هدًّا، فيُحاوِلُ النّهوضَ فلا يَقوى، وكأنَّها قصفتهُ بِآخِر قذيفةٍ لينهارَ الجيشُ كُلّهُ، وهو يقولُ:

غُفرانكَ يا ربّ وألوذُ بِرحماتِك وأستجدي رِضاكَ! أيَّة نِهايةٍ تِلكَ؟

بل أيّ ضياعٍ مُنيتُ بِهِ في آخِر أيَّامي؟ مُتذلِّلًا في انكِسارٍ وشجَنٍ يُقارِبُ البُكاء:

نبِّئيني بِالله عليكِ ماذا أخبرتكِ "تريزا"؟ ماذا عن "نِعمة"؟ هل هيَ ابنةُ "سعدٍ"؟

أمْ... أمْ... ممم... يُكرِّرُ الكلِمةَ، يخشى أنْ يُكمِلَها بوحُ لِسانِهِ، وكأنَّهُ يخشى الإجابة.

لاتزالُ "رءوفة" المُغرقةُ في الحُزنِ مُتلبِّسةً رِداءَ البُطولةِ كجُنديٍّ باسِلٍ أفاقَ مِن جِراحِهِ التي أثخنتهُ، ليواجِهَ طاعِنهُ ويُناضِلَ أمامهُ في لحظاتِ شجاعةٍ أخيرةٍ نادِرةٍ، ترسُمُ ابتِسامةً شامِتةً على زاويةُ فمِها، وخدّها المُكتنِز وهي تقولُ في تشَفٍّ لا تُخفيهِ:

تُريدُ أنْ تعرِف السِّرَّ الذي أخفتهُ عنك "تريزا" طيلة حياتِها... مَن هو والِدُ "نِعمة"؟ يا مَن كُنتَ عشيقًا لها فسلبتها كُلّ شيءٍ حتَّى عُمرها، هل هوَ أنتَ؟ أم "سعد" والِدها في شهادةِ الميلادِ والأوراق؟

السِّرّ الذي تجهلهُ "نِعمةُ" نفسها ولا يعرِفهُ إلَّا الرَّبُّ وأنا رفيقةُ عُمرِ "تريزا"!

هل هيَ رَصاصةُ الرَّحمة الأخيرة التي تُريدُ أنْ تتلقَّاها في صدرِكَ كي تستريحَ مِنْ ظنونِكَ؟ بعدَ أنْ أفسدتَ حياةَ الجميع، ثُمَّ جنيتَ الشّوكَ والحنظل!

لا والمسيح الحيّ لن أُريحكَ ما حييتُ، ولو كانتْ في هذهِ الكلِمة حياتي ولن أُفشي سِرّ أُختٍ ائتمنتني عليهِ، لم تُفصِحْ لكَ عنهُ، لِتترُكَكَ تعمهُ في ضلالاتِكَ، سأترُكُكَ للظّنون ما بقي لكَ مِنْ أنفاسٍ... ثُمَّ أنبِئني ماذا تستطيع أنْ تفعل لها بعدَ أنْ أسلمتَها للضَّياع قويًّا عزيزًا، وقد صِرتَ اليومَ مُهلهَلًا توشِكُ على النِّهاية.

تُهرولُ خارِجةً مِن الحُجرةِ بعدَ أنْ خلَّفَتْ في نَفْسِ الشّيخِ جُرحًا غائِرًا، نكَأَتْ موضِعهُ القديم الذي لم يندمِلْ، فنبشَتْ في أثَرِهِ بِقسوةٍ، فأدمتهُ مِنْ جديدٍ، تركتهُ ينزِفُ آخِرَ قَطراتِ الحياةِ، ثُمَّ خرَجَتْ مُنتشيةً بِانتصارِها، وكأنَّها انتصرت لروح "مُنتصر" و"تريزا" التي نكصت عنِ الشّهادةِ في حقِّها، وانتقمت لِجسدِ "نِعمة" الذي انغمسَ في الرّذيلةِ والضّياع.

لمْ يُفِق الشّيخُ بعدها مِنْ غيبوبةٍ ألَمّتْ بِهِ، واستدعتْ نقلهُ للمُستشفى لأيّام، عاد بعدها طريحَ الفِراشِ ميئوس الأملِ في شِفائِهِ، بعد أنْ أخبرَ الأطبّاء "سليمًا": إنَّ الأفضلَ أن يعودَ بأبيهِ، يقضي ما بقيَ لهُ مِن أيّامٍ وسطَ أهلِهِ وذويهِ.

فاجأَهُم خبرٌ فاجِعٌ بينما يتَأَهَّبونَ لآخَر... مات "سُلطان"، فهُرِعُوا لاستلامِ جُثمانِهِ، وتجهيزِ إجراءاتِ دفنٍ لائِقةٍ بالجسدِ الذي تحرَّرَتْ مِنهُ الرّوحُ، قبل تحرُّرِهِ مِنْ محبسهِ.

خيَّم حُزنٌ مُطبِقٌ على الجميع، قضى الشّيخُ "محمود" أيّامهُ فيها واجِمًا صامِتًا لا ينطِقُ ولا يأكُلُ ولا يبرحُ مرقدهُ، فقط محاليل وريديّة يُغذِّيهِ بِها الطَّبيب، لم يكُن الشّيخُ فاقِدًا لِلوعي ولا في غيبوبةٍ مُستمِرَّة، بل رافِضًا للحياةِ، التي صارت بغيضةً في عينيهِ، وكأنَّهُ يُناشِدها الرَّحيلَ، بعدَ أنْ أولتهُ ظهرها، وأثكَلَتهُ الأَحِبّةَ، فمضى في تيهِهِ لم يُصِب فيهِ رُشدًا... حين تحيا على وجهِ الأرضِ وتستشعِر أنَّ باطِنها قدْ يكونُ فيهِ المُستراح والسّكينة! "نِعمةُ" المُشرَّدةُ بسببِهِ، ضيَّعَها... لا يدري... أتكونُ ابنتهُ أمْ لا؟ وأغلبُ ظنِّهِ أنَّها مِنْ صُلْبِهِ!

و"سلطان" الذي حوَّلهُ مِنْ فارِسٍ شهمٍ لِقاتِلٍ وضحيّةٍ، ثُمَّ ارتحلَ بعد أنْ تجرَّعَ عذاباتِ الألم والقهر.

الموتُ هو الخلاص مِنْ كُلّ الآلام ككوَّةٍ في أعلى حِصنٍ ينسلّ مِنها الهارِبون، كما فرَّت منها روحُ "تريزا" و"سُلطان"... أمَا آنَ لِروحِهِ أنْ تتحرَّر؟!

انهارت العائِلةُ وتفتَّتت، لم يعُدْ "جاسِر" يُطيقُ "نادية" التي كانَ يهيمُ بِها حُبًّا، وكأنَّ نِقمةً حلَّتْ بِهِ بعد أنْ شهِدَ نهايةَ والِدِهِ جسدًا مُسَجَّىً على

طاوِلةٍ رُخاميّةٍ في مشرحةِ المُستشفى، طالهُ القهرُ بعد طولِ تعالٍ وشمم، كَجبلٍ اندكَّ وصارَ تلًّا مُقفِرًا، وجدّهُ الرَّاقِدُ في صمتٍ وعجزٍ ينتظِرُ لحظةَ الخلاصِ في أفولٍ ويأسٍ.

الصّولةُ والهيبةُ التي تراجعتْ، حينَ تعاقبَتْ على الجبلِ أجيالٌ جديدةٌ لم تشهَدِ العَهدَ الزَّاخِرَ لِأُسرةِ "أبو ظفَّار"، فقط حِكايات أُسطوريّة عن ماضيهِم التَّليد، الذي تلاشى بعد أنْ تقاسَمَ الإخوةُ إرثَ أبيهِم في حياتِهِ الشَّبيهة بِالموتِ.

تفكَّكَ الجبلُ وتلاشَتْ أواصِرهُ، صارَ دُنيا فسيحةً وقريةً كبيرةً، يفعلُ فيها مَنْ يشاءُ ما يشاءُ دونَ رادِعٍ أو حِسابٍ، أو خوفٍ مِنْ كبيرٍ يجمعُ شتاتهُم أو يُحاسِبهُم ويقضي على المُخطئِ بِالعِقاب...

"عبد الماجِد" الذي بسطَ يدهُ على كثيرٍ مِن أراضي والِدِهِ وحدائِقِهِ، توارى مع خجلِهِ وخيانتِهِ، بعد وفاةِ "سُلطان"، وضياع مُستقبلِ أُسرتِهِ بسببِ أحقادِهِ، فأسلمَ كُلّ شيءٍ لأبنائِهِ وعلى رأسِهِم بِكريّه "عُمر" الذي ورِثَ عن أبيهِ خنوعهُ وطمعهُ، فاستبسلَ في حُبِّ المالِ واستِثمارِهِ وجمعِهِ، مُستقِلًّا كُلّ الاستِقلالِ عن أعمامِهِ ونسلهُم، أمَّا "سليم" فقد فرَضَ سطوتهُ على المحاجِر والأوناشِ العِملاقةِ (اللوادِر) مع "سعيد" و"جاسِر"، بينما رضي "نصر" بالفُتات، فمنحوهُ ملكيَّة بِضعة عقاراتٍ وسيَّارتي أُجرةٍ وحديقة مانجو في المدينة، أمَّا بناتُ الشّيخِ الباقياتُ على قيدِ الحياةِ ونسلهنّ فقد وزِّعتْ عليهِنَّ أموالٌ سائِلة نقديَّة تُرضيهُنَّ، فقد كانوا يأبونَ توريثَ البناتِ أراضي أو عقارات، حتَّى لا تخرُجَ أملاكهُم للغُرباء مِن أزواجِهِنَّ!

ووُزِّعَ ما تبقَّى مِن أموالٍ نقديَّة على الذّكورِ بالتَّساوي، بينما وُرِّث "جاسِر" مُستحقَّاتِ والِدِهِ كما أوصى الجدّ قبلها!

سرعان ما دبَّ الشِّقاقُ بين الأَخَوينِ "سليم" و"سعيد"، لم يعُد الجبلُ يتَّسِعُ لِكِليهِما، ازدادت الهوَّة بينهُما اتِّساعًا، حينَ تضاربتِ المصالِحُ وتنازعَ الأَخوان السِّيادة، ولم يرضخ "سعيد" لِتسلُّطِ "سليم" ولا استبدادِهِ، حين أقصى "جاسِرًا" وأمعَنَ في إبعادِهِ عن إدارةِ أملاكِهِ ومحاجِرِهِ، بعد أنْ ساءَت العِلاقةُ بينه وبين زوجتِهِ "نادية"، واستحالت العِشرةُ بينهُما جحيمًا لا يُطاق، وخصوصًا بعدما أثمرَ زواجهُما ولده "حُسين" الذي يُعاني إعاقةً خاصّةً وهي تأخُّر نموِّهُ العقليّ عن نموّهِ الجسديّ.

واحتدَمَ بينهُما الصِّراعُ، وتملَّكتها الغيرةُ مِن ماضي "جاسِر"، وساورتها الشّكوكُ في سلوكِهِ، بعد أنْ غفَرَتْ لهُ نزَقهُ السَّابِق فآبَ على أعتابِ حُبِّها تائِبًا عاشِقًا، فاستشعرت النُّفورَ مِنهُ وصارت لا تستجيبُ لِعلاقتِهِما إلَّا مُرغمةً كارِهةً، وكأنَّها رذيلةٌ تهرُبُ مِنها، وتلبَّسَتْ بِها، فاضطرتها الأيَّام الاستِجابةَ لها، وكأنَّها التَّعبير الوحيد عن المشاعِرِ الذي لا يجيدُ "جاسِر" سِواهُ، ولا يُبدي بعدهُ أيّ تعبيرٍ باللفظِ أو المعنى.

صراعٌ داخِليٌّ يُمزِّقها بين مشاعِرها تِجاههُ وهو المُجرّب ذو الحِنكة، وما جُبِلَتْ عليهِ مِنْ تقاليد كالقيود، تعاظَمَت في نفسِها بِسببِ عُنفِ أبيها معها لِحدِّ الضَّرب والإهانة، كالطّوقِ حول جيدِها، وأحكِمَ الغِلّ يوم انتهشوا مِنْ بظرِها بموسى على يدِ خاتِنةٍ جاهِلةٍ على غِرار عاداتِهم الجنوبيّة، فأودى بِما لديها مِن شَبَقٍ وشوقٍ، وكأنَّهُم أمعنوا في اغتيالِها نفسيًّا بِلاءاتِهم الصَّارِمة التي طوَّقت روحها بِسلاسِل مِنْ عَنَتٍ، وجسديًّا حين اغتالوا إحساسها واجتزؤوا أنوثتها، فكانت تمنحهُ منحةَ الخائِف المُضطَرِب المذعور، ترقُبُ باب مخدعها تخشى أنْ يقتحِمهُ عليهِما مجهولٌ، فتُصيغ السّمعَ في انتباهٍ وكأنَّها ترقُبُ خُطواتٍ خفيّة تجوسُ حول حُجرتِها، فتسترِقُ السَّمعَ بينَ يديهِ وكأنَّها

تسمعُ حفيفَ أشجارِ الحديقة ودبيب دوابِّها حتَّى الأرَضة والنَّمل، وهمس الجانّ، فتضحى مُنتبِهةً يقِظةً تُغالِبُ الخدرَ الذي يتسلّلُ لِجسدِها، دومًا مُشتّتة الفِكر زائِغة البصرِ أو مُغمَضةَ العينينِ خجِلةً وجِلةً أو غاضِبةً مُتأفِّفةً، تمُنُّ عليهِ حقَّهُ، كأنَّها تمنحُ شرفها لِعشيقٍ تتنازلُ لهُ مُكرهةً تحت ضغطٍ عن أعزّ وأثمَن ما لديها، تخجلُ مِنَ التَّعرِّي في حضرتِهِ، وكأنَّ جسدَها حرمٌ لا ينبغي استباحتهُ ولو بِنظرةٍ مِن الزّوج! فتخشى أنامِلهُ وتقشعِرّ لها... تأبى أنْ تمسَّ جسدهُ بيدِها، أو تعبث بِكفِّها في صدرِهِ المُختلِج بِالوجْد... لا تمنحهُ حقًّا إلَّا في حالِكِ الظَّلام، تحت أغطيةٍ كثيفةٍ كأنَّها الحُجُب والأسوار التي تُشبِهُ ذاتها المنيعة الغامِضة، حين تكادُ تتجمَّدُ أطرافها، فتندسُّ في غِمارِ دِثارِها في غمرةِ حرارةِ ليالي الصّيف، وكأنَّ برودةَ مشاعِرها طَغَتْ على أطرافِها!

لم يكُفّ عقلها لحظةً عنِ التَّأرجُح بين الأفكارِ والهموم، فيرى فيها جسدًا بِلا روح، وأنثى بِلا أُنوثةٍ، حين تتنحنحُ في الحمَّام بصوتٍ رُجوليٍّ غليظ، وكأنَّها تلفِظ أنوثتها، وتُطفئ أوارها الذي رُبَّما اشتعلَ في نفسِها قليلًا.

ودَّ لو رآها كأيَّام عرسها في ثيابِ نومٍ شفيفةٍ أو أرديةٍ مُثيرةٍ، تخطُرُ فيها أمامهُ فلا يُريعهُ مِنها غير الصُّدود واللواذ بحُضنِ ولدِهِ "حسين"، تمنحهُ وافِرَ حنانِها، بينما "جاسِر" يطمح أنْ ترتوي نفسهُ التَّوَّاقة للمرأةِ والجسد الذي غدا دواءَ روحِهِ، وكأنَّهُ طبعٌ مؤصَّلٌ في رِجالاتِ العائِلة.

تملَّك اليأسُ مِن "جاسِر" الذي ما عني بالاستقامةِ يومًا، فانبرى في مِضمارِ الحُبِّ يحثو فيهِ حثوًا دونَ أنْ يرعوي أو يُروَى، كانت "نادية" لهُ أشبه بِالإناءِ الأخير الذي يأملُ الصَّائِمُ أنْ يروي منهُ غُلتهُ ويُطفئ نارَ ظمأه النّهِم، لكِنّها لم تفعل مع قُدرتِها، وترفُضُ مع جميلِ ما حباها اللهُ بِهِ مِن مفاتِن

حرصتْ على مواراتِها، حين يستشري الصّدود كالدَّاء، ويبزُغ في نفسِها التَّوَاقة لِلحُبِّ الزُّهد والتّوتُّر.

في نِهايةِ كُلِّ لِقاءٍ يجمعهُما، تزدادُ الفجوةُ، وينتابهُ شعورٌ قلِقٌ بِأَنَّهُ يعتدي عليها، وكأنَّها تتعمَّد أنْ يبدُرَ عنها ما يدفعهُ لِظنِّه الذي يكادُ يقتُلُ رجولتهُ، فيقومُ عنها وقد اعتراهُ بؤسٌ شديدٌ ونفورٌ لا مِنها وحْدَها بل مِنَ الجِنسِ كُلِّهِ ومنَ النِّساءِ أجمعين!

لم يعُد يُفلِحُ معها العُتبُ أو الملامة، فبدا كأنَّه يستجديها نفسها بيدَ أنَّها غير قادِرةٍ على منحِهِ شيئًا آخَرَ سِوى الجسد، جُثمان بِلا روح، عطاء منقوص، نِصف جسدٍ لِنِصف أنثى، عقل غائِب وروح شارِدة، يقتنِصُ مِنها بُغيتهُ ثُمَّ يؤوبُ مُتردِّيًا مُنهزِمًا، لم تمنحهُ إكليلَ الانتِصار ولا لذَّةَ النَّجاح، أجساد تصطكّ كأنَّها في عِراكٍ يغمُرها الظَّلامُ، وتأوّه الألم النَّافِر مع كُلِّ لمسةٍ، لا ألم اللذّة الشَّجيّ الشَّاجي الذي يولِّدُ في النَّفسِ الطَّاقَةَ والصَّخَبَ، كما تشحنُ الكهرباء بطّاريَّةً فارِغةً، ويوقِظُ فيها الكوامِن ويُفجِّرُ البراكين.

ناجَزها ذات مساء: لماذا تهبينني جُثمانًا دونَ روح... فُتجيبهُ في سُخطٍ:

أتُريدُ أنْ أتَعرَّى لك كالرَّاقِصات، أمْ أغنج بينَ يديك غنجَ المومِسات اللواتي تعرِفهُنَّ جيّدًا؟

فيرُدُّ: لم أُطالِبكِ أنْ تكوني أحدًا غيركِ ولكِنْ! هبيني كُلّ نفسكِ... أَلستُ زوجكِ وأنتِ امرأتي؟

فتُجيبهُ في حِدَّةٍ: زوجتك لا جاريتك، ظفَّاريّة أحمِلُ في عُروقي الدّم نفسهُ الذي تحمِلهُ، إذا كُنتَ ابنَ "سُلطان" فأنا ابنةُ "سليم"، وجدُّنا واحِدٌ لا ريب...

يُقاطِعُ سيمفونيّةَ الفخر والتَّعالي التي يحفظها عنْ ظهْر قلبٍ صارِخًا فيها:

حتَّى أنَّكِ تغفينَ بين يديّ في أحرج اللحظات، فتمنحينني شعورًا بِكراهيةِ ذاتي والحياة.

تصرُخُ في وجهِهِ: أنت لا تُقَدِّرُ ما أعانيهِ طيلةَ يومي، وليالٍ عديدةٍ مع ابنكَ المريض، يُمزّقني صُراخهُ وعصبيتهُ وألَمُهُ، بينما أنت في حُجرةِ الضّيوف تنعمُ بنومٍ هادئ بعيدًا عمَّا يؤرِقكَ...

فيزدَرِد ريقهُ بينما يُبدي امتِعاضًا وهو يقولُ: هو ولدي الأوَّل، ويقتُلني ألمُهُ.. ولكِنْ... ألا تُريدينَ لي الرَّاحةَ؟ حتَّى يُمكِنني الاستِمرار في عملي الشَّاقّ، أم تُراكِ لا تُريدينَ لِلحُزنِ أنْ يبرحَ بيتنا؟ ... يسترسِلُ في يأسٍ: أنتِ تلفظينني، ترفُضين أنْ تمسَّني أنامِلك، وكأنَّني إثمٌ تخشينَ الوقوع فيهِ! أينَ حُبّكِ وحنينكِ؟ لماذا لا يصدُر عنكِ سوى الجفوة والصّدود الدَّائِم، بينما تُطالبينني بِالحُبِّ والحنان وكأنَّهُما مِنْ معينٍ لا ينضب، ونهر زاخِر لا يجِفّ، بينما لا يكُفّ لِسانكِ عن التَّبرُّم والشَّكوى... فتُجيبهُ: لن أشكو بعدَ هذا إلا لله، عِندَ ربّنا تؤتى الحُقوق ويُنصَفُ المظلوم!

ثُمَّ تغوصُ في نوبة بُكاءٍ مُعتادة لا تنفكّ عنها إلا مع يقظةِ الوليد وصراخِه!

بينما يمضي "جاسِر" لحجرةِ الضّيوف، ينفُثُ مع دُخانِ سجائِرِهِ ألمهُ وغضَبهُ ويأسهُ، فتتشكَّلَ في العتمة مِن سحائِبِ الدُّخانِ صورًا مُلتاعةً مُتماوِجةً لِنِسوةٍ يعرِفهُنَّ ما فارقْنَ خيالهُ، أو رُبَّما فارقْنَهُ ثُمَّ عُدْنَ إليهِ سريعًا في غمْرةٍ مِنَ الإحباطِ، يتذكَّرُ غُنجهُنَّ وميوعتهنَّ، وحِرصهُنَّ الدّءوب على إرضائِهِ، يذكُرُ كم كانت تفعلُ أصابِعهُنَّ وأفواههنَّ بِجسدِهِ الأفاعيل، في غمرةٍ مِنْ نشوةٍ لا تُنسى.

"مايسة" البدويّة التي كانت لا تتورَّعُ عن اجتلابِ اللّذّةِ والتَّفنُّن في اصطناعِها، وتحقيقِ غايتها مِن أيّ سبيلٍ، لا تعرِفُ الإباء، كُلّ دروبها مُتاحة مُرحِّبة، تُجيدُ فنونَ الجسدِ والمنح، لا يُحرِّكها سِوى المُتعةِ والرَّغبة، لا تتقيّد بطريقةٍ ولا وضعٍ ولا ضوابِط، لم يصِل مع "نادية" إلى جُزءٍ مِما منحتهُ لهُ "مايسة"، بينما "نادية" لا تُجيدُ سِوى التَّمنُّع والعطاء الشَّحيح الآنِف المُتأفِّف مِنهُ ومِنَ المُمارسةِ كُلّها!

فكأنَّها قرَّرت في ذاتِها التَّوقُّف فجأةً عنْ حُبِّهِ، ومنحِهِ ما تمنحهُ الزّوجة المُحِبَّة للزّوجِ الحبيب.

كانَ يُعَزِّي نفسهُ أوانَ الخِطْبةِ، مُبالغتها في الاحتشام وتستُّرها وراءَ سُتُر الحياء، بِالرّقابةِ اللصيقة اللا نهائيّة، والحواجِز التي تفنّن "سليم" في اصطناعِها.

رُبَّما لم تندّ عنها أوان الخطبةِ ما يُبدي لهُ ما خفيَ، أو ما تحذرُ الوقوعَ فيهِ مِنَ البوح بِعواطِفها، كانت دائِمة التَّنصُّل والمُراوغة، لكِنَّ حدَسهُ كان يؤكِد لهُ أنَّها تهيمُ بِهِ حُبًّا، استشعرَ زفَراتهُ في هاتِفِها، أتون لهبٍ مُحترِقٍ، أنفاس مُتشوِّقة لِلهوى والعطاء! ولكِنْ... أينَ... أين... أين!

يقُضّ مضجعهُ صراخُ ولدِهِ الذي وصمتهُ أمراضُ الوِراثة النَّاجِمة عن زواجِ الأقارِب مرضًا مناعيًّا نادِرًا، يصحبهُ تأخُّرٌ في النّموِّ العقليّ، اكتشفوا بعد الدّورانِ في دوَّامةٍ مِن الأشعةِ ورسم المُخّ والمُهدِّئات، حين تنتابهُ نوباتٌ صرعيّة، تسبِقها آلامٌ حادَّة، أنَّهُ لا بُرء مِنهُ! حين تسبِقهُ آلامٌ حادّةٌ تكوي قلوبَ العائِلة جميعها، وكأنَّهُ يدفعُ ضريبةً دمٍ قديمٍ ليس لهُ فيهِ ذنبٌ، وروحًا أُزهِقتْ لازالتْ لعنتها تُطارِدُ الجميع، لم ينجُ مِنها حتَّى الرَّضيع في المهد.

ييأسُ "جاسِر" فيغُطُّ في نومٍ عميقٍ غير هانئ ولا سعيد...

بينما لِسانُ حالِهِ يدعوهُ لِتمرُّدِهِ السَّابِق: ألهذا الحدّ تُثقلينَ رقبتي بِالأحمال، ثُمَّ تقذفينَني في المخاضةِ المُهلِكةِ، مُكبلًا وتأمرينني بِالسِّباحةِ ضدّ تيار إبائِك المتوالي وصدّكِ المُخزي؟

لنْ أكونَ سِوى ظفَّاري أصيل، تسري في أوصالِهِ العظمة والأَنفة، سأبحثُ عن ضالتي كما فعلَ جدِّي، مهما كانت التّبِعة!

كانت "سيادة" تِلكَ المرأة الفقيرة المُدقعة، تحيا في منزِلٍ أشبَه بِكوخٍ، تتألّفُ جُدرانهُ مِنَ الطّوبِ اللبِن، بينما سقفهُ معروشٌ بسقيفةٍ مِنْ جريدِ النَّخلِ والقشّ والبوص وعيدان الحطَب الجافّة، يحمِلُ كُلَّ ذلك بضع أعمِدةٍ خشبيّة مُستطيلة مُتوازية أفُقيًّا، ترتكِزُ على أعلى الجُدران، يوحي بِسوءِ حالِ آلِهِ وضنْكِ عيشِهِم.

تُلفِتُ الانتِباهَ بلحظِ عينيها الصَّافيتين كأنَّهُما برزخٌ لا مُتناهيًا مِن السِّحر، بينما بشرتها المشوبة بسُمرة الشَّمسِ الجنوبيَّة القاهِرة تأبى إلَّا أنْ تترُكَ بصمتها على وجنتيها، وكأنَّها أميرةٌ فرعونيّة، حدقتا عينيها العسليّتان تتوهَان في بياضِ عينيها الفسيحتينِ كأنَّهُما فنجانا قهوةٍ، فوقهُما حاجِبان مُزجَّجانِ، كقوسٍ أسود، أو إطار عُلويّ يُغلِّفُ لوحةً رائِعةً، لا تشبعُ مِن إمعانِ النَّظرِ فيهِما، وكأنَّك تستقي الجمالَ مِنْ بِئرِ أحلامهما السَّحيق، تِلكَ الأحلام الهيّنة على غيرِهِم العسيرة جِدًّا عليهِم، وجهها مُستديرٌ مليحٌ، حلو التَّقاطيع، فأنفها دقيقٌ، يعلو شفتانِ صغيرتانِ لكِنَّهُما مُكتنِزتانِ، لِثغرٍ بادي الابتِسام، وكأنَّ وجهها لحنٌ تتكاملُ ملامِحهُ معًا في تناسُقٍ بديعٍ، تبدو ريَّانةَ القدِّ، في اتِّساقٍ غير مُفرِطٍ ولا معيبٍ، فلم يكتنِز في ثناياهُ اللحم، ولم تبرُز عِظامهُ مُفصِحة عن نحافةٍ تنهشُ مِنْ جمالِ الوجهِ...

قدّ مُتَّسِقٌ مُعتدِل مُستقيمٌ لامرأةٍ تميلُ لِلقِصرِ، جعلها اللهُ آيةً في الحُسنِ والجرأةِ والفقر!

فلم تكُنْ امرأةً جبليّةً تتوارى في سُتُرِها، فتُخفي وجهها بِخِمارِها، حين يلوحُ لها أفقُ رجُلٍ غريبٍ، سِرُّ جمالها صمتها، وكأنَّها الفِتنة السَّمراءُ الصمَّاءُ تغدو وتروحُ.

لكِن يستحيلُ جمالها قُبحًا حينَ تفغرُ فاها وتتردَّدُ أحرُف الكلِماتِ مُغلّظةً في حنجرتِها، فتصطدِمُ بسقفِ حلقِها، فتنسكِب مِنْ فمها ككُتلِ طينٍ! فيستحيلُ صوتها مع وجهها بادي الحُسن كشيئينِ مُتنافِرين، لا عن عيبٍ في حنجرتِها، لكِنّ استِمساكها بطريقةِ نُطقٍ تخلَّى عنها الجميع وكأنَّها جُبِلتْ عليها فرضعتها قبل أن تعي أحْرفَ الكلِمات، فامتزجت معها، حين تنطِقُ الكلِمةَ مُغلّظةً مُنفِّرة، تضغطُ كُلّ حرفٍ مِنها، فتخرُجُ حنجوريةً جنوبيّةً فظّةً.

فتقرعُ بلفظِها جَرسًا مُنبِّهًا، يعترِفُ بأنَّ الجمالَ مهما تعالى لا يكتمِلُ، وتشوبهُ شوائِبُ النُّقصان تُكدِّرُ صفوهُ واكتِمالهُ.

اشتُهِرَ عنها أنَّها تُحسِنُ استِغلالَ جمالها، وأنَّهُ مِفتاحٌ يفتحُ كثيرًا مِن أبوابٍ رُبَّما تُغلق في وجوهِ غيرِها، وبِرغم الدُّخان الذي يلوحُ حول أيّ مكانٍ تطرُقُهُ، إلا أنّهُ لم يجرؤ أحد كائِنًا مَنْ كانَ على الادّعاء بأنَّه نالَ مِنها نيلًا أو حظيَ مِنها بتنازُلٍ يرجوهُ، وهي دومًا تؤكِّدُ على طُهرِ ساحتها، وأنَّها لا تُفرِّطُ في شرفِ زوجِها أو عِفّتها مهما كانت حاجتها، وأنَّ ضِعافَ النُّفوس يؤاخِذونها بِجرأتِها ويرمونها بالفُجرِ إمعانًا في سوءِ ظنِّ بعضِهم وانتِقامًا مِنْ آخرين حاولوا معها، وباءوا بخيبةِ الرّجاء، فهي حُرّةٌ لم يقربها سوى زوجِها "الجهلان".

فـ"سيادة" هي تعانُق الجمال مع الفقر، حين تُغلِّفهُما جرأةٌ لا تكبحُها هيبة.

تلوحُ في ذِهنِ "جاسِر" الباحِث عن قشَّةٍ يتأرُ بِها لكرامتِهِ التي أهانها الصَّدُّ والنّفورُ، فيُزيّنها الشَّيطانُ في عينيهِ... لم يعُد يراها تِلكَ الفقيرة الجميلة السَّاذجَة التي تدَّعي الفِطنةَ بينما تورِدُ نفسها الهلَكة، تتوالى في ذاكِرتِهِ أحداثٌ ألمت بِهِ كانت على هوامِشِها، حين كان يرثي لِفقرِها وعوَزِ أولادِها أو يسخرُ مِن تصنُّعها الفِطنة، فتبدو كجُحا حينَ يؤذي نفسهُ وهو يظُنُّ أنَّهُ يُخلِّصَها، لكِنَّهُ لا ينسى تِلك الليلةَ التي نفذ في ظلامها إلى مسامِعهِ همهمة تخشى الافتضاح وصوتٌ خفيضٌ هامِسٌ يتوسَّلُ، ومُدافعةٌ ومُقاومةٌ لِشخصٍ يرومُ الخلاصَ، فاتجَّهَ نحو مصدرِهِ في غاباتِ البوصِ الهائِش والحشائِش الكثيفة التي تبدو كالأحراش نحو مخرّ السّيلِ، حينَ استمع أنينها وهي تُذكِّرهُ بِعهد الله لِتحولَ بينهُ وبين تنفيذِ مُرادِهِ الذي أوشكَ على بلوغِهِ... راعهُ مشهد "فَرَّاج" النّوبيّ، الذي بدا كأنَّهُ نخلةٌ عجفاء مِن فرطِ طولِهِ ونحافتِهِ، كأنَّهُ مخرزُ مخيط، يُطبِقُ قبضتهُ عليها، فدفعتُهُ عنها في أريحيّةٍ وبسالةٍ، ولولا أواصِر القُربى بيني وبينهُ لأُقحِمنا في مُناجزةٍ غير مأمونةِ العاقِبة.

لكِنَّهُ أذعنَ في خجلٍ كأنَّهُ يسوقُ مُبرِّراتهُ لسليلِ حاكمي الجبلِ:

ترفُضني باستماتة بنت... وتدَّعي الشَّرَفَ وكأنّ الجميعَ لا يعرِفُ سيرتها!

بينما تنهضُ "سيادة" دامِعةَ العينينِ قد أخذَ مِنها الجهدُ مبلغهُ، وقد تعلَّقت بثوبِها مما يلي الظهر الأترِبة والحشائِش، فتُنفِضها عن مؤخِّرتها باكيةً مُنتحِبةً:

مِنك لله يا ملعون! ظننتُكَ كأخي ووثقتُ بك، ولولا خشيتي على زوجي الضّعيف الذي لا نصير لهُ أنْ يورِدَ نفسهُ موارِد الهلَكة لصرختُ وفضحتُكَ أو شكوتُك لسيّد الجبل...

لم أبُح لإنسانٍ بما حدثَ، فقط خلَّصتها مِن براثِنِه، وأمرتها بالانصراف بعد أنْ صببتَ جامَّ غضبتي عليها قائِلًا: سيرُكِ معهُ وحدكِ في ظُلمةِ الليل أطمعهُ، ومَنْ لا يطمعُ فيمن تفتحُ دارَهَا للجميع ولا تصدُّ في الحديثِ راغِبًا؟

فتُجيبُ مُطرِقةً في حُزنٍ: وعدني بإيجادِ عملٍ إضافيّ لي يُعينني على أسباب الحياةِ، واختلقَ العِللَ ليقودني لهذا الطّريق مُدّعيًا اصطحابي لمكتبِ أحد معارِفِهِ مِن المحاميين في البندر.

فنهرتها في حِدّة... تسيرينَ في وقتٍ متأخِّرٍ في الليلِ معهُ، وكأنَّكِ تحومين حول حِمىً ولا تخشين الوقوع فيهِ، لا تلومي إلَّا نفسكِ...

لاتزالُ كلِماتُ فرّاج لي ليلتها يرِنُّ صداها في أُذُني، حين اصطحبني مُزمجِرًا مُتأفِّفًا: لِماذا خلَّصتها مِن يدي؟ كِدّتُ أنْ أنالها لولا قدومك! أتظُنّها صادِقةً؟

هيَ لِلكُلّ مُستباحة! فهلَّا كانت لي الليلة؟ حين تسلّل كفّي لروابي جسدها البضّ ولثمتُ شفتيها اللتينِ تقطُرانِ عسلًا، ولولا عضّتها راحتي التي دسستها في جيبِ رِدائِها لاجتثثتُ الأرنبينِ الطّريينِ مِن مكمنِهِما.

هزَّتني كلِماتهُ اللاهِثة، لازالت تُشعِلُ أوارَ لهبٍ خمدت نارُهُ في جوفي، بعد أنْ أقسمتُ ألَّا أعودُ، لكِنَّها الزّوجةُ التي تمُنُّ عليّ بالعطاءِ وتضُنُّ على قلبي بالحنانِ، فتربأ بنفسِها أنْ تكونَ لِزوجِها حبيبةً، فقط جارية تُسلِمُ جسدها راغِمةً كُلّما طلبتُ، حتَّى صارت وجبةً واحِدةً مُتكرِّرةً سخيفةً، ليس مِنها رجاء ولا فيها مذاق جديد...

اعتادتْ "سيادةَ" التَّردُّد على قصر آل "أبو ظفَّار" وبيوتهم، تُساعِد نِسوتهم في أعمالِهِنَّ المنزليَّة، مِن تنظيفٍ وطبخٍ، تنالُ مِن خيراتِهم، وتُمنحُ أجرًا مُناسِبًا، يُعينها على مؤونةِ أُسرتِها، لم تكُنْ شيئًا في ناظري، لكنني انتبهتُ لها مؤخَّرًا، شيءٌ ما دعاني لِتأمُّلِها بينما هي مُلتويةٌ مُنكبَّةٌ، حتَّى بَدَتْ عجيزتُها مُستديرةً بارِزةً، لمْ تكُنْ بِهذا الحجمِ وهذهِ الفِتنةِ لولا انثِناء جِذعها لحظةَ انهماكِها في تنظيفِ مدْخل الشَّقّة، في جِلبابٍ أسود رث قديم وغطاء للرَّأسِ شدّتهُ بِهِ كأنّهُ عِقالٌ، حافية القدمينِ تبدو في كعبيها شقوقٌ مُتداخِلةٌ دقيقةٌ، لم تُنقِص مِنْ إطلالةِ جمالها وفتنةِ جسدِها! ماذا لو... لو؟!! في تردُّدٍ وكأنّي أنساقُ مُرغمًا لِنَزَقي السَّابِقُ، كيف لم أرها كما أراها الآن؟ بينما رآها كُلُّ مَنْ في الجبلِ واشتهاها.

رُبَّما كان حِرصي على تكتُّمِ أسراري، وعدم ذيوع أخبارِ مُغامراتي لأحدٍ مِنْ أهلي هو ما دفعني أنْ أحرِصَ على مُمارسةِ نزواتي خارِج قرية الجبلِ أو في المدينةِ الواسِعة الذي يتوه فيها كُلُّ شيءٍ، حتَّى الفضائِح التي تتلاشى في الزِّحام ، القادِر على أنْ يختلِطَ بِكُلِّ شيءٍ، فيُمازِجهُ ليضيعَ بينَ زَخَمِهِ.

لم يزلْ حول عِفَّتِها جدلٌ ولجاجٌ، فما مِنْ نائِلٍ يجزِمُ بتحقيقِ مأْربٍ، هي فقط امرأةٌ جريئةٌ، موغِلة في التَّبجُّح حينَ تُخالِطُ الرِّجال، تُحادِثهُم وجهًا لِوجهٍ دونَ سترِ وجهها خلفَ قِناع، عادةٌ قديمةٌ رُبَّما اندَثَرَت، لكِنَّها لاتزالُ قائِمةً بينَ العجائِز، وكأنَّهُنَّ يُخْفينَ عجزَهُنَّ ومعهُ خطوط الوشْمِ الثُّلاثيَّة المرسومة طوليًّا أسفل الشّفَة السُّفلى باللونِ الأزرق المائيّ الدَّاكِن، ولازالت تستمسِكُ بها نِسوةٌ مِنْ ربيباتِ الدّورِ ممَّنْ لم يَنَلنَ مِنَ التَّعليم والثَّقافةِ حظًّا، أو يُفسِّرنَ مِنحةَ القلمِ على الأوراقِ البيضاء مِنْ نقشٍ يفقهنَ معناهُ، فورثنَ مع جهلِهِنَّ عاداتِ جدّاتِهِنّ الأزليَّة اللصيقة بِمُجتمعِهِنّ، التي تمردَت عليها فتياتُ الجيلِ

الجديدِ مِمن قرأنَ وخططنَ بِالقلمِ وطرقنَ أبوابَ المدارِس ومُدرَّجاتِ الجامِعة.

لم تكُنْ "سيادة" كمثيلاتها ممَّنْ يُخفينَ وجوهَهُنَّ خلفَ سُتُرٍ واهيةٍ، ليست دليلًا على العِفّةِ بِقَدْرِ ما هيَ دليلٌ على التَّواري خلفَ تقاليد بالية، أو شعور مبالَغ فيهِ بالتَّضاؤل أمام سطوةِ الرَّجُلِ، والهروب مِنْ النَّظراتِ النَّهِمة الجائِعة التي لا تشبعُ مِن التّطلُّعِ إلى النِّساءِ، وكأنَّهُم يجدونَ في التَّربُّص للوجوهِ المليحةِ المكشوفةِ متنفّسًا وعِرًا، يُسرّي عنهُم دمامةَ زوجاتٍ أشبه بِالرِّجالِ صلابة وخُشونة، قد تعلّقْنَ في رِقابِهِم مع حشدٍ مِن الذّرّيّة.

رُبّما يدفَعنكَ غيرها مِنَ اللاهياتِ التي لا تحجُبهُنَّ تِلك السُّتُر وإنْ توارينَ خلفها، للانزلاقِ في لهوٍ غير بريءٍ وخطيئة قد تحصُدُ الرِّقَابَ، أو يعدّها البعضُ ثُرّهات يجِبُ التَّغاضِي عنها كشركٍ مُتَبادلٍ مِنْ غيرِ اتِّفاق.

فهل هو وهجُ الشَّمسِ ولفح نارِها الذي سلَبَ مِنْ أجسادِهِنَّ النَّضَارَةَ وصبغَ جلودهُنَّ بالسُّمْرَةِ القَاتِمَةِ، صهر مِنهُنّ القدودَ لتبدو كأعواد مُتخشِّبةٍ صلبةٍ؟

أمْ طبيعتهُنَّ القبليَّة وما أورثتهُنَّ مِنْ ملامِحَ حادَّةً مشوبة بِتقاطيع مُتنافِرة يغلِبُ عليها العوارُ في كثيراتٍ مِنهُنّ؟!

أمْ أنَّ طبيعةَ الجبلِ القاسية أضْفَتْ عليهِنَّ بِلا رحمة أو هوادة خِلْقة قاسية فظَّة؟

فياللشمس حينَ سلَبتهُنَّ ما تصبو إليهِ كُلُّ بنات حوَّاء مِن دلالٍ وميوعةٍ، وأودعتْ فيهِنَّ شهوةً طاغيةً، فأنضَجَ الحرُّ فيهِنَّ التّوَقان كما تُنضِجُ النَّارُ الطعامَ، وأوقدَ لهيبُ القيظِ فيهِنَّ ظمأ لا يرتوي، نِسوةً ورِجالًا على السَّواء.

حِجابٌ مِنَ العِفّة وأحجِبةٌ مِنَ الخجلِ والهياج، فكان مِن الطَّبيعيّ أنْ تبرُزَ بينهُنّ أيَّةُ امرأةٍ حباها اللهُ بمسحةٍ مِنَ الحُسنِ، فكيفَ لو كانت جريئةً مُندفِعةً، تُلفِتُ إليها الأبصار ويحومُ حولها الجدلُ؟

و"نادية" مِن "آلِ ظفَّار"، لم تُحرَم مِنْ قِسطٍ وافِرٍ مِن الجمالِ، لكِنَّ الطَّبعَ الجبليّ الرَّاسِخ فيها مع التَّقاليد البدائيّة والكبت المتوالي لأنوثتِها واحتياجِها، مع أَنَفة الكِبر والاغترار بالأصل العريقِ، جعلها كُلّ ذلكَ مِثل نِسوة الجبلِ غِلظة ونفورًا.

على النَّقيضِ مِنْ "سيادة" التي لا تمتلِك شيئًا سِوى جمالها، وخالها الأسود الدَّاكِن القابع أيسر الشَّفةِ السُّفليَّة في تحدٍّ كأَنَّهُ حارِسٌ مِنَ الزّنج على خِزانةٍ مِن العقيق الأحمر، يجعلها كفاكِهةٍ مُشتهاةٍ في يدِ مَنْ لا يستحِقّها.

بين يدِ الجهلان الذي لا يملِكُ القُدرةَ على قيادِها وكبح زمام جماحِها وجموحِها، وكأنَّ الزَّمانَ الذي منحها الجمالَ والحاجةَ، جعلها تحت بعلٍ ضعيفٍ نحيف البِنيَةِ والجسد والحال، فوجهُ زوجِها الجهلان كأَنَّهُ رأس مسمار، لهُ شارِبٌ غير مُشذَّب، لم يُعنَ بتهذيبِهِ، خالطَ البياضُ فيهِ السَّواد إمعانًا في سوءِ الحالِ، وإشارةً لتخطيه مرحلةً عُمريةً جديدةً واهِنةً مِن الشَّباب للكهولةِ أسرع مِن أقرانِهِ مدفوعًا بِسوءِ حالِهِ، لهُ ضحكة بلهاء وعينانِ زائِغتانِ ليس فيهِما غور تبرُقانِ كأَنَّهُما تدمعانِ، وكأَنَّهُ يوشِكُ على البُكاء، لا يترُكُ لديكَ انطِباعًا ولا تأثُرًا كأَنَّهُ غير موجودٍ، شخصيَّة سطحيَّة خانِعة لا يُمكِنها قيادة مَن هي مثل "سيادة" التي يهيمُ بِها حُبًّا ولا يُخالِفُ لها أمرًا رغم قلّةِ حيلتِهِ.

فهل أورثتهُ بنيتهُ الضَّعيفةُ الهشَّة مع فقرهِ هذا الاستسلام، الذي دفعهُ أنْ يغُضّ الطَّرْفَ عن تبسُّطِ زوجتِهِ الذي أثارَ حولها الرّيب، التي قد تكونُ

مدعاةً عِند البعضِ للانتقامِ أو الفُرقة، بينما هو غارِقٌ في ابتسامتِهِ البلهاء التي تنُمّ عن تغاضيهِ الدَّائِم الذي رسمَ على وجهِهِ هذا السَّمْتَ السَّخيف، حين تُناغِشُ الرِّجالَ، فتُكثِرُ مِن الوقوع معهُم وتُطيلُ الحديث، بينما هوَ فاغِرٌ فاهُ، مُستغرِقٌ في ابتسامتِهِ المُستفِزَّةِ، وكأَنَّهُ يُبارِكُ مسلَكها، الذي لا يدعوهُ للخجلِ.

ينحدِر "الجهلانُ" مِن أسرةٍ ميسورةٍ تتنصلّ مِنهُ ولا تُلقي لهُ بالًا، رغم كونِهِ بكريّ أبيهِ، بينما إخوتهُ لأبيهِ يرفلونَ في النَّعيمِ الذي حُرِمَ مِنهُ، حين استجابَ والِدهُ الحاج نوبي لِتحريضِ زوجتهِ الثَّانيةِ على والِدة "الجهلان" فطردها مع ولدِها صغيرًا.

رُبَّما قتل الهمّ "النّوبيّ" على ولدِه الآخر "يوسُف" الذي غيَّبتهُ أسوارُ المُعتقلاتِ مُنذُ سنواتٍ بعد أنْ بهرتهُ أفكارُ الحاكميّةِ والمجتمع الكافِر، فانبرى مع مجموعات تُكفِّرُ المجتمع وتُجهِّلهُ، فأطلقَ لحيتهُ وأسبلَ طرفًا مِن عمامتِهِ بين كتفيهِ، حتَّى اعتُقِلَ ضمنَ مجموعةٍ أثناء حضورِها درسًا للأمير الجهاديّ المكفوف الذي وسَمَ الحكومة بِالكُفرِ والخروج عن الشَّرع، فكفل الحاج "نوبي" أُسرة يوسُف وأبناءَهُ، حتَّى أفرِجَ عن "يوسُف" بعد سنوات، نحرَ يومها "النّوبيّ" عِجلًا احتفاءً بِالإفراج عن ولدِهِ ووزعهُ على الحاجِرِ كُلِّهِ، عدا "سيادة" التي ردَّت عطاءهُ في كِبرٍ وشمم بينما يشتهي أبناؤها الجُبن، انتحبَ ليلتها زوجها "الجهلان" قهرهُ إنكارُ والِدهِ لهُ وتركه في عوزِهِ وحاجتِهِ، بينما إخوتهُ في مالِ أبيهِم يرتعونَ! وزادَ "يوسُف" مِن اتِّساعِ الهوَّة بين "الجهلانِ" وأبيهِما حين ادَّعى أنَّ أخيه الأكبر غير الشَّقيق خنيس لا يغارُ على عِرضِهِ، ووعدهُ باسترضاء أبيهِ إنْ هو طلّقها فأبى "الجهلانُ" إلا أنْ يحيا مُعدَمًا ولا يُفارِقُ "سيادة" التي خصَّتهُ ليلتها بحنانٍ غامِرٍ قلَّما تمنحهُ لهُ.

ولم يكُنْ يرى فيها كما كانَ يدَّعي سِوى امرأة (رجيلة) يعني مُنزَّهةً طاهِرةً بيد أنَّها جريئة لا تهاب...

كان راتب "الجهلانُ" لا يكادُ يكفي الخُبزَ لِصِغارِه مِن عملِهِ خفيرًا على أحدِ المعابِد المُهدَّمة، الذي لم يتبقَّ منهُ سوى كُتل حجريَّة ورُكام، تناوبَ على هدمِهِ المماليك قديمًا لِبناءِ قصورٍ لهُم، و"عزوز" باشا الإقطاعي الشَّهير رجُل الصِّناعة والأعمال الذي أتى على ما بقيَ مِنهُ واتَّخذهُ في بِناءِ مصنع السُّكّر الشَّهيرِ على ضِفافِ النّيل، بينما "النّوبي" والِده صاحِب الأراضي والزِّراعات مُنقاد لامرأته الثَّانية التي أحالت قلب الرَّجل على ولدِهِ لصخرةٍ صمَّاء، يرمُقهُ وهو يُقاسي شظفَ العيشِ دون أن يمُدَّ يد العونِ لهُ، بعد أنْ أوغروا صدرَه عليهِ بسببِ تراخيه في إحكامِ خِطام امرأتِهِ، فأطاحوا بآخِر آمالِهِ أن يُعيد إليه الإرث حقًّا حرمهُ أبوهُ مِنهُ حالَ حياتِهِ، حينَ كتب "النّوبيّ" لـ"يوسِف" وإخوته أملاكه في حياتِهِ وقسَّمها بينهُم دون "الجهلان" ولده، الذي لا يستحقّ أن يخلُفهُ على مالِهِ، فلاذَ بسيّد الجبلِ الشّيخ "محمود" الذي أمرَ "النّوبيّ" أن يمنحَ "الجهلان" أرضًا يُقيمُ عليها مسكنًا بديلًا عن سكنِهِ بالأجرةِ في أحد مساكِن قرية السّيول، ولكِن هيهات للحجرِ أنْ يلينَ وأعلاهُ آخر يدورُ ويطحنُ أيَّةَ رأفةٍ تتسرَّبُ إلى نفسِ الرَّجُل حيال ولدِهِ بعد أنْ صارَ ألعوبةً في يدِ "يوسُف" وأمِّه العجوز، فنهرهُ الشّيخُ "محمود أبو ظفَّار" وشدَّدَ عليهِ أنْ يجمعَ شتات لحمِهِ الذي لو تمزّقَ لن يلتئِمَ، لعلَّهُ يأمنُ نِقمةَ ولده وانتِقام حفدتِهِ المُنغمسينَ في أوحالِ الفقرِ والحاجة، حتَّى رضخَ إكبارًا لتدخُّل الشّيخ الذي ما كان ليَرُدَّ لهُ طلبًا، وأقطعَ "الجهلان" دارهُ التي تستُرهُ مع "سيادة" وأولاده مِنها، فُتاتًا مِنْ حقِّهِ الذي يرفلُ فيهِ إخوتُهُ، كان بنو "الجهلان" صبيةً كأنَّهُم فتائِل مجدولةٍ مِن فرطِ النَّحافةِ مِنْ أثرِ الجوعِ

والحِرمان، وابنة وحيدة هي وردةٌ التي كانت حُلوةَ التَّقاطيع بيد أنَّ وجهها النَّحيف جعلها لا ترقى لحسنِ أمِّها، "سيادة" المُتكلِّمة الغبيّة التي تتوهَّم في نفسِها ذكاءً وفِطنةً يفوقُ غيرها، فتُفرِطُ ثِقتها في النَّاس تتوهّمُهُم ملائِكةً لا يكذِبون.

لم تدع مكتبًا لكِبارِ موظِفي المحافظة إلّا وطرقتهُ، حتَّى الصُّحف نشرتْ فيها شكواها وحاجتها للعمل، - "أبو ظفَّار" أملى – عنوان أملتهُ لأحد الصَّحافيين في جريدةٍ محلّيّةٍ تُناشِدُ المسئولين مُساعدتها في إيجادِ عملٍ لها في مكتب الشّئون الاجتماعيّةِ بالحاجِر، أسمعت بِلجاجِها الآذان المُتغطرِسَة الصَّمَّاء، فمُنيت بِتِلك الوظيفة بعد أن ولَجت لمكتبِ المُحافِظ الفارِه تسألهُ العون.

أعجِب المُحافِظُ لجرأتِها بعد أنْ أشادَ بعيونِها الجميلة! جرأة قد تنجحُ في إنفاذِ مأرَبٍ باندفاعٍ وحُمقٍ يغلِبُ عليهِ إحسانُ الظّنّ بنوايا البَشر المُتأرجِحة مع المصالِح والهفوات، ومبدأ المنفعة والضّرر، فأغراها طموحها الأجوف أنْ تزوِّج طفلتها ذات الأربعة عشر ربيعًا مِن طفلٍ لم يتجاوز العشرينَ هو ابنٌ لِمُقاولٍ ثريّ يقطُنُ القاهِرةَ وينحدِرُ مِن أصول جنوبيَّةٍ، ربّما طلبَ مُصاهرتها استجابةً لِنزعةٍ سريّةٍ تكفُلُ لهُ القُربى مِن الأمِّ المُتذاكية الطّموحة، بينما هيَ رغِبَت في إتمام هذه الزّيجةِ المُتعجِّلة طمعًا في الانتصار على أهلِ زوجِها، وأملًا في انتشالِ أسرتها مِنْ أتون الفقر وتداعياتِهِ السَّخيفة التي طالَ أمدها.

فأغرقت نفسها في الدّيون لإنجاحِ زواج غير مُبَررٍ ولا مُتكافئ، سابِق لأوانِه.

لِوردة التي لم تبرُز في قدّها النَّحيف مظاهِرُ الأنوثة، وكأنَّ غولانِ قاهِرانِ تصارعا على إخفاءِ أنوثتها هُما الفقرُ والنّحافة، وعدم بلوغها حدّ الاشتهاءِ.

ذهبت "وردة" ثُمَّ رجعت على غيرِ ما ذهبت بِهِ، حين غدت امرأةً طِفلةً طليقةً لِصبيٍّ مُدلَّل، مُكلَّلَةً بالأحزان، ومرارة تجرُبةٍ لم يحِنْ أوانها بعد لكوخ "الجهلان"، وأضحت "سيادة" غارِمةً بِدَينٍ ثقيلٍ.

تجرَّعتْ "وردةُ" الحنظلَ بديلًا عنِ العسلِ، وقاست المُعاناةَ وآلامًا نفسيّةً وجسديَّةً مُبرِحةً، بديلاً عن السعادة، حينَ دبَّت بقدميها الصغيرتينِ ميادين وشوارِع القاهرةِ، حتَّى ضواحيها وأحيائها العشوائيّة حيثُ مسكن زوجها، فلم ترتشف مِنْ حلاوة العاصمةَ وبُهرُجها، بل ذاقت الويل والألم في مدينةٍ فسيحةٍ كئيبةٍ نائيةٍ عن كوخِها الدافئ في أحضانِ الجبلِ، هكذا بدَتْ لها القاهِرة فور ولوجِها إليها!

ترتعِدُ كُلّما تذَكَّرتْ نظرةَ عريسها الشابّ القاهِريّ المُكرهِ على الزواجِ مِنها خضوعاً لأبيهِ، وهو يجولُ بعينيهِ الميتتينِ الخاليتينِ مِنَ الإحساسِ، نظرةَ الغرير الذي لا يأْبَهُ لشيءٍ، يطوفُ بِأرجاءِ جسدها النحيف ضامِرَ الأنوثة، عقِبَ أنْ حسَرَ عنها ثيابَ عُرسِها في حركةٍ آليّةٍ خاويةً مِنَ الشعور، وكأنَّهُ يُعاينُ دُميةً نحيفةً لِشبهِ أُنثى لم تتفتَّح براعِمها، ولم يبرُز منها ما يُشتهى، عاشَرها إثباتاً لِفحولتِهِ، ثُمَّ ولّى هارِباً مِنْ وجهِ أبيهِ لدولةٍ نفطيَّةٍ بالخليج ، رُبَّما بعد اتِّفاقٍ مُسبَقٍ بينهُما وترتيب! لم يعُد إلا عقِبَ رجوعها قريتها لأبويها الضحايا المُجرمين البُلهاء!

خالَفَت ظنّ "سيادة" أُمها التي تصوَّرَتْ أنَّها تضمنُ لابنتِها ولهُم جميعاً فُرصةً لتحسينِ الأحوال، والخروجِ مِنْ مسكنٍ كالقبرِ، لِسعةِ العاصِمةِ والمقاولِ الثريّ، فانزلقت تحت وهم تطلُّعاتِها وجموحِها في شركِ الاندفاع، وفقدتْ في سقطتها تِلكَ بكارة وبراءةَ طفلتِها، وباءَتْ بِصكوكِ ديْنٍ واجِبِ

الأداء، بدَّدتهُ في تجهيزِ عروسِها الطِفلة التي غدَت ثيّباً مُطَلَّقةً لا يطرُقُ بابها طارِق!

مُكَلَّلةً بِخزى رِحلةِ زواجٍ خاطِفةٍ فاشِلةٍ، غير مُتكافِئةٍ، وسيرةَ أُمٍّ تلوكُها الألسُن!

رُبَّما عنْ حقٍ أو أوهامٍ مريضةٍ وخيالاتٍ! مَنْ يدري؟

لازالَ الشيطانُ يتقافزُ أمام عيني "جاسِر" وفي أُفقِهِ المريض: مُنذُ زمنٍ وهيَ تطرُقُ بيتنا، تُعاوِنُ نِسوتنا في شئونِهنّ المنزلية، وتقبلُ راضيةً ما يجُدْنَ بِهِ عليها مِن أجرٍ وهِباتٍ لأجلِ ظروفِها تعاطفًا معها...

بينما تلوحُ في عينِ "جاسِر" أيّام طيشِهِ فيشتهيها ويسعى لنوالِها وكأنَّهُ يقولُ:

ماكفَفْتُ يدي عنها وغَضَضْتُ الطْرفَ إلاّ إكراماً لِمقامى جدّي وأبي، ها هو ذا الحاج سُلطان قد فارق الدُنيا بعد أنْ تجرَّع الهوانُ، وأعجزَ الهمُّ والمرضُ جدّي، فغدا في صمتٍ مُطبِقٍ وجمودٍ كالجُثمان.

حاولتُ التلطُّف معها في الحديثِ على غيرِ ما اعتادت، فحييتُها قائِلًا: كيف حالُكِ يا "سيادة"... فردَّتْ في التفاتةٍ بائِسةٍ: نِحمدهُ يا سيّد "جاسِر"...

كُنتُ أُطيلُ وقت حديثي معها، بينما تهيمُ عيناي في أوديةِ جسدِها البضّ وصدرها المُستدير الذي لم يترهَّل :

كيف حالُ "وردة"... فتُجيبُ بتحسُّرٍ نمَّ عنهُ مصمصةُ شفتيها:

لازالتْ مُنذُ تطليقِها قابِعةً في الدارِ لا تبرحها، وأنا كما ترى أستدينُ وأعملُ لديكُم بالإضافةِ لمهنتي بالوحدة الإجتماعية لِسدادِ ديونِ زواجها!

تسترسِلُ كأنَّها تستعذِبُ الشِكايةَ كُلّما سنحَت لها الفُرصة : هل بلغك أنّ أهل زوجِها بدَّدوا كُلّ ما جهّزتها بِهِ، واستولوا على أثاثِ شقَّتِها حتى الصيني والأوانى الخزفية وملاءات الأسِرّة لم يتركوها، بعد أنْ استدَنتُ مِن الجميعِ لتجهيزِها بِأفخرِ شوار، لقد رفضوا تسليمنا أيّ شيءٍ حتى ملا بِسها إلاّ بعد عِدَّةِ مجالِسٍ حكم لنا فيها الرِجال، فسلموها ممَزَّقةً باليةً، في حسرةٍ: لله الأمرُ والحمدُ ومِنهُم لهُ.

أثارت شهيَّة الاستحواذِ عِندهُ فانبرى يُمعِنُ النظرَ في شفتيها وخالها البُنيّ الأمين كأنَّهُ حارِسٌ على ثمرتِها المُشتهاة!

غالَبَتها نظراتُهُ فارتاعت أحسَّت بالوحشِ الرابِضِ داخِلهُ يتوثَّبُ للافتراسِ، فقد كانت خبيرةً بنظراتِ الرجالِ، تفطُنُ لها حين يلتمِعُ فيها بريقُ الرغبة المُحرَّمة، أو حين يغلِبُ السوءُ على نواياهُم !!

فأشاحتْ بِوجهِها مُتصنِّعةً الغفلةَ وعدم الاكتراث، بينما يُدبِّرُ الشيطانُ في جوفِهِ تدابيرهُ، حين طلبَ مِنها بِخُبثٍ تنظيف سطحِ العِمارة التي يقطنونها، لِرغبتِهِ في تشييد جلسةٍ مسائيةٍ أعلاها وتكعيبةٍ!

وعدتهُ بتنفيذِ مُرادِهِ أوان أوبتها مِن عملِها بعد الظهيرة، وكأنَّها تحرَّتْ توقيتاً يغلِبُ فيهِ انشغالهُ بِعملِهِ وغيابهُ عن المكان...

في نفسِهِ: غداً أبلُغُ مُشتهاي وأصِلُ لبُغيتي، إلى الغدِ إذًا يا "سيادة"، يا مَنْ تخضعينَ بِالقولِ دون الجسد! غدًا أُخضِعُ كليكُما، وأصُبُّ فيكِ لعنتي وغضبي...

فما اعتاد "جاسِر" الإخفاق أو الرفض... لا... لا... بل أخفقتُ معكِ وفشلتُ ! يامَنْ كُنتِ حبيبةَ عُمري، فألجئتِني لهذا الطريقِ ثانيةً!

كان انشِغالُ "نادية" بطِفلها المريض المُعوّق طاغيًا، جعلها لا تشعُرُ بِوجودِهِ ولا تأبَهُ لهُ...

استيقظ مِنْ نومِهِ حينَ ناجَزهُ الصباحُ ولاحت الشمسُ للبزوغِ، فوجد نادية تجلِسُ في رُدهةِ الشقَّةِ الفسيحة فخاطَبها بِتأفُفٍ يدعو للنفورِ:

كيف أصبحتِ يا ابنةَ الشيخِ "سليم"؟

فتُجيبُهُ دون أنْ تنظُرَ نحوهُ: لازال ولدُك طوال ليلتِهِ يئنُّ ويبكي! بينما تغُطُّ في النومِ تغرَقُ فيهِ حتى أُذُنيك مُستلقيًا على الأريكةِ في حُجرةِ الأضيافِ!

فيُجيبها كمن اعتاد سماعَ هذا اللحن السخيفِ يوميًّا حتى ملَّهُ:

تعلمين أنَّ عملنا المُجهِد في المحجرِ مع الشيخ "سليم" يُنهِكُ قوانا ويجعلنا نخلُدُ للنومِ لا نستشعِرُ ما يدورُ حولنا، ثُمَ يتجهُ للاغتسالِ وتناوُلِ لُقيماته، والخروج لا يلوي على شيءٍ!

لازالَ الشيخُ "سليم" يسألُ عن حفيدِهِ باهتمامٍ وشَغفٍ، كُلَّما سمِعَ عن طبيبٍ شهيرٍ في علاج دائِهِ أسرَع بِعرضِهِ عليهِ، أملاً في شِفائِهِ، حتى القاهِرة لم تخلُ مِن تطوافِهِ بحفيدِهِ عِند كِبار الأطِبَّاء! حتى انتهى إلى الحقيقة التي لا تقبلُ الجَدَلَ، أنَّ ما فيهِ "حسين" مرضٌ نادِرٌ نهايتهُ الموتُ!

ما ينفع الطِبّ فيما قضى بِهِ اللهُ...كفانا لُهاثًا خلف كُلّ وهمٍ... الشافي هو اللهُ... كلِماتٌ تردّدَتْ على ألسِنةِ الجميعِ... جعلتهُم يستسلِمون لقضاءِ الله وقدَرِهِ...

ادَّعى "جاسِر" الاعتلالِ، فاستأذن عمَّهُ في الانصراف بعد أذانِ الظُهرِ، مُتحيناً التوقيت الذي ينفرِدُ فيهِ بسيادة على سطحِ منزِلِهم، أوانَ غيبةِ عمَّاهُ، بينما زوجتاهُما ونِسوةُ البيتِ مُنشغِلاتٌ بِأعمالِهِنّ المنزليّة، وتستغرِقُ "نادية" في

سُباتٍ عميقٍ مع ولدها المُعتلّ، الذي لم يغمضْ لهُ ولا لها جفنٌ طيلةَ ليلتِهما الماضية!

يتسلَّلُ خِلسةً لِسيادة وهي تجوبُ السطحَ المُغطى بِقِطعِ البلاطِ الضخمة بممسحتِها في ذاتِ الوضعِ المُغرِقِ في الفتنةِ واللوعة فيُخاطِبها مُتصنِّعاً الحزم:

هل فرغتِ يا سيادة؟

فأفزعها قُدُومهُ في تِلك السَّاعة، على غيرِ أوانِهِ، فأجابتْ:

سيدي ما أقدمكَ الآن؟ بل ما أقدمكَ هُنا؟ وكأنَّها استشعَرَتْ إطلالةَ إبليسَ في عينيهِ، التي تُحدِّقُ في شفتيها الجافَّتينِ حتى التشَقُّق، مِن لهيبِ الشمسِ فوق السطحِ العالي، الذي بدا كمعزلٍ خاصٍّ، وخلوةٍ لا يُخشى فيها الافتضاح.

فيرُدُّ بمكرٍ بادٍ: جِئتُ أُتابعُ عملِ عنْ كَثَبٍ! ثُم يُلحِنُ في القولِ، فيُطرى جمالها قائِلًا: ما أشهى فِتنتكِ! كيفَ غُمّيَت عيناي عنكِ طيلةَ كُلّ هذهِ الأعوام؟

– لم يطعنكِ الزمانُ بِرُمحِهِ، فيُردي جمالَكِ! لازلتِ في ريعان الأنوثةِ فتيّةً قادِرةً على العملِ الشاقِّ الدءوب، فرسةً في حاجةٍ لِخيَّال، ومَنْ يُجيدُ اعتلاء جامِحاتِ الخيلِ سوى آل "أبو ظفَّار"؟

– فتهتِفُ بِهِ راجيةً: انزلِ يا سيدي هداك اللهُ، فلو رآنا راءٍ ما ظنَّ بِنا خيرًا أبدًا!

يزدرِدُ ريقَ شبقهُ الذي سالَ، كما يسيلُ لُعابُ الجائِعِ حين يشُمُّ رائِحة وجبةٍ شهيَّةٍ يُحِبَّها! ويُقهقِهُ بينما استعر خداهُ الأبيضانِ لهبًا متوهِجاً فاحمرّا، مِن القيظِ أو مِن وهجٍ آخرَ قد اشتعل في جوفِهِ! قد تجدَّدَ بعد أنْ انطفأَ مليًّا!

تُحاوِلُ الفِرارَ في حِنكةٍ وثِقةٍ غيرَ مُباليةٍ كمن اعتادت التحرُّش مِن الغُرباء وأتقنت التملُّص مِنهُم في الوقتِ المُناسِب، دون أنْ تُثيرَ حولها الريَبَ وتضاغُنِ النِسوة وخوضِ الألسِنة، فخاطبتهُ بِلكنةٍ حادَّةٍ:

سأنزِلُ لأرى هل تحتاجُ أُم "حسَين" لِشيءٍ!

بينما "جاسِر" يُمعِنُ إحكام الشبكةِ حولها فيقولُ وقد سدَّ طريقَ السُلَّمَ بِكِلتا ذراعيه:

-لا بل أنا المُحتاجُ، وهو يحدُجها بنظرةٍ مُتأجِّجةٍ، كأنَّها تُزيحُ عنها ثوبها وتُعرّيَها مُتفحِصةً مفاتِنها!

ترجوَهُ في عُتْبٍ: عيبٌ عليكَ، وأنت ابنُ حامينا الراحِل، وحفيدُ كبير الجبلِ.

فيُجيبُها: لا تخشى أحدًا، فلن يشعُر بِنا مخلوقٌ، فقط أدُسُّ أنفي بين نهديكِ، وألثُم خالَكِ المُتراقِصِ على خدَّكِ حين تبتسمينَ أو توجَلينَ كاليوم...

تستثيرُ شهامتهُ وقد شعُرت بإحكامِ الشَركِ حولها كالفريسة التي وقعت في يدِ الصيّادِ أو كالعُصفورِ الذي يتسلَّلُ للحُجرةٍ مِن فُرجةُ بالنافِذةِ ثُمَّ يعجزُ عنِ الخروجِ فيتخبطُ بين الجُدرانِ في هولٍ بحثاً عنِ النجاةِ ! فتقولُ :

أنقذتنى مِن براثِنِ فرَّاجٍ مُنذُ سنواتٍ لم تنظُر إليَّ نظرةَ سوءٍ، فما بدَّلَكَ اليوم؟

وقد جِئتَ تنالُ مِنْ شرفي وتقتنِصُ حقَّ زوجي، الذي يشهدُ اللهُ أنّي لم أخُنْهُ أبدًا رغم ما يُحاك عنّى مِنْ أقاصيص!

بينما يقترِبُ مِنها، يبغى احتوائَها بين ذراعيهُ، وهو يدفعها دفعًا، لِحُجرةِ الخزينِ المُلحقةَ بالسطح... فتتوسَّلُ إليهِ في ضراعةٍ بِصُراخٍ خافتٍ يخشى الافتضاح ، وجاسِرٌ يُمنِّيها: سأقضي عنكِ كُلَّ ديونكِ، وأهَبكِ ما تشائين!

فتُجيبهُ: لو أردتُ المال الحرام ما خدمتُ في بيتِ أحدٍ ولو كانوا أسياد الحاجِر!

يحاوِلُ أن يضُمَّها يلثُمُها، فتدفعهُ في وجلٍ، حتى وهنَت مُقاومتها وكادت توقِنُ بالهزيمة، فاغرورقت عيناها بالدموع، بينما جلجل صوتُ "نادية"، رنانًا كأنَّهُ قرعُ السياطِ: أراد اللهُ أنْ يفضحكَ يا خسيس، ذيلُ الكلبِ الأعوجِ أنَّى لهُ أنْ يستقيم؟

لولا صُراخُ ولدِكَ لأتممتَ جريمتك ، ولوثتَ بيت أبو ظفَّار الطاهِر...

يلتفِتُ نحوها في ذهولٍ ليجدها خلفهُ تحمِل ابنهُما، وهي لا تكُفُّ عنِ الصُراخ:

لا عيشَ لي معك بعد اليوم... ثُمّ تبصُقُ نحو سيادة في استِعلاءٍ: أتخوننى مع خادِمتى؟ ثُمّ تطرُدها وهي تقول: لا تدخُلي لنا دارًا بعد اليوم!!!

هبط الجميعُ السُّلَّم بدأتهُم "نادية" مُنتحِبةً باكيةً تُسرِعُ الخُطى، تختلِطُ دموعها بدموعِ صغيرِها الذي انتابهُ الفزَع! تبِعها "جاسِر" يرجوها أنْ تصفَحَ عن خطيئتِهِ التي لم تتمِّ، بينما تبِعتهُما سيادة بُخُطىً مُتثاقِلةً بطيئةً أثقلتها الهموم والتُهمةِ الباطِلة، فكم اعتادَت تِلكَ السخافات، وإنْ عظُمَ في نفسِها أنْ تخرُج مُهانةً، تخشى أنْ تغرُبَ شمسُ الجبلِ وقد غدت قِصتها مع "جاسِر"، حديثَ السُّمَّار والعابثينَ، بعد أنْ يُضيفوا عليها الأكاذيب، مِن وحي خيالاتِهِم المريضة، لم تعُد تحتمِلُ هذه الحياةَ القاسية، فلِمَ تترُك فُرصةً

تُحرِّرها مِن شظفِ الحياةِ وقسوةَ البشر، فتترُك لِجسدِها العنان ليُحلِّق مِن أعلى المنزِلِ الشاهِقِ فتنتهى آلامها.

ولكِنْ كيفَ يعيشُ أولادى ولا لِسانَ صِدقٍ يرُدُّ عني التُّهَم، فتُحاوِطهُم اللعنات، أو يعجزُ زوجي عن سدادِ دينى فيُسجنَ، ويتشرَّدونَ، الأمرُ لكَ ياربَ السماء.

استقدمَت "نادية" والِدها، الذي استبدَّ بهِ الغضب فقال لابنتِهِ موبِّخًا: ألَمْ أنهكِ عن هذهِ الزيجةَ؟ وبذلتُ جهدي حتى لا تكونين لِهذا الفاسِدِ امرأةً!

يجلِسُ "جاسِر" مُطأطئ الرَّأسِ في تربُّصٍ يختلِسُ مِن وجهِ "سليم" نظراتٍ مُمتلِئةً غيظًا ونفورًا، يتوارى خلف هدوءِ "سعيد" الذي غدا حكيم العائلةِ، يُقلِّبُ الأمورَ على أوجُهِها، علّهُ يصِلُ مع سليمٍ الثائِرِ لِحلٍ يُهدئ مِنْ روعِهِ.

يقولُ "سعيدٌ" وهو يلوكُ لِسانَهُ في فمِهِ، وكأنَّهُ يعُدُّهُ لِمُهمةٍ يُقحِمهُ فيها على مضضٍ: شاهِرٌ ابنكَ كنادية، وقد ارتكبَ طيشاً مجنوناً، لا يُقِرَّهُ عاقِلٌ، ولو كان "سُلطانٌ" بين ظهرانينا اليوم أو لازالَ الشيخُ "محمود" بصِحتِهِ، لجلداهُ على إحدى شجراتِ الحديقةِ! ويستطرِدُ دون ان يُقاطِعهُ أحدٌ مُستنكِرًا:

أوَ يُلوَّثُ بيتنا رمزُشرفِنا، وسطَ النِسوةِ والأبناء؟ كيفَ واتتهُ الجرأةَ على هذا التدنّى ،كيف وصل حالهُ لذلِكَ الانحِدار؟

-أدِّبهُ ماشِئتَ فأنتَ والِدُهُ، وخليفةُ جدِّهِ وأبيهِ، ولكِنْ لا تخرِب البيتَ الذي عمَّرهُ الأجدادُ، ولا تفصُم الرِباط الذي عقدهُ الشيخُ محمود بِيديهِ وباركهُ (يقصِدُ زواجَ "نادية" مِنْ "جاسِر")، فخُذ عليهِ مِن التضميناتِ ما

شِئتَ، وأنا اضمنهُ لكَ ضمانةً خاصَّةً نهائيّةً، بعدها لا أتشفَّعُ لهُ أبداً وأكُفّ يداي عنهُ!

- في غضبٍ جامِحٍ بينما يعلو صوتُهُ وكأنَّهُ يُخاطِبُ على البُعدِ قوماً غيرهُم:

- لا ضمانَ لِفاجِرٍ، لابُدَّ أنْ يُطلِّقَ "نادية"! والآن!

يتأزَّمُ الموقِفُ وتعلو الأصواتُ وتحتدِمُ، فلا مجالَ لِتدخُّلِ النِّساءِ فيما يؤولُ إليهِ مصيرهما.

يرُدُّ "جاسِر" وقد امتلأ حُنقًا: أفعل لو كانت تِلك رغبتها.

تثورُ ثائِرة "سليم"، فيتطايرُ الزبدُ مِن فيهِ، وهوَ يصرُخُ: "نادية"... "نادية"...

فتدخُلُ واجِمةً، فيسأَلها: هل تقبلين وساطةَ عمّكِ "سعيد"، فتُجيبهُ: عمّي فوق رأسي، لكنّي لا أطيقُ العيشَ مع عابِثٍ خائِنٍ.

فيتدَخّل العمّ: قبل أنْ تُخرِبي بيتكِ أرجو أنْ تعلمي أنَّني انتويتُ أمرًا أخيرًا...

سأرحلُ... لم أعُدْ أُطيقُ العيشَ في الجبلِ بعد سُلطانٍ وأنا أرى الشيخَ الكبيرِ عاجِزاً كالميّتِ! لم يعُد لي مكانٌ هُنا، ولم يعُد الجبلُ يتَّسِعُ لكلينا، وهو يومئ لسليم، يكفيهِ سيّدٌ واحِدٌ، وسيصحبني "جاسِر" إكرامًا لِعظامِ "سُلطان" في قبرِهِ.

سنتشاركُ سويًّا ونُقيمُ مشروعاتِنا الخاصّة بالنقلِ الثقيلِ، وسنشتري مزرعةً كبيرةً في النوبارية شمالًا، نبحثُ هُناكَ عنْ ذواتِنا التي ضيَّعها نزقُ الأمسِ واليومِ، حتى انزلقنا لِهاوٍ سحيقةٍ، لعلّنا نستعيدُ شيئًا مِمَّا فقدناهُ وابتلانا الدهرُ بِهِ.

في أسفٍ واضِحٍ يكادُ يرقى لِحدّ البُكاءِ:

-يكفيكَ هذا يا سليم، أنْ يطيبَ! لكَ الجبلَ وحدَكَ دونَ شريكٍ !!

ويكفيكِ هذا يا نادية، أنْ يبتعِدَ عنكِ "جاسِر"، رُبَّما تُحلِّقُ طيورُ الغُفرانِ في أُفُقُكِ، وتستبِدُّ بِكِ الشفقة! فتغفرين ولو مِن على البُعدِ وتُراجعينَ نفسكِ دونَ عجلةً، ولندع الأيَّامَ تُبرئ فينا الجِراحَ.

يصمُتُ الجميعُ وكأنَّ "سعيدًا" نطقَ بِما أثلَجَ صدورهُم!

لم يكُنْ "مُرتجى" ولد "بشندي" ووحيدهُ راضيًا كُلَّ الرِّضا عن مسلَكِ والِدِه وسحرِهِ الذي رفض أنْ يتخلّى عنهُ.

لا يُنكِرُ أنَّ ما فيهِ مِنْ نِعمةٍ وخيرٍ، سببُهُما الأوحدُ دجلُ أبيهِ وحِرفته.

ولكِنَّهُ لم يعُد يستطيعُ المُكثَ وسطَ أتون مُحرِق، يتناوبهُ صِراعٌ داخليٌّ بين مُتعتِهِ وملذّاتِهِ وشرُّ أبيهِ وكراهيةِ الناسِ لهُ.

اختار الابتعاد، تارِكًا زوجتهُ وولديهِ مع أُمِّهِ وأبيهِ يزورهُم كُلَّ حينٍ.

وكأنَّ قانونَ الجبلِ أصبح لَفظ الرَّافضينَ النَّاقمينَ، فلم يجِد "مُرتجى" خيرًا مِنْ صديقِهِ "جاسِر" وعمِّهُ "سعيد" ليُشارِكهُما الرِّحلةَ الجديدة، ويبتاع مزرعة تُجاورهُما، يبدؤونَ فيهاَ مِنْ جديدٍ.

كان الاستعدادُ للفراقِ موجِعًا، خفّفَ مِنهَ نبأُ وفاةِ الشّيخ الكبير، الذي هوَّنَ كُلّ مُصيبةٍ!

اهتزَّ للنبأِ كلّ مَنْ في الجبلِ رغم مُكثِهِ شهورًا لا يُحرِّكُ ساكِنًا ولا تذوقُ شفتاهُ أحرُفَ الكلِم، وكأنَّهُ جبلٌ يتهاوى حتَّى صارَ دكّاءَ، لم يعُد في بقايا أُسرتِهِ مَن يملأ فراغًا خلفهُ، أو يصلح لِخلافتِهِ.

فانفرطَ عِقدُ الجبلِ والنَّاس، أصبحَ الحاجِرُ قريةً كبيرةً مُكتظَّةً يقطُنها أخلاطُ البشرِ.

مسلمونَ ونصارى، عربٌ وبدوٌ وأغرابٌ، لم يعُدْ يحكُمها القانون الصَّارِم نفسه الذي جارَ وجنى على نفسِهِ فيما جنى.

وما عادت قريةُ الجبلِ وحاجِرهُ كيانًا قويًّا يُطوى في كفِّ رجُلٍ واحِدٍ، وما عادَ أحفادُ آل ظفّار ذوي مجدٍ تليدٍ كما كانوا، هووا جميعًا بعد أنْ اخترمَ الموتُ آخِرَ كُبرائِهِم، كما تبدّدَ مجد وعِزّ وسُلطان رُبَّما بدَّدهُ عصرٌ لم يعُد يحتمِلُ مِثل هذه النَّوعيَّة مِن الرِّجالِ، الذينَ فنَوا ولم يتبقَّ مِنهُم سِوى الأساطير.

***